
أولاد
حارتنا
سيرة الرواية
المُحرمة
محمد شُعير
دار العين للنشر



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

الإهداء

إلى

طه حسين و نصر أبو زيد

«ومرت عربة كارو تحت الشباك وهي تنشد مصفقة: «الفاتحة للعسكري.. قلع الطربوش وعمل ولي»، وابتسم قاسم فتذكرا ليلة غنّى المعلم يحيى هذه الأنشودة وهو في تمام السطول. آه لو تستقيم الامور فلا يبقى لك إلا الغناء يا حارتنا»

«اولاد حارتنا». الفصل 76

«إنني سائح في متحف لا أملك فيه شيئًا. مؤرخ فحسب. لا أدري أين أقف؟»

كمال عبد الجواد. الثلاثية

المحتويات

٢١ سبتمبر ١٩٥٩

انخفاض مفاجئ في درجات الحرارة، الجو أقرب إلى البرودة، والسحب الخريفية تغطي سماء القاهرة. الشيوعيون في سجن المحاريق بالواحات، بينما تتواصل الحملات الإعلامية ضدهم.

لص مجهول يسطو على «كرمة ابن هانئ» بيت الشاعر أحمد شوقي على نيل الجيزة، من بين المسروقات «نخلة من الذهب» أهداها أمير البحرين حمد بن عيسى لشوقي احتفالًا بمبايعته أميرًا للشعراء في أبريل ١٩٢٧، وكأس من الفضة هدية من الاتحاد النسائي برئاسة هدى شعراوي.

العناوين الرئيسية للصحف تتحدث عن مظاهرات حاشدة في العراق ضد عبد الكريم قاسم[١]، بعد تنفيذ أحكام الإعدام في عدد

(١) أول رئيس للعراق بعد الإطاحة بالنظام الملكي عام ١٩٥٨، وقد أُعدم بعد محاكمة صورية لم تستغرق إلا بضع دقائق في ٨ فبراير ١٩٦٣.

من قادة «ثورة الشواف»[٢]، «أخبار اليوم» تقود الهجوم الأعنف، فقد وصمت «قاسم» بأنه «نيرون بغداد»، كما نشرت نصًا تحت عنوان «الكتاب الملعون»، قالت إن «قاسم» يتبنى الأفكار الواردة فيه وزعمت أن جهات مخابراتية سوفيتية هي التي أعدت الكتاب الذي يطعن في الدين الإسلامي، ثم خصصت صفحة كاملة للداعية عبدالرزاق نوفل ليفند ما جاء فيه من أفكار.

الصورة الرئيسية في كل الصحف تقريبًا لـ عبد الناصر بصحبته عبدالحكيم عامر يطلان لتحية الجماهير من نافذة قطار كانا يستقلانه عائدين من مدينة رشيد للقاهرة، وكان عبد الناصر قد ألقى قبل يومين خطابًا في «رشيد» ضمن الاحتفال بذكرى انتصارات المدينة على الجيش البريطاني (١٨٠٧)، العناوين تركز على تصفية الإقطاع وتوزيع قطع من الأراضي الزراعية على الفلاحين، وإطلاق «مشروع ناصر لتمليك الماشية للفلاحين». في الاحتفالية نفسها، سلم عبد الناصر جوائز الفائزين في مسابقة «في سبيل الحرية»، القصة التي بدأ كتابتها أثناء دراسته في المدرسة الثانوية، عن معركة رشيد، ولكنه لم يستكملها، وقام المجلس الأعلى للفنون والآداب بتنظيم مسابقة لاستكمالها. شاركت فيها ٣٤١ قصة، وعقدت لجنة النشر بالمجلس الأعلى ١٤ اجتماعًا لاختيار الفائزين الثلاثة: المقدم

(٢) حركة تمرد قادها العقيد عبد الوهاب الشواف للإطاحة بعبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف

أركان حرب عبد الرحيم حجاج، والكاتبين: عبد الرحمن فهمي، وفاروق حلمي. وكان يوسف السباعي السكرتير العام للمجلس قد شكا في مقال له بعنوان: «كيف أُكملت قصة الرئيس؟» من امتناع الكُتَّاب الكبار عن الاشتراك في المسابقة، لذلك جاء المستوى ضعيفًا. وقد احتفت الصحافة بنص حجاج رغم أنه الأضعف فنيًا، ربما لكونه ضابطًا، ولأنه استخدم شخصية عبد الناصر في الرواية، وربما أيضًا لإشادة كمال الدين حسين وزير الإدارة المحلية ورئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب وقتها بالنص!

على المستوى الدولي، اهتمت الصحف بأول زيارة لزعيم سوفيتي إلى الولايات المتحدة، حيث ألقى نيكيتا خروتشوف خطابًا في الأمم المتحدة، طالب فيه «بإلغاء الجيوش من كل دول العالم وإلغاء وزارات الدفاع والكليات العسكرية، والاكتفاء بمجموعات صغيرة لحفظ الأمن الداخلي». ومن جانبها تواصل «الأهرام» اهتمامها الذي بدأ قبل أسبوعين بتغطية وصول الصاروخ الروسي إلى القمر، مدشنًا بذلك عصرًا جديدًا من العلم والمعرفة.

عدد من الصحف واصل حملته ضد من سماهم «أتباع جيمس دين»، وهم مجموعة صغيرة من الشباب المصري المعجب بالممثل الأمريكي (١٩٣١-١٩٥٥) الذي أصبح سريعًا جدًا -وقبل أن يكمل عامه الرابع والعشرين- نجمًا عالميًا، وجعله أداؤه لشخصية «جيم ستارك» في فيلم «متمرد بلا قضية» (١٩٥٥)، أيقونة

للشباب، وأضفى عليه مصرعه الفاجع، في حادث سيارة، هالة أسطورية فراح الشباب يقلدونه في مظهره وملابسه. الحملة تتهم الشباب بالتمرد على جيل الآباء، وممارسة رقصة مستهترة تُسمى «تشا تشا»، وتدخين السجائر وإطلاق شعرهم بلا تهذيب. ووصم بعض خطباء المساجد هؤلاء الشباب بالفساد والانحلال، كما طالب صحفيون وسياسيون بتجنيدهم لتهذيبهم وتعليمهم الرجولة.

ولقي كل هذا الضجيج صدى لدى عبد الحكيم عامر فتقدم للتصدي لهذه الظاهرة، موجهًا -باعتباره وزيرًا للحربية- رجالًا من البوليس الحربي باستيقاف، وحلق شعر رأس كل من يجدونه في الأماكن العامة يرقص «تشا تشا» أو يغني أغنية عبد الحليم حافظ «أبو عيون جريئة».

في صحيفة «الأخبار» يحاور ناصر الدين النشاشيبي البروفيسور «ستن فريبرج» عضو مجلس إدارة جائزة نوبل الذي يعلن أن: «الجامعات العربية مسؤولة عن عدم ترشيح أي عربي لجائزة نوبل»، كما يكتب أحمد بهاء الدين من استوكهولم عن مسرحية جان بول سارتر «سجناء التونا» التي اعتبرها «أخطر عمل فني منذ نهاية الحرب العالمية».

في القاهرة، كان المسرح القومي يقدم «العشرة الطيبة»، وفرقة الريحاني تقدم «حكاية كل يوم»، وسلسلة «كتابي» تصدر ترجمة عربية لرواية باسترناك «دكتور زيفاجو» في جزءين، وسلسلة مكتبة

الفنون الدرامية تصدر ترجمة لمسرحية تينسي وليامز «قطة على صفيح ساخن»، ورياض السنباطي انتهى من تلحين «الحب كده» التي ستفتتح بها أم كلثوم موسمها الغنائي، دور السينما كاملة العدد، أفيشات الأفلام الجديدة تحتل مساحة كبيرة من إعلانات الصحف، بإمكاننا أن نرصد في ذلك اليوم أكثر من ١٥ فيلمًا أجنبيًّا من بينها «حسناء النهر» لصوفيا لورين، «ذو الوجه الأصفر» لبوب هوب و جين رسل، «أعظم مغامرات طرزان»، ونفس العدد تقريبًا للأفلام المصرية، منها «عاشت للحب» لزبيدة ثروت، «الحب الأخير» لهند رستم وأحمد مظهر، «البوليس السري» لإسماعيل يس.

■ ■ ■

في صفحتها العاشرة، بدأت صحيفة «الأهرام» نشر أول حلقة من رواية نجيب محفوظ الجديدة «أولاد حارتنا»، والتي كانت قد أعلنت عنها في صفحتها الأولى قبل أسبوع:

اتفقت الأهرام مع نجيب محفوظ كاتب القصة الكبير على أن تنشر له تباعًا قصته الجديدة الطويلة. إن نجيب محفوظ هو الكاتب الذي استطاع أن يصور الحياة المصرية تصوير فنان مقتدر مبدع، ولذلك فإن قصصه كانت حدثًا أدبيًّا بارزًا في تاريخ النهضة الفكرية في السنوات الأخيرة. ولقد وقع الأهرام مع نجيب محفوظ عقدًا يصبح للأهرام بمقتضاه حق النشر الصحفي

لقصته الجديدة مقابل ألف جنيه. والأهرام لا يذكر هذا الرقم -وهو أكبر مبلغ دفع في الصحافة العربية لقصة واحدة- تفاخرًا أو ادعاء، وإنما يذكره ليسجل بدء عهد جديد في تقدير الإنتاج الأدبي[٣].

لم يكن المبلغ الكبير وحده عنوان احتفاء «الأهرام» بمحفوظ، بل مهدت الصحيفة للرواية بما يشبه حملة دعائية، بدأت قبل النشر بأربعة أيام بحوار طويل[٤] أجرته إنجي رشدي معه وتحدث فيه باستفاضة عن عوالمه الإبداعية، وتجربته، ودراسته للفلسفة، وحبه للموسيقى، وأشار باقتضاب إلى روايته الجديدة «أولاد حارتنا»..

وقبل يوم واحد نشرت هذا الخبر على صفحتها الأولى: «قصة نجيب محفوظ ستبدأ في الأهرام غدًا».. مصحوبًا بصورتين لمحفوظ وللتشكيلي المصري الحسين فوزي الذي رسم شخوص الرواية.

■ ■ ■

الواقع يبدو متداخلًا فنيًا وفكريًا وسياسيًا، كان محفوظ يكتب سيناريو «إحنا التلامذة» عن قصة لتوفيق صالح، وكامل يوسف، وركزت دعاية الفيلم الذي قام ببطولته عمر الشريف، وشكري سرحان، ويوسف فخر الدين مع تحية كاريوكا، على اعتباره «فيلم كل شاب وكل فتاة، كل أب وكل أم، كل أسرة وكل بيت. يحارب

(٣) الأهرام، ١٤ سبتمبر، ١٩٥٩.
(٤) الأهرام، ١٨ سبتمبر، ١٩٥٩.

الميوعة ويدعو للقوة والبناء». وهي العبارة التي كُتبت بخط واضح على «أفيش» الفيلم، وبدت كأنها امتداد لحملة تهذيب «أتباع جيمس دين». العارفون بمحفوظ وتقاليد السينما يرجحون أن العبارة لا تخص محفوظ، بقدر ما تخص المنتج حلمي رفلة الذي تحدث عن الفيلم في مجلة «الجيل» باعتباره جزءًا من رسالة «ضد أشباه جيمس دين بعد أن تعددت مظاهر ميوعتهم وكثرت حوادث انحرافهم، ما أدى إلى تدخل بوليس الآداب، وبعد أن دفعهم الحرمان إلى طريق الألم، طريق الشر». رفلة قال إنه اختار نجيب محفوظ لكتابة السيناريو لأنه «عُرف بعمق دراسته، وقوة تصويره للشخصيات وبراعته في التعبير عن أحاسيسها وانفعالاتها».

ويكتب محفوظ - أيضًا - قصة «بين السماء والأرض» الفيلم الذي أخرجه صلاح أبو سيف وعُرض متزامنًا مع نشر «أولاد حارتنا» وهو يمثل نقلة في سينما محفوظ من الواقعية إلى الانفتاح على الرمز، كما في «أولاد حارتنا» التي تخلى فيها عن «الواقعية الصريحة» التي بلغت ذروتها في «الثلاثية»: «بين القصرين»، «قصر الشوق»، «السكرية». يطرح الفيلم أسئلة فلسفية تتعدد وتتباين إجاباتها، وتظل معلقة مثل أبطال الفيلم العالقين في مصعد معطل، بين السماء والأرض.

بصمات محفوظ واضحة بقوة كسيناريست يبدع في البحث عن حلول فنية لمحدودية المكان وهي معضلة فنية نجح محفوظ، كروائي في

تخطيها، بل والإجادة في استغلالها لصالح أهدافه الدرامية سواء في «زقاق المدق» الرواية التي تدور أحداثها في حارة ضيقة أو فيما بعد في «ثرثرة فوق النيل» التي تدور أغلب أحداثها في عوامة على النيل. بخلاف المكان المحدود الذي تخرج منه عوالم نابضة بالحياة. يثير محفوظ طوال الفيلم أسئلة عن الحدود بين الحقيقة والخيال، الموت والحياة والعقل والجنون، الواقع والسينما. لم يلق الفيلم وقت عرضه ترحيبًا من النقاد، أو الجمهور، وقد برر محفوظ -بعد سنوات- سبب فشل الفيلم بأنه «تجربة جديدة في السينما المصرية في ذلك الوقت، وربما كان نجاحه لاحقًا على العرض الأول، الناس لم تكن متعودة على هذا النوع من الأفلام»، وأضاف متحدثًا عن مصدر إلهامه في تلك التجربة الهامة: «كانوا عملوا في أمريكا فيلمًا من نفس هذا النوع بهدف الغمز لهتلر، بطله يستبد بالناس في شقة مغلقة ونجح الفيلم جدًّا في الغرب»[٥].

■ ■ ■

وقبل شهور أحدث تصريح لوزير الثقافة والإرشاد القومي (المركزي) صلاح البيطار[٦] دويًّا شديدًا في الأوساط الأدبية، إذ قال الوزير إن أدبنا لا يعبر تعبيرًا كافيًا عن آمال العرب القومية. صحيفة

(٥) يوسف القعيد، «نجيب محفوظ إن حكى»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥

(٦) كان صلاح البيطار، وهو أحد قادة حزب البعث العربي الاشتراكي، وزيرًا للثقافة في الحكومة المركزية أثناء الوحدة المصرية - السورية ١٩٥٨ - ١٩٦١، بينما كان ثروت عكاشة وزيرًا في حكومة الإقليم الجنوبي (مصر).

الجمهورية واجهت الأدباء بما قاله الوزير، فعقب نجيب محفوظ:
«إن حركة إحياء التراث العربي، ودراسته دراسة منهجية جديدة كما صنع طه حسين والعقاد وغيرهما عمل من أعمال الفكر القومي.
كما أن كل أدب ليس ضد الوحدة فهو معها». الغريب أن الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي كان قريبًا من موقف البيطار في تعليقه حين اعتبر أن «أدباء الإقليم الجنوبي (مصر) هم أكثر الأدباء العرب قبولًا وشهرة لدى الجماهير العربية لكنهم مقصرون في التعبير عما يضطرب في وجدان هذه الجماهير من آمال عريضة. حجازي سخر من تبريرات الأدباء (نجيب محفوظ ويوسف إدريس، ويوسف السباعي، وأمين يوسف غراب وعلي أحمد باكثير) التي جاءت في تحقيق «الجمهورية»، ودعا إلى إقامة ندوات لأدباء الإقليم الشمالي والجنوبي لشرح الأفكار القومية والدعوة لها، وأن تتحول لجان الاتحاد القومي إلى مدارس ثقافية وفكرية يتعلم فيها الشعب حقيقة عقيدته القومية التي كان الرئيس عبد الناصر أول سياسي ومفكر طرحها بقوة وإيمان شديدين على الشعب العربي في مصر، وأنه ينبغي على الشباب أن يسيروا على هدي زعيمهم، حتى تصبح واقعًا حيًّا بيننا يتنفسه كل مواطن ويجد الأديب نفسه مدفوعًا تلقائيًّا للتعبير عنه»[٧].

---

(٧) صباح الخير، ٢٦ مارس ١٩٥٩.

لا حياء في الأدب

لم يكتب نجيب محفوظ عن قضايا القومية العربية، كما دعاه أحمد عبدالمعطي حجازي، كان مشغولًا بأفكار أخرى. تحدث محفوظ لأنيس منصور في صحيفة الأخبار[٨] عن النظام الصارم الذي وضعه لنفسه، وعن كراهيته الشديدة للسفر لأنه «يلخبط عليه حياته»..

وسأله منصور: افرض يا نجيب أنه حدث وأنت نائم أن احتشدت في نفسك أفكار ومعان ولا بد من كتابتها حالًا وإلا ضاعت فما العمل؟ أجابه محفوظ: «تقصد الإلهام؟ أولًا أنا لا أقوم من نومي.. لأنني إذا قمت فسأذهب إلى عملي مرهقًا، ولا أؤدي عملي، أو سأضطر لأن أنام مرة أخرى بعد تسجيل الإلهام هذا.. وهذا يربك عليَّ حياتي..

(٨) الأخبار، ٤ نوفمبر ١٩٥٨.

ولذلك سأنام ولا يهمني هذا الإلهام».
أنيس منصور وصف محفوظ بـ «القطار».. وكتب: «يتطلع نجيب محفوظ حوله، فأفهم أن جرس المحطة دق، وأن القطار في طريقه إلى البيت ليأكل وينام ويصحو ويبدأ في كتابة الصفحة الأولى من قصة طويلة سيفرغ منها بعد سنتين بالضبط واسمها «أولاد حارتنا»..
كانت هذه هي المرة الأولى التي تكشف فيها الصحافة رواية محفوظ التي بدأ في كتابتها!
وبعد أربعة أشهر سألته الأهرام[9] بمناسبة توليه منصبه الجديد كمدير لمصلحة الرقابة على المصنفات الفنية: ما أمنيتك؟ أجاب محفوظ: «أمنيتي أن أواصل كتابة رواية «أولاد حارتنا» التي بدأت فيها». كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها محفوظ بنفسه عن روايته، وقبل نشرها بسبعة أشهر كاملة.
بعد أربعة أيام من حوار محفوظ مع الأهرام نشرت مجلة البوليس[10] تقريرًا موسعًا عن الرواية الجديدة التي يكتبها، وتوقعت المجلة أن تثير الرواية ضجة كبيرة فور صدورها:

إن نجيب يكتب الآن رواية جديدة اسمها «أولاد حارتنا» بعد أن كان قد قرر التوقف عن الكتابة نهائيًا. لقد كتب من هذه الرواية حتى الآن ٧٠ صفحة.. وسوف تحدث

(٩) الأهرام، ١١ فبراير ١٩٥٩.
(١٠) البوليس، ١٥ فبراير ١٩٥٩.

الرواية ضجة كبيرة عند ظهورها. إن نجيب لن يتوقف عن الكتابة أبدًا.. إن سنه الآن ٤٧ سنة، وهو غير متزوج ويعيش حياة متواضعة منظمة.. إنه يخرج من عمله الحكومي في الثانية بعد الظهر.. ثم يتناول غداءه في بيته ويستريح قليلًا، ثم يبدأ القراءة والكتابة يوميًّا حتى العاشرة مساء.. ثم ينام بانتظام في الساعة العاشرة.. إنه فنان كبير، ولكنه مع ذلك موظف منتظم في عمله لا يتأخر عن الساعة الثامنة.. أو الموعد الرسمي للعمل أبدًا. ونجيب يفيض حيوية وتواضعًا وذكاء وطيبة.. ومثل هذا الرجل عمره طويل جدًّا في دنيا المواهب والعبقريات، ولا يمكن أبدًا أن يتوقف عن الإنتاج الفني بحال من الأحوال. وفي القريب نقرأ أولاد حارتنا.

ثم توالت تعليقات المجلات والصحف على الرواية المنتظرة لنجيب محفوظ.

سأله محرر مجلة الجيل[11]:

• ما هو آخر عمل أدبي تقوم به الآن؟

قصة اسمها «أولاد حارتنا» بدأتها في أكتوبر ١٩٥٨، وكتبت منها حتى الآن ١٥٠ صفحة فولسكاب

(١١) مجلة الجيل، ٢٠ مارس ١٩٥٩.

وستكون القصة في حوالي ٣٠٠ صفحة.

• وما موضوع القصة؟

أرجوك اعفني من هذا السؤال.

• بلاش موضوعها ولكن.. ما هو نوعها؟

ولا هذا.. إنها قصة من نوع جديد، لم أكتب مثله من قبل، لذلك أنا متهيب جدًا، متهيب جدًّا!

وبعد ثلاثة أسابيع عاودت المجلة[١٢] سؤال محفوظ عن دعائه في ليلة القدر، فأجاب:

«يارب ساعدني على إتمام رواية «أولاد حارتنا» التي بدأتها في أكتوبر الماضي. يارب يتم الاتفاق على منع الأسلحة الذرية حتى نعيش لنحقق أمانينا لوطننا ولأنفسنا، يارب تنتهي حرب الجزائر بانتصار العرب».

ونشرت مجلة «صباح الخير»[١٣] خبرًا يصف الرواية الجديدة بأنها تتضمن نظرة جديدة من نجيب إلى الحياة.. ويضع فيها مجموعة من الأفكار ستكون مفاجأة لكل متتبع لإنتاجه .

كما سألته مجلة «العربي»[١٤] الكويتية قبل أقل من شهرين من نشر الرواية: ماذا تكتب الآن؟

(١٢) مجلة الجيل، ٦ أبريل ١٩٥٩.

(١٣) صباح الخير، ١٦ أبريل ١٩٥٩.

(١٤) العربي، أغسطس ١٩٥٩.

ا . . سيناريو فيلم صلاح الدين الأيوبي، وقصتي المقبلة التي
ا . «ا» أولاد حارتنا».

و. الم. ا. سأله المحاور: هل لك رأي خاص في الأدب المكشوف؟

ا . ا. . محفوظ:

أومن بالأدب الجيد، أعني الأدب العميق، الشامل، الإنساني، الذي يعالج مشاكله بجدية وإخلاص. والصراحة المكشوفة في هذا الأدب تكون كالصراحة في الطب والشريعة، من شأنها أن تحمل القارئ على التفكير والسمو لا الانحطاط والابتذال، وستجد لها مثلًا في التوراة والقرآن. ولعل الخوف مما يُسمى بالأدب المكشوف لا يجيء من كونه مكشوفًا بقدر ما يجيء من كونه تافهًا سطحيًّا لا هم له إلا الإثارة والتجارة.

. . . هنا اختارت المجلة عبارة: «لا حياء في الأدب. كما لا حياء في الدين» عنوانًا للحوار.

ا . انات محفوظ في كل الحوارات التي سبقت نشر الرواية تقول إنه . ٠م بالرواية للنشر مباشرة بعد الانتهاء منها. إذ تبدأ السنة المحفوظية . الكتابة من سبتمبر إلى أبريل، ثم يتوقف لمدة أربعة أشهر في الصيف . ـب مرض الحساسية في العينين، الذي أصيب به عندما كان طالبًا . الجامعة، وهو ما يعني أن محفوظ انتهى من كتابة الرواية في أبريل . نفس العام قبل إجازة «التأمل والتفكير والراحة» كما يسميها.

في البداية، لم يكن الاهتمام الإعلامي منصبًّا على الرواية الجديدة بل على عودة محفوظ إلى الكتابة من جديد بعد توقف طويل أعلن خلاله أكثر من مرة اعتزاله الأدب، وتعددت مبرراته لهذا الصمت أو التوقف.

■ ■ ■

كان محفوظ قد توقف عن الكتابة طوال خمس سنوات، أسماها «سنوات اليأس» أو «سنوات الجفاف» (١٩٥٢-١٩٥٧)، كان قد أنهى روايته «الثلاثية» ورفض ناشره عبد الحميد جودة السحار نشرها لحجمها الكبير، وإن كان البعض يرجح أن رفض السحار للرواية ليس بسبب حجمها ولكن لأسباب أخرى يمكن استنتاجها مما حكاه محفوظ لجمال الغيطاني:

> **أخطأت خطأً كبيرًا، لم أكرره فيما بعد أبدًا في حياتي، في هذه الفترة تحدثت كثيرًا عن هذا النوع من الروايات، وأفضت في شرح أفكاري، ونيتي في كتابتها يومًا ما. أحد الأدباء الذين استمعوا إليَّ ذهب وشرع في كتابة رواية من هذا النوع، أي رواية أجيال، وأصدرها بعد ستة شهور[١٥].**

لم يذكر محفوظ اسم الكاتب الذي تحدث أمامه عن الفكرة، لكن

(١٥) أولاد حارتنا، نجيب محفوظ.

... المقربون منه أنه يقصد السحار نفسه وروايته «الشارع ...». يقول محفوظ للغيطاني: «أذكر الفترة التي تلت رفض السحار لنشرها بأسى، كانت صدمة فظيعة، بل إهانة، خاصة ... قال لي لحظة رؤيته لها: إيه الداهية دي؟». سليمان فياض ... الواقعة بطريقة أخرى: «قال محفوظ للسحار: أريد أن ... رواية عن مصر، استحسن السحار الفكرة وراهن محفوظ ... سيكتب هو أيضًا رواية «مصر».. فاتفقا أن يلتقيا بعد سنة.. ... يستطيع أن ينتهي أولًا». السحار انتهى قبل الموعد المحدد.. ... دفع بروايته للنشر، بينما عطل رواية محفوظ الذي قال لفياض في ... رواية السحار: «حلوة.. بس لو استنى عليها شوية وما استعجلش»[١٦].

إحساس محفوظ بالصدمة من خديعة السحار دفعه للتوقف عن الكتابة، وخاصة مع تأخر نشر «الثلاثية» خمس سنوات كاملة، يضاف إلى ذلك أنه تزوج عام ١٩٥٤ فأصبح فجأة مسؤولًا عن ثلاثة بيوت: والدته، وزوجته، وشقيقته التي توفي زوجها وترك لها أبناء. في تلك الظروف كما يقول: «كان لا بد لي من عمل أحصل منه على دخل إضافي أواجه به مسؤوليات الزواج والأسرة الجديدة»[١٧]. فوجد ملاذًا في فن آخر هو السينما التي أتاحت له

(١٦) مقابلة مع سليمان فياض في منزله.
(١٧) أولاد حارتنا، نجيب محفوظ.

دخلًا معقولًا، فكتب في تلك الفترة نحو اثني عشر سيناريو. كما كان يكتب القصة القصيرة بين الحين والآخر، إذ نشرت له مجلة «الرسالة الجديدة»[١٨] قصة قصيرة حملت عنوان «لك ما تشاء» لم يضمها إلى أي من مجموعاته القصصية فيما بعد، كما لا تشير إليها «الببليوجرافيات» التي أُعدت عن أعماله!

عندما كان الصحفيون والنقاد يسألون محفوظ عن أسباب هذا التوقف.. كان يبرر صمته بحجج مختلفة. مرات يقول إنه «وجد نفسه مجهدًا وأن رؤيته قد أشبعت بعد أن كتب «الثلاثية»».. ويقول أحيانًا أخرى أنه «فهم الحياة قبل الثورة وعاشها بكل تجاربها أما فترة ما بعد الثورة فهي مرحلة جديدة في حياتنا، مرحلة تحتاج إلى طريقة أخرى في التفكير وإلى وقت واسع، حتى يمكن للفنان أن يصورها أو يعبر عنها في عمل فني سليم، فالمجتمع الجديد يحتاج إلى فنان جديد»، ويضيف أحيانًا: «الثورة حققت الأهداف، والمجتمع لم يعد فيه القضايا التي تستفزني».. كما أن «عصر ما قبل الثورة أصبح جثة هامدة.. ولم يعد هدفًا للكتابة»، أو أن «الرواية التي يكتبها كانت تتبع شكلًا تقليديًّا، وهي تلائم المجتمع الثابت والمستقر واضح المعالم، وهي لا تصلح لمجتمع مليء بالتغيرات والتحولات».

وهكذا تعددت الإجابات التي تؤكد أن «الثورة قتلت رغبة الكتابة»

(١٨) سبتمبر، ١٩٥٨.

[illegible] لكن محفوظ في أعلى درجات صراحته مع جمال الغيطاني[19]
[illegible] «كان السؤال حول أسباب التوقف له جانب سياسي،
[illegible] هذه الإجابة تبعد عني الشبهات.. بدا لي أن إجابتي هذه
[illegible] معقول، ولكن هل هذا حقيقي؟ إنه مجرد تفسير الحقيقي».
[illegible] محفوظ: «ربما كانت الثلاثية هي السبب، إذ يمكن القول
[illegible] أشبعت من خلالها رؤيتي، ولكنني لا أستطيع الجزم بذلك
[illegible] كان السيناريو عزاء محدودًا، وكنت في أسوأ حالات عمري،
[illegible] أنني كنت أشتهي الموت»!
[illegible] من الممكن أن نجد تفسيرًا لتوقف محفوظ عن الكتابة في تلك
[illegible] في روايته «السمان والخريف» التي نشرها عام ١٩٦٢.
[illegible] الرواية عيسى الدباغ وفدي، ينتمي إلى جيل ما بين الثورتين،
[illegible] يوليو تعاملت مع هذا الجيل بمنطق المنافسة، وأصرت -كما
[illegible] صلاح عيسى في كتابه «شخصيات لها العجب»- على أن
[illegible] من الخريطة السياسية المصرية، وخيرتهم بين أمرين لا ثالث
[illegible] «أن يقروها على أنها بداية تاريخ الوطن، وأن كل ما قبلها لم
[illegible] شيئًا إلا فسادًا وخيانة، فيغتالون بذلك تاريخهم، أو أن يلتزموا
الصمت التام وينسحبوا من العمل العام، ويضعوا على أفواههم أقفالًا
من حديد. لهذا يقول الدباغ: «كنا طليعة ثورة، فأصبحنا حطام ثورة».

(١٩) جمال الغيطاني، نجيب محفوظ يتذكر.

كانت مشكلة الدباغ - كما يقول صلاح عيسى - أنه «يكره العهد الجديد بقلبه، ولكنه لا يستطيع أن يكرهه بعقله، ومع أنه تلقى نبأ نجاح الثورة في إجلاء الإنجليز عن مصر، بارتياح، إلا أنه لم يخلُ من فتور مشوب بالغيظ لا لشيء إلا لأنه لم يتحقق على يد حزبه. وهكذا يظل عيسى الدباغ وجيله، أسرى الإحساس بالخيبة، لأنهم شاركوا في صنع الثورة، وحين انتصرت عادتهم بلا سبب، وأكرهتهم على خيار شرير، أن يؤيدوا بلا تحفظ، أو أن يصمتوا إلى الأبد»!

لم يدم صمت الدباغ طويلًا، ذات ليلة من خريف ١٩٥٧ بينما كان جالسًا تحت تمثال سعد زغلول بالإسكندرية، يلتقي بشاب ممن حقق معهم من قبل، حين كان حزبه في السلطة، ويدور بينهما حوار طويل. يدعوه الشاب أن يتحاور معه في أحوال الدنيا، فذلك أفضل من أن تجلس في الظلام تحت تمثال سعد زغلول. وأدرك عيسى أن الشاب يدعوه لأن ينفض عنه ثوب الإحساس بأنه زائد عن الحاجة ليستأنف نضاله في سبيل وطنه وشعبه، ومع أنه تردد قليلًا، إلا أنه انتفض في نشوة حماس مفاجئة، مضى في طريق الشاب بخطى واسعة.. تاركًا وراء ظهره مجلسه الغارق في الوحدة والظلام!

بالتأكيد، لا يمكن إقامة علاقة كربونية بين شخصية محفوظ الواقعية وشخصية الدباغ الروائية، ولكن ثمة تشابهات في أن كليهما ينتمي للجيل نفسه الذي جاءت ثورة يوليو «وأكرهتهم على خيار شرير، أن يؤيدوا بلا

...، أو أن يصمتوا إلى الأبد».. وكلاهما تخلى عن صمته فيما بعد.
... محفوظ في صمته «يبحث عن لون جديد من الخلق الأدبي، أو ... جديدة غير زقاق المدق وخان الخليلي والسكرية، وشخصيات ... غير الأفندية والأسطوات التي تعود أن يعرضها في قصصه، ... مشكلة هذا التجديد الأدبي أنه يحتاج إلى تجديد مماثل في حياة الأديب. يحتاج إلى أسفار واكتشافات إنسانية خارج حدود المقهى ... مصلحة الفنون والمنزل»[٢٠].

... عندما حاورته مجلة «الإذاعة».. طلب محفوظ من محاوره أن ... في مقدمة الحوار ما يشبه الإعلان:

رجاني نجيب محفوظ أن أنشر له إعلانًا على الناس وأقول: «إن كاتب الواقعية مل الواقعية، زهق من آلام الناس ومظاهر حياتهم المباشرة، ولم يعد هناك جديد يكتبه عنهم، وعندما يكتب مرة أخرى سوف يكتب بطريقة جديدة لم تتحدد معالمها في ذهنه حتى الآن، وإلا سوف يهجر الأدب إلى الأبد»[٢١].

... تعدد الإجابات حول سؤال التوقف، وتضاربها أحيانًا، إلا أن المؤكد أن صمت محفوظ - كما عبر عنه في حوارات صحفية - لم يكن سلبيًا، بل اكتسب أبعادًا فلسفية وفنية، أصبح «قوة مثل الكتابة

(٢٠) مجلة صباح الخير، ٢٧ مارس ١٩٥٨.
(٢١) عبد التواب عبد الحي، مجلة الإذاعة، ٢١ ديسمبر ١٩٥٧.

تمامًا»، أو «تأملًا في الوجود من أجل توسيع إمكانيات التأويل في القراءة والكتابة»، ومن ثم فهو الصمت الذي يتيح للمبدع «أن يعيد تسمية الأشياء والكلمات، حتى يقوم بوقاية ذاته وثقافته»[٢٢].

■ ■ ■

مضت فترة الصمت «الروائي»، والتوقف عن كتابة الرواية، لكن فجأة بدأ نجيب محفوظ يكتب من جديد. في ١٩٥٧ شعر بدبيب غريب يسري في أوصاله وكما حكى لرجاء النقاش: «... وجدت نفسي منجذبًا مرة أخرى نحو الأدب».. كانت أفكار محفوظ في تلك الفترة تميل ناحية الدين والتصوف والفلسفة. فجاءت فكرة رواية «أولاد حارتنا» لتحيي في داخله الأديب الذي ظن أنه مات. وقد استوحى محفوظ عنوان روايته من إحدى أغنيات الطفولة: «يا ولاد حارتنا.. توت توت».. هي أغنية أشار إليها في روايته «خان الخليلي».. عندما يترك أحمد عاكف حي السكاكيني إلى خان الخليلي، هروبًا من غارات الطائرات الألمانية والإيطالية أثناء الحرب العالمية الثانية. في أول أيامه في الحي الجديد، يفتح أحمد عاكف نافذة البيت وينظر إلى الطريق، فرأى جماعات من الصبيان والبنات يملأون الطريق متصايحين متضاحكين وقد انقسموا فرقًا أكبَّ كل فريق على رياضة.... «اضطربت الأرض وضج الجو وثار الغبار

(٢٢) علي بن تميم، النقاد ونجيب محفوظ، المجمع الثقافي بأبي ظبي، ٢٠٠٨.

[illegible] ألَا قيلولة منذ اليوم. وسمع أناشيد عجيبة «يا عم يا جمَّال»، «[illegible] لاد حارتنا.. توت توت». الأغنية نفسها كان أطفال الحارة [illegible]ن بها في «أولاد حارتنا» أمام مدخل المقهى: «يا ولاد حارتنا.. [illegible] توت.. انتو نصاره ولا يهود.. تاكلوا إيه.. ناكل عجوة.. [illegible]وا إيه.. نشرب قهوة»[٢٣].

---

(٢٣) [illegible]لاد حارتنا، نجيب محفوظ.

عبد الناصر يسأل

من بين كل الأخبار التي نشرت عن عودة محفوظ للكتابة برواية جديدة، ومثيرة، يظل الخبر الذي نشرته مجلة الإذاعة التي كان يرأس تحريرها حلمي سلام هو الأكثر إثارة ومحفزًا للتفكير، سطور قليلة نشرت في باب «أدب وأدباء»:

> **يسر مجلة «الإذاعة» أن تعلن قراءها أنها قد اتفقت مع نجيب محفوظ على أن ينشر بها روايته الجديدة «أولاد حارتنا». وستبدأ المجلة نشر حلقاتها عقب انتهاء أشهر الصيف**[٢٤].

. تنشر مجلة «الإذاعة» «أولاد حارتنا» كما أعلنت، فقد ذهبت الرواية

(٢٤) الإذاعة، ٢ مايو ١٩٥٩.

إلى «الأهرام»، وأصبح السؤال: كيف وصلت إلى هناك؟

■ ■ ■

لدينا حكايات كثيرة. منها ما حكاه محفوظ نفسه، ومنها ما حكاه محمد حسنين هيكل. الاختلافات بين الروايات بسيطة، قد لا تغير الشيء الكثير.

حسب رواية محفوظ لرجاء النقاش أن إحسان عبد القدوس أقام له حفلًا في منزله بمناسبة حصوله على «جائزة الدولة»[٢٥] عام ١٩٥٧، بشارع «قصر العيني» حضره أدباء وصحفيون على رأسهم كامل الشناوي، وفي أثناء الحفل اقترب «علي حمدي الجمال» مدير تحرير الأهرام من «محفوظ» قائلًا له إنه يتحدث إليه باسم الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس التحرير، ويريد منه رواية لتنشر على حلقات، ويقول نجيب:

لم أكن بدأت في كتابة «أولاد حارتنا»، وبالتالي اعتذرت بأنه ليس لديَّ الآن رواية جاهزة للنشر، ووعدت «الجمَّال» بأن أول رواية أكتبها سأرسلها إلى «الأهرام»، وعندما انتهيت من كتابة «أولاد حارتنا»، تذكرت الوعد الذي قطعته على نفسي، فاتصلت بالأستاذ علي حمدي الجمَّال، وذهبت إليه بأوراق الرواية التي قرأها وأعجب

---

(٢٥) جائزة قديمة تختلف عن جائزة الدولة التي تأسست عام ١٩٥٨، وكانت قيمتها المالية حوالي ألفي جنيه مصري، وحصل عليها في العام نفسه محمد كامل حسين عن روايته «قرية ظالمة».

بها، وصرح بنشرها دون أي ملاحظات. ويبدو أن الأستاذ الجمَّال قرأها على أنها رواية عادية عن حارة مصرية يقع بها صراع بين مجموعة من الفتوات[26].

[illegible] سألت الأستاذ هيكل[27]: كيف وصلت الرواية إلى [illegible]؟ أجاب: «وصلت إلى علي حمدي الجمَّال، الذي شعر [illegible] عطل نشرها دون أن يخبرني بأمرها، ويبدو أن نجيب [illegible] لحسين فوزي الذي أخبرني بأمر الرواية، وقلت لحسين [illegible] لا نستطيع أن نحجب عملًا لمحفوظ مهما كان ناقدًا وحادًا، [illegible] أننا جرينا وراه ليكتب في الأهرام ووسطنا توفيق الحكيم [illegible] مرة، ولكن محفوظ طلب الانتظار لحين أن يحال إلى [illegible] يواصل هيكل:

طلبت «الجمَّال» ليحضرها لي على الفور، أخذتها معي إلى المنزل وقرأتها في ليلة واحدة.. وفي الصباح قررت نشرها على الفور وبشكل يومي، لا كما كان يحدث من قبل بأن تنشر الأعمال الأدبية بشكل أسبوعي، وهذا القرار اتخذته لسببين: الأول، أن حجم الرواية كبير، ونشرها أسبوعيًّا قد يستغرق ما يقرب من عام كامل وهي فترة طويلة؛ قد تتيح لمن يريد أن يستغل الرواية دينيًّا أن يوقف نشرها،

[illegible] صفحات من مذكرات نجيب محفوظ.

[illegible] شخصية جرت يوم ٢٥ يناير ٢٠١٥.

وثانيًا، لأنني أدركت رسالة الرواية وخطورتها.
في البداية، مر نشر الرواية بهدوء شديد، لكن عقب نشر الحلقة «السابعة عشرة» - كما يقول هيكل - بدأت شكاوى ومطالبات للأزهر بالتحرك لوقف نشر الباقي منها، كل هذا وصل بالطبع إلى عبد الناصر فسأل هيكل «إيه الحكاية؟»، فأوضح له ملابساتها، مختتمًا: «رواية كتبها نجيب محفوظ لا بد من نشرها، حتى آخر كلمة»، فقبل عبد الناصر باستكمال النشر، ولكن مع تزايد الصخب عاود عبد الناصر طرح الأمر مع هيكل الذي اقترح عليه: «خليهم يعملوا لجنة من رجال الأزهر ويفحصوا الرواية». ويوضح هيكل دوافعه لهذا الطلب: «أردت أن أكسب وقتًا لاستكمال ما تبقى من الرواية، وقد جاء قرار اللجنة بمنع النشر، وكان ذلك قبل عشرة أيام من انتهاء الرواية، لكن استمر النشر حتى نهاية الرواية، وقد حرصت على أن أختم الحلقة الأخيرة بعبارة: «انتهت الرواية».
ويبدو أن هيكل استشعر مبكرًا مع بداية نشر الرواية، ما ستجره عليه من تداعيات؛ كان من بينها هجوم عنيف على الرواية طال في جانب منه «الأهرام»؛ كان بدوره أحد الدوافع التي حدت به أن يكتب؛ بعد أسبوع واحد من بدء نشر «أولاد حارتنا»؛ مقالًا قصيرًا في الصفحة السادسة من الصحيفة بعنوان «حرية التعبير»، كان أشبه ببداية «هجوم مضاد» أظهر فيه دفاعًا حارًا عن حرية الأدباء والكُتّاب، وزاد هيكل جهده في «المعركة» الناشبة بإتاحة مساحات

[illegible] [illegible]حات «الأهرام» لمقالات ورسائل القراء تتحدث عن [illegible] المجتمع وتنتقد النظام بلطف ودون عدوانية. وكان لافتًا [illegible] القصير تأكيد هيكل على أن من أهم المشاكل التي تواجهنا [illegible] [illegible]كلة حرية الرأي.. يكتب:

إن حرية الرأي ليست العناوين الثائرة الغاضبة على شخص بعينه، وليست الحملات المنطلقة في ضراوة ووحشية تبحث عن كبش فداء. إن حرية الرأي، هي حرية المناقشة. إن الفكر المتحرر داخل العقل مقدمة. وانطلاق هذا الفكر حديثًا ناطقًا على اللسان، أو حديثًا صامتًا على الورق نتيجة. وبغير المقدمات لا يمكن الوصول إلى النتائج، وبغير النتائج لا تصبح للمقدمات فائدة. هذا فهمنا لحرية الرأي[٢٨].

[illegible] هيكل بنفسه من الرواية حرفًا واحدًا. ونفى بصورة قاطعة أن [illegible] طلب من محفوظ القيام بذلك، مؤكدًا عدم صحة ما أوردته [illegible] السويدية مارينا ستاغ في كتابها «حدود حرية التعبير» -والتي [illegible] فيه على مقال نشر في مجلة الهلال- عن بعض وقائع الأزمة، [illegible]ها أن هيكل طالب محفوظ بممارسة دور الرقيب على نفسه [illegible] فقرات عديدة منها يمكن أن تزيد المحتجين احتجاجًا.

■ ■ ■

---

(٢٨) الأهرام، ٢٨ سبتمبر ١٩٥٩.

اختار هيكل رسومات الحسين فوزي[٢٩] (١٩٠٥-١٩٩٩) لتصاحب الرواية أثناء نشرها في الأهرام. وكما احتفت الصحيفة بمحفوظ احتفت أيضًا بالفنان قبل نشر الرواية: «إذا كان نجيب محفوظ ينتزع مشاعره وانفعالاته ويستلهم وحيه من صميم حياتنا، فإن خطوط الحسين فوزي تخرج من المصادر نفسها»[٣٠].

وربما كان اختياره لهذه المهمة لكونه ابن مدينة القاهرة، وتشبه نشأته في حي الحلمية نفس الأجواء المولع محفوظ بتصويرها في أعماله. وقد رسم الحسين مائة لوحة للرواية، وقد حكى في حكايته مع الرواية:

> عندما جاءتني رواية «أولاد حارتنا» كنت مريضًا بالحمى، ومع هذا خرجت من منزلي بالجيزة متوجهًا إلى صحيفة الأهرام لمقابلة رئيس التحرير محمد حسنين هيكل، وهناك تبادلت معه الرأي وأخذت الفكرة. بدأت بقراءة الرواية وفهمها، ووجدتها رواية حية، قوية ألهمتني الصور ثم قالب هذه الصور كما نُشرت[٣١].

(٢٩) يعتبره النقاد رائد فن الجرافيك في مصر. وأول فنان مصري يرسم بالصحافة عندما بدأ مشواره الصحفي بمجلة «الشباب» عام ١٩٢٤ وهو طالب بالفنون الجميلة. درس فوزي في باريس، وعندما عاد في عام ١٩٣٣ كان همه تخليص فن الحفر من سيطرة الأجانب عليه، والبحث فيه عن سمات للفن الإسلامي. ومن هنا أنجز عام ١٩٤٠ رسومات لمساجد مصر ومآذنها بتكليف من وزارة الأوقاف، وصدرت هذه الرسومات في كتاب خاص في جزءين، ويُعد مرجعًا فنيًا وتاريخيًا لمعالم مصر بعد كتاب وصف مصر الذي رسمه كبار الفنانين الفرنسيين أثناء الحملة الفرنسية.

(٣٠) الأهرام. ٢٠ سبتمبر ١٩٥٩

(٣١) جريدة الأهالي. ٢٢ فبراير ١٩٨٩.

. . ـهة نظره، يرى الحسين فوزي أن الحملة التي قادها رجال
الا. . سد محفوظ أدت «إلى تعكير الجو حول الرواية، فلم يُتح لها
أ. ءمى الدور الذي أراده لها مؤلفها، بما تحمل من المعاني والأهداف
الـ. ـهه». ويضيف: «أوجد هذا اللقاء حركة في الفن، جعلت
. ال. سوم الصحفية قيمة تثري العمل الفني وتجعله يتكلم ببيان
. اسح. كان كثير من القراء من طلبتي في كليات الفنون الجميلة
. ا. ن لي أثناء نشرها إنهم يحتفظون بالرواية من أجل رسومها. كما
. ـ رسومها بعض من كان يجمعها من طلبة المرحلة الثانوية إلى
. . ل كليات الفنون الجميلة».

رسالة غاضبة

كيف بدأت المشكلات؟

تعدد الإجابات أيضًا: رسائل قراء غاضبين وصلت إلى «الأهرام» ـم قد حسنين هيكل، وأخرى ذهبت إلى رئاسة الجمهورية ـشرة. لكن تظل هناك أشياء معلنة وأخرى غير معروفة جرت في كوليس. نجيب محفوظ قال لرجاء النقاش:

بدأت الأزمة بعد أن نشرت الصفحة الأدبية بجريدة «الجمهورية» خبرًا يلفت النظر إلى أن الرواية المسلسلة التي تنشرها «الأهرام» فيها تعريض بالأنبياء. وبعد هذا الخبر المثير، بدأ البعض، ومن بينهم أدباء للأسف، في إرسال عرائض وشكاوى يطالبون فيها بوقف نشر الرواية وتقديمها إلى المحاكمة، وبدأ هؤلاء يحرضون

الأزهر ضدي على أساس أن الرواية تتضمن كفرًا صريحًا، وأن الشخصيات الموجودة في الرواية ترمز إلى الأنبياء. وقد عرفت هذه المعلومات عن طريق صديق لي هو الأستاذ مصطفى حبيب الذي كان يعمل سكرتيرًا لشيخ الأزهر، وكان شقيقه يعمل وكيل نيابة، وأخبرني أن أغلب العرائض التي وصلت إلى النيابة العامة أرسلها أدباء[٣٢].

أوضح محفوظ في حوار آخر، نشرته «الأهرام»[٣٣] مع عادل حمودة، وفي وجود هيكل أنه «لم يكن ليلتفت أحد إلى ما في الرواية لولا أن انتبه إليها كاتب يساري في صحيفة «الجمهورية»: ربما أحمد عباس صالح أو سعد الدين وهبة، وقال: «ياجماعة، خذوا بالكم. دي مش رواية عادية. دي رواية عن الأنبياء. ساعتها قامت القيامة».

عريضة الاتهام التي يصوغها محفوظ ليست دقيقة فيما يتعلق: بـ أين، ومن، ومتى بدأ الهجوم؟ قد يكون «صالح» و«وهبة» قد شاركا في المعركة، لكن ليس في «الجمهورية»، وليس في ذلك الوقت، فالمؤكد أن أول هجوم معلن على الرواية كان في مجلة

(٣٢) رجاء النقاش، نجيب محفوظ: صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٨.

(٣٣) الأهرام، ١٣ يناير ٢٠٠٧.

«المصور»، في رسالة أرسلها قارئ يدعى «محمد أمين» إلى الشاعر صالح جودت، محرر باب «أدب وفن» في ١٨ ديسمبر ١٩٥٩، أي قبل اكتمال نشر الرواية بأسبوع كامل. القارئ اختار جودت -كما ذكر في رسالته المنشورة- لأنه «من القلائل الذين لم يدخلوا في النفاق». معتبرًا أن محفوظ في روايته الجديدة: «يحيد ويجانب أصول القصة، فكتابته الأخيرة لا هي رمزية ولا هي واقعية، ولا هي خيال، ولا تنطبق على أي قالب معروف». وأضاف: «جاء محفوظ ليتحدى معتقدات راسخة، ولهذا يتعذر على كائن من كان حتى لو محفوظ نفسه أن يقدمها بمجرد كتابة قصة. التستر وراء الرمز أضعف قضية نجيب محفوظ في مجتمع يجل الدين بطبيعته».

وقد رد على صاحب الرسالة: «لا أستطيع أن أحكم على القصة الأخيرة لمحفوظ، الذي لا شك في أنه يُعد قصاص الطليعة عندنا اليوم، فإذا كان قد نحا في قصته الجديدة نحوًا جديدًا غير ما تعودناه في روائعه السابقة، فالحكم في ذلك لمن قرأوا القصة». ويضيف: «الباب مفتوح لرسائل القراء الذين قرأوا قصة محفوظ».

لم تهاجم «الجمهورية» الرواية -على عكس ما حكى محفوظ- بل إن يوسف السباعي كان من أوائل المدافعين عنه عندما نشر مقالًا في يومياته في الصحيفة بعنوان «نجيب محفوظ ولوم القراء» في ٢٨ ديسمبر؛ أي بعد عشرة أيام من هجوم «المصور»، وبعد اكتمال نشر الرواية في «الأهرام». هاجم السباعي فيه رسالة القارئ المجهول،

وصالح جودت باعتباره ناشر الرسالة:

وجدنا الرسالة تحمل على نجيب محفوظ - رغم تقدير القارئ له - حملة شعواء. ورغم أن الأستاذ صالح جودت أعفى نفسه من مسؤولية الخطاب، وأبدى إعجابه وتقديره لنجيب محفوظ، فأنا لا أعفيه أبدًا مما جاء في الرسالة، إلا إذا كان هو يعفيني من مسؤولية نشر خطاب قارئ يسبه فيه. لأن للقراء أن يلعنونا كلما شاءوا. فلا يمكن أن يعجب كل قارئ بكل كاتب. وليس أكثر من المتبرمين الضائقين الخاملين. ويستطيع كل إنسان أن يقول في كل إنسان ما يقول ويرى فيه ما يرى، ولكنه لا يملك أن ينشر على الناس ما يرى وما يقول. إلا إذا كان هو نفسه مسؤولًا عما ينشر، أما إذا كان قارئًا فالمسؤول هو الكاتب نفسه. فإما أن يقره وينشره وإما ألا يقره. فيترك مسؤولية نشره لصاحبه. فينشر في أي مكان غير المكان الذي يكون هو نفسه مسؤولًا عنه. وكان أولى بصاحب الرسالة - إذا لم يكن يقصد بها التشنيع الذي عاونه فيه الزميل صالح جودت أو كان على الأصح هو الركن الأساسي فيه. كان أولى أن يرسل الرسالة إلى نجيب محفوظ نفسه، إذا كان المقصود هو أن يبدي له رأيه في قصته.

لم يكن في نية السباعي أن يعلق -كما قال- على رسالة جودت

لا أنه سمع «أن بعض الجهات ترى وقف نشر القصة. فشعر
المسألة أكثر من مجرد رسالة قارئ وأن تفكيرنا يجب أن يكون
وصدرنا يجب أن يكون أكثر رحابة. فالقصة لم تكتمل بعد،
عرف ما يهدف إليه الكاتب من أحداث القصة وشخصياتها.
بإبداء الآراء الحانقة إنما نتعجل الحكم على شيء لم تكتمل
أركانه». لم يوضح السباعي في مقاله طبيعة الجهات التي تضغط
الرواية، لكنه يذكر مبرراتها ويفندها:

> **سأفترض ما يفترضه القراء الحانقون على نجيب وهو أنه قد صور البشرية بالحارة وأنه يروي تاريخ البشرية في تاريخ الحارة. وأنه يرمز بشخصيات القصة إلى بعض الشخصيات البارزة في تاريخ البشرية ومن بينهم الرسل. ولقد أثارت محاولاتهم إجراء عملية تطابق بين الشخصيات التي يرمز بها نجيب إلى الرسل، وبين الرسل أنفسهم، وهي عملية في ذاتها لا تخلو من التجني لأن الرمز لا يمكن أبدًا أن يطابق في كل حذافيره الأصل وإلا لما كان هناك داع للرمز(...) هل يمكن أن يبلغ بنا ضيق الأفق أن نطلب من نجيب محفوظ أن يجعل رموزه من أبناء الحارة يطابقون الرسل في كل ملامحهم وأفعالهم. أم يجب أن يكون لهم ما لبقية أهل الحارة من سمات كما تركنا للأسد والنسر سماتها الحيوانية. وإذا طلبنا من نجيب**

ذلك. فلماذا لا يوفر على نفسه كتابة القصة ويوفر الرموز ويروي لنا سيرة الرسل كما أنزلت في الكتب السماوية وكما رواها التاريخ.

وبعد صمت لأيام استعاد صالح جودت زمام المبادرة بنشره؛ على مدى أكثر من ستة أسابيع؛ رسائل للقراء في «المصور» تتضمن تعليقات مادحة أحيانًا، وعنيفة ضد محفوظ ورواياته أحيانًا أخرى. ثم كتب ردًا على مقال السباعي مدفوعًا- حسبما ذكر- بأن صديقًا له سأله: هل هناك ناقد اسمه محمد أمين، أم أنك أردت أن تنتقد محفوظ من وراء ستارة اسمها محمد أمين؟

وأجاب:

ترددت في الإجابة على هذا الصديق، لأنني لم أحس في يوم من الأيام أن الشجاعة تنقصني لأنتقد أحدًا مهما تكن صلتي به، ومهما تكن مكانته عند الناس، متى رأيت أنه يستحق النقد. رحت أقلب في الأوراق المتراكمة فوق مكتبي حتى ظفرت برسالة محمد أمين، فبحثت عن عنوانه، فلم أجد شيئًا غير كلمتي «شبين الكوم».. وأقول لكم الحق، لم تكفني هاتان الكلمتان، وداخلني شيء من الشك في حقيقة وجود محمد أمين ولم أستبعد أن يكون واحدًا من خصوم نجيب محفوظ قد كتب هذه الرسالة واخترع هذا الاسم وأضاف هاتين الكلمتين!

ا...م شك جودت طويلًا، إذ فوجئ - كما يكتب - برسالة
ا..ى من محمد أمين تثبت وجوده وتثبت عنوانه الكامل (٣ ش
..ا العزيز حبيب - شبين الكوم).. ومع الرسالة «صورة طبق
الأصل لرسالة أخرى وجهها أمين إلى يوسف السباعي يرد فيها
ا... ما كتبه بالجمهورية». كتب أمين للسباعي في نهاية رسالته
(...لا عن جودت): «هذه وجهة نظر فلاح، فهل لي أن أسمع ردك
ا... بها بشرط أن تنسى لبضع لحظات أن نجيب محفوظ صديقك،
وأنك تتعامل مع نكرة من الأرياف، وصفته في ساعة غضب
..المجهول».. بناء على محتوى الرسالة، يقترح جودت أن يتبنى
ال...سباعي بوصفه أمينًا للمجلس الأعلى للفنون والآداب مبادرة
الكشف عن المواهب الضائعة في أعماق الريف. مبادرة جودت
... - فيما بعد - ترحيبًا من «أدباء الأقاليم».. وهو ما تبدَّى في
..سائل القراء التي نشرها للإشادة بها.. ليختتم الحملة بالإشارة
إلى أن يوسف السباعي اعتذر لأمين عن لفظ «الخاملين» الذي
..صفه به في مقاله، معتبرًا أن الكلمة «غلطة مطبعية وكثيرًا ما
..ظلمتنا المطابع»!

■ ■ ■

لا يخلو تاريخ صالح جودت (١٩١٢-١٩٧٦) من حوادث
مشابهة، بعضها ارتبط أيضًا بنجيب محفوظ الذي سيحكي بعد
سنوات لرجاء النقاش بألم شديد عن الحملة العنيفة التي قادها

جودت في أعقاب توقيع محفوظ على بيان توفيق الحكيم الشهير في ١٩٧٢، حث فيه مجموعة من الكتاب الشباب وقتها شيوخ الكتابة على الاعتراض على حالة اللاحرب واللاسلم. يومها منع السادات كل الموقعين على البيان من الكتابة في الصحف والمجلات. وصل العقاب محفوظ، ليس فقط بمنعه من الكتابة في «الأهرام» أو من الظهور في التلفزيون، بل منعت أيضًا أفلامه من السينما وتحركت ضده حملة مسعورة قادها جودت الذي كان نجيب يتصور أنه صديقه. يقول محفوظ لرجاء النقاش:

> توطدت علاقتي به أثناء رحلتنا إلى اليمن حيث عشنا معًا في حجرة واحدة في الباخرة التي أقلتنا لمدة ١٥ يومًا، أسبوعًا في الذهاب وآخر في العودة، وفي فترة عزلته (جودت) أيام عبد الناصر كان أصدقاؤه يفرون منه، ويتجنبون ذكره في أحاديثهم الصحفية والإذاعية والتلفزيونية، ولم أكن أرى مبررًا لهذا التجاهل، وأصر من جهتي على ذكر اسمه إذا استدعى الأمر ولا أخشى في ذلك غضب السلطة، وإذا حدث وذكرته في أحاديثي العلنية إلى وسائل الإعلام، يتصل بي تلفونيًّا على الفور وهو في غاية التأثر شاكرًا لي هذا الصنيع.

مواقف صالح جودت المتناقضة كانت مثار سخرية نجيب محفوظ، كان يسميه «الشاعر الفسدقي»، وقال عنه: «إنه شخص أجبرت

«ل معرفته رغمًا عني»، بدا محفوظ وكأنه ينتقم متأخرًا من جودت..
... في حوار مع يوسف القعيد ساخرًا عن مصاحبته لجودت في
... اليمن:

كنا نتكلم كثيرًا ولم أكن قد اختلطت به فعرفنا بعضنا بعضًا جيدًا، وقال لي إن عنده مرض السكر، فأوجد رابطة ثانية، لكن كنت ألاحظ أنه في الكابينة يرسلون لنا كوبًا من الشاي، أنا كنت آخذ الفنجان بدون سكر وهو يخرج من الصندوق فواكه مسكَّرة، ويأكل اثنتين أو ثلاثًا، قلت له: يا أستاذ جودت إنت عندك سكر أم عندك أملاح وضحكنا[٣١].

... حوار محفوظ أنه تعرف على جودت في رحلة اليمن، أو
... علاقتهما هناك، لكن الغريب أن محفوظ شارك جودت
... الحميد جودة السحار في كتابة قصة قصيرة مشتركة بعنوان
«... البلاج» نشرتها مجلة القصة في أغسطس ١٩٥٠، وهو ما يعني
... علاقتهما.

■ ■ ■

... سنوات قليلة، سيبرز اسم صالح جودت في قضية مصادرة
... ، فبعد أن نشر نزار قباني قصيدته الشهيرة «هوامش على

---

(٣١) ... القعيد، نجيب محفوظ إن حكى، هيئة الكتاب، ٢٠١٥.

دفتر النكسة» في أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ في مجلة الآداب البيروتية، ورغم أن عدد المجلة صودر في مصر، إلا أن صالح جودت دعا في مجلة «المصور» إلى «منع أغاني نزار قباني» من الإذاعة. مؤكدًا في مقالته: «لقد انتهى نزار كشاعر وانتهى كعربي وانتهى كإنسان»، وفي الأسبوع التالي طالب جودت بوضع قباني على القائمة السوداء لأنه «يحطم معنويات قومه بمثل هذه القصيدة». ولكن رجاء النقاش قاد في «المصور» أيضًا حملة دفاعًا عن نزار معتبرًا أن من «حق نزار أن يكتب ما يحس به». ولكن في النهاية انتصرت وجهة نظر جودت ليمنع نزار نهائيًا من دخول مصر، وتوقفت الإذاعة عن بث أشعاره وأغانيه، فما كان من الشاعر إلا أن بعث برسالة لعبد الناصر:

«أوجعني يا سيادة الرئيس أن تُمنع قصيدتي من دخول مصر، وأن يُفرض حصار رسمي على اسمي وشعري في إذاعة الجمهورية العربية المتحدة وصحافتها... القضية ليست قضية مصادرة شاعر، القضية هي أن يسقط أي شاعر تحت حوافر الفكر الغوغائي لأنه تفوه بالحقيقة. لا أطالب يا سيادة الرئيس إلا بحرية الحوار، فأنا أُشتم في مصر ولا أحد يعرف لماذا أُشتم وأنا أُطعن بوطنيتي وكرامتي لأنني كتبت قصيدة، ولا أحد قرأ حرفًا من هذه القصيدة. يا سيدي الرئيس لا أصدق أن مثلك

يعاقب النازف على نزفه... لا أصدق أن يحدث هذا في عصرك»[٣٥].

وحققت الرسالة أهدافها فأصدر عبد الناصر قرارًا بفض الحصار المفروض على نزار وقصائده، وغنت له أم كلثوم قصيدة «أصبح عندي الآن بندقية» عام ١٩٦٩ من ألحان محمد عبد الوهاب، وهي أول احتفاء بانطلاق المقاومة الفلسطينية المسلحة.

ويحكي غالي شكري في كتابه «الأرشيف السري للثقافة المصرية» تفاصيل أخرى عن دور جودت في الهجوم على شعراء قصيدة التفعيلة، وعلى مجلة «الشعر»[٣٦] التي كان يرأس تحريرها الدكتور عبد القادر القط، كانت «حربًا لا هوادة فيها، إذ وصف شعراء الحداثة بـ«القرامزة»، وهي جمع قرمزي، وكل قرمزي عنده هو أحمر وكل أحمر في معجمه هو شيوعي». وقد أمر عبد القادر حاتم وزيرها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بأن يتصدَّى لهؤلاء الشعراء، وعلى الفور اجتمعت لجنة الشعر بالمجلس، وأصدرت بيانًا لا يغيب عنه روح صالح جودت. رأى البيان «أن الذين يسمون أنفسهم بالشعراء «الجدد» ليسوا إلا حرابًا مسمومة موجهة إلى صدر الإسلام، فهم يسمحون لأنفسهم باستخدام إشارات ورموز مستوحاة من ديانات غير موحدة بالله. وأن هذه الموجة من الشعراء

---

(٣٥) الهلال، نوفمبر ١٩٧٠.

(٣٦) صدر العدد الأول منها في يناير ١٩٦٤، برئاسة تحرير د. عبد القادر القط.

ليست معادية للإسلام فحسب، بل هي ضد العروبة أيضًا، لأنها تهدم قواعد اللغة والعروض التي ورثناها عن الآباء والأجداد وأجداد الأجداد، وهم يجمحون في العودة بالمخيلة إلى أمجاد إقليمية، فهم شعوبيون جدد، لا يأنفون من استخدام العامية أحيانًا وكسر عنق البلاغة العربية في أغلب الأحيان».

■ ■ ■

ولكن، هل هناك بالفعل قارئ، أو أديب إقليمي يكتب الشعر ويقيم في العنوان الذي ذكره صالح جودت في مقالته؟

يتفرع شارع عبد العزيز حبيب (حيث يقيم صاحب الرسالة التي نشرها جودت منتقدًا فيها نجيب محفوظ)، من شارع جمال عبد الناصر. الشارع قصير، معظم بيوته؛ التي ترجع لسنوات الأربعينيات، مهجورة، تتميز بطرز معمارية كلاسيكية، أشبه بفيلات هجرها أصحابها، وتركوها تعاني الإهمال. بعض البيوت تم هدمها لتحل محلها عمارات سكنية. ذهبت إلى البناية رقم (٣) التي من المفترض أن يقيم فيها محمد أمين، كانت خالية من السكان، أمامها تسكن بائعة شاي. سألتها: هل سكن البناية من قبل من يكتب الشعر أو القصة؟ أحالتني إلى زوجها، وهو رجل تجاوز الستين، وهو على معرفة - كما أخبرني- بكل سكان الشارع القدامى والجدد، فأجابني: «الأستاذ عبد العزيز زين الدين كان شاعرًا مات عام ٢٠٠٢ وهو كان معروفًا، ويزوره الصحفيون دائمًا، وكان يذهب إلى

اصر الثقافة، وتقام له الأمسيات الشعرية».
«لكن ماذا عن محمد أمين؟
«قال: تقصد محمد (الأمين) وليس (أمين)؟ ثم أشار إلى البيت المجاور الذي يحمل رقم (٦)، «كان يسكن في هذا البيت ولكن ليس له علاقة بالكتابة أو الأدب، هو مصارع، وكان يعمل مدربًا للمصارعة، ومات منذ سنوات أيضًا، ولكن لم نعرف عنه إطلاقًا أنه مارس الكتابة أو أبدى اهتمامًا بالأدب».
- ألنه: هل تعرف أحدًا من أفراد أسرته.. قال: «هاجروا إلى إيطاليا»!

■ ■ ■

لم تنخرط «الجمهورية»، إذن في الهجوم على محفوظ، على الأقل بشكل مباشر، وواصلت نشر الأخبار عنه سواء عن قصته السينمائية «بين السماء والأرض» أو «عودة شلة الحرافيش إلى الكتابة» بعد توقف. لكنها «الجمهورية» أرادت منافسة «الأهرام» بنشر رواية أيضا لكاتب يمكنه منافسة محفوظ، فاختارت «البيضاء» ليوسف إدريس، وهي الرواية التي ينتقد فيها إدريس بعنف التنظيمات الشيوعية المصرية. بدأ النشر بعد ١٢ يومًا من بدء نشر محفوظ «أولاد حارتنا». وقد نقلت مارينا ستاغ في كتابها «حدود حرية التعبير» عن يوسف إدريس قوله إنه نشر «البيضاء» في «الجمهورية» بتشجيع من صلاح سالم، أحد ضباط ثورة يوليو. وكان مشرفًا على

«الجمهورية» في ذلك الوقت، رغبة منه (سالم) في منافسة «الأهرام»، ولكن لم تحقق رواية إدريس أي متابعة نقدية جادة في ذلك الوقت، ولاحظ سليمان فياض في مقال له نشر في مجلة «الشهر»[٣٧] التي كان يرأس تحريرها سعد الدين وهبة، المفارقة بين الضجة التي أحدثها نشر رواية «أولاد حارتنا» والتجاهل التام لنشر رواية «البيضاء» ليوسف إدريس في صحيفة «الجمهورية»، رغم تزامن نشرهما.

وعلل ذلك بأن: «نجيب محفوظ لم ينشر روايته في الأهرام إلا بعد أن كتب آخر سطر فيها وآخر كلمة، أما يوسف إدريس فقد أقدم على نشر روايته، كما يقولون، قبل أن يكتب فيها سوى صفحات معدودة، وبينما كانت عملية النشر اليومية مستمرة، كان يوسف يكتب صفحات من روايته يقذف بها إلى عجلات المطبعة يومًا بيوم، وربما لهذا السبب لم تترك «البيضاء» أثرًا ولم تثر ضجة، كتلك التي أحدثتها متابعة القراء وبعض النقاد لرواية «أولاد حارتنا».

وقد أوضح الكاتب الصحفي محمد العزبي في مقال له أن رواية إدريس لم يكتمل نشرها في «الجمهورية» إذ كان «يتأخر في تسليمها فتفتق ذهن سكرتير التحرير عن حل للمشكلة.. قبل أن تنتهي فصول الرواية كتب بخط يده بعد آخر سطر كلمة «تمت».. وانتهى الأمر»[٣٨]!

---

(٣٧) فبراير، ١٩٦٠.

(٣٨) محمد العزبي، المصري اليوم، ١٩ مارس ٢٠١٨..

ذلك، كان يوسف إدريس قد سأل محمد حسنين هيكل في حوار أجراه معه في «الجمهورية»[٣٩] عن رأيه في تجربة نشر قصص مسلسلة في الجرائد اليومية؟ فأجابه هيكل: تجربة ناجحة تمامًا، بدليل أننا نشرنا «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ. وأردف إدريس سائلًا: وما رأيك في «أولاد حارتنا»؟، فعاجله هيكل: «ألم أقل لك أني تحمست لها ونشرتها»!

ونشرت صحيفة «المساء»، وهي تابعة بدورها لمؤسسة «دار التحرير» التي تصدر عنها «الجمهورية»، خبرًا قصيرًا قبل أيام من انتهاء نشر الرواية كتبه محرر الأدب، ذكر فيه أن محفوظ سينتهي بعد أيام من نشر روايته المسلسلة التي ينشرها بالأهرام ويتوقع الوسط الأدبي أن تثير الرواية بعد انتهائها مناقشات حامية للأسلوب الذي صاغ به محفوظ الرواية والشكل الفني لها[٤٠]. تاريخ نشر الخبر كان تاليًا على الضجة. إشارة محفوظ التي ذكرها لعادل حمودة وفي حضور هيكل إلى أن الهجوم بدأه أحمد عباس صالح ليست صحيحة تمامًا، إذ لم يكتب في أثناء الأزمة أي هجوم على الرواية، ولكنه لم يبد حماسًا للرواية وقت نشرها، وربما يكون قد هاجم الرواية في ندوة محفوظ الأسبوعية، ولكنه لم يكتب

(٣٩) ٣٠ يناير ١٩٦٠.

(٤٠) المساء، ٢١ ديسمبر ١٩٥٩.

عن هذا الموقف إلا متأخرًا في مقال نشره في صحيفة «الشرق الأوسط» أعلن فيه عدم تحمسه لنشر الرواية:

> كانت في رأيي استعارة فنية من الرؤية الماركسية للتاريخ، الذي مر بخمس مراحل تنتهي بالمرحلة التي يسودها العلم وتقنياته، وهي رواية تحاول التوفيق بين الرؤية الدينية والرؤية العلمية، وغالبًا كانت قضية العلم والدين من قضايا عشرينيات القرن الماضي ولعل المثقفين المصريين كانوا قد قرأوا «نيتشه» إلى جانب «دارون» وربما أقلقهم قول نيتشه بأن الدين قد مات، وأن السوبرمان الذي ارتكز في معرفته بالعالم على العلم وأساليبه البحثية، هو الذي سيقود العالم ويطوره دون حاجة إلى الدين وثقافاته.

ويضيف ساردًا أسباب عدم إعجابه بالرواية:

> بالنسبة لي كنت نافرًا من تلك الصياغات التي تهتم بالرمز دون ضرورة، وكنت أعتقد أن الفن يلجأ إلى الرمز حين يكون المجال المعبَّر عنه مغلقًا على العقل والخبرات الحياتية، وأن الأسلوب الوحيد الممكن في هذا العالم الغامض هو الرمز(...) وبالتالي أولاد حارتنا لا تضيف جديدًا إلا تلك المصالحة الأخيرة بين الدين والعلم، وهي فكرة كامنة في الفلسفة الهيجيلية، وما

أظن أن محفوظ كان مطلعًا عليها جيدًا [41].

■ ■ ■

[illegible]ل جانب آخر لم تنس مجلة «الإذاعة» شعورها بـ«الغبن» من اختيار [illegible]ظ للأهرام لنشر «أولاد حارتنا»، رغم إعلان المجلة اتفاقها [illegible]ها على نشرها، ولذا شاركت في الهجوم عليه، فكتب حلمي [illegible]لام [42]، رئيس التحرير، مقالًا بعنوان «مواطن الشبهات» [43]، [illegible] أثناء نشر «أولاد حارتنا»، شن فيه هجومًا شديدًا على محفوظ [illegible] أعلن أنه لن يكتب للسينما أي سيناريو طالما ظل في منصبه [illegible]ا للرقابة، ابتعادًا بنفسه عن مواطن الشبهات. وسأل سلام: «ما [illegible] في الإعلانات السينمائية الكثيرة التي نقرأها في هذه الأيام،

---

[41] الشرق الأوسط، ١٤ ديسمبر ٢٠٠٢.

[42] [illegible]ف حلمي سلام (١٩١٩-١٩٩٧) بأنه رجل المشير عبد الحكيم عامر في الصحافة، [illegible]ضعت جريدة الجمهورية تحت إشرافه اختار سلام رئيسًا لتحريرها في يوليو ١٩٦٤، [illegible] يستمر في منصبه إلا عشرة شهور. بعد أن نشر تفاصيل اجتماع بين عبد الناصر وعدد من [illegible]، طلب عبد الناصر أن تظل تفاصيل الاجتماع سرية. وحسب صلاح عيسى أن سلام [illegible] في كل أسبوع برقية واحدة على الأقل للرئيس عبد الناصر، يشكو إليه المسؤولين في [illegible] لأنهم يختصون «الأهرام» بما لديهم من أخبار مهمة دون غيرها من الصحف. وجاءته [illegible] حين عقد الرئيس اجتماعًا مغلقًا لمجلس الأمة طلب إلى رؤساء تحرير الصحف -الذين [illegible] بألا ينشروا كل ما قاله فيه، قبل أن يعودوا لوزير الإعلام، لأن نشر بعضه قد يتسبب [illegible]ملافات مع بعض دول المنطقة، ولكن «حلمي سلام» الذي كان يضع «هيكل» في [illegible] أن «الأهرام» لن تلتزم بما سيقوله لها وزير الإعلام، فنشر كل ما قاله «عبد الناصر» في [illegible] وما كادت «الجمهورية» تصدر حتى اكتشف «سلام» أن «الأهرام» التزمت بالتعليمات، [illegible]عد للذهاب إلى مكتبه للاحتفال بالسبق الذي حققه، وبالضربة التي وجهها إلى «هيكل» [illegible] به وزير الإعلام يطلب إليه أن يبقى في منزله لأن الرئيس أصدر قرارًا بإعفائه من رئاسة [illegible]لجمهورية.

[43] الإذاعة، ٢٦ ديسمبر ١٩٥٩.

وكلها تحمل اسم نجيب محفوظ ككاتب للقصة أو للسيناريو أو للحوار؟». في العدد التالي للمجلة أرسل محفوظ ردًّا مطولًا على ما جاء في مقال سلام يدافع فيه عن نفسه:

عندما تفضل السيد ثروت عكاشة وزير الثقافة والإرشاد، بعرض هذا المنصب الدقيق عليَّ قدمت له قائمة ضمنتها بيان الأعمال السينمائية التي كنت فرغت منها، أو أتممت التعاقد عليها، قبل أن يتفضل الوزير بعرض منصب مدير مراقبة الأفلام عليَّ وأوضحت للسيد الوزير أنني لن أستطيع بعد قيامي بمسؤوليات هذا المنصب متابعة العمل في السينما لأن ذلك سيضعني في موقف صعب، يستحيل عليَّ معه التوفيق بين العملين. ويعرضني لما لا أحب لنفسي أن أتعرض له.

وأضاف محفوظ في رده:

كان السيد الوزير كريمًا عندما أدخل في حسابه الخسائر المادية التي سوف تصيبني نتيجة لهذا القرار الذي اتخذته. والذي قصدت به أن أحمي اسمي، ومنصبي، من أية شبهات قد تثار حولها، كان الوزير كريمًا في تقديره لهذا الموقف، عندما وعدني بأنه سيعوضني عن هذه الخسائر بتكليفي بالقيام بالأعمال السينمائية التي ينتظر أن تقوم بها أو تساهم فيها وزارة الثقافة والإرشاد. حمدت للسيد

الوزير موقفه الكريم هذا والتزمت قراري. فلم أتعاقد. ولم أكتب للسينما حرفًا واحدًا جديدًا على القائمة التي بين يدي وزير الثقافة. والتي تنطوي على بيان الأعمال السينمائية التي كنت فرغت منها قبل أن أتولى ذلك المنصب الدقيق الذي أشغله. وهذه الأعمال السينمائية التي يعلن عنها في هذه الأيام مقرونة باسمي، وكذلك التي سوف يعلن عنها خلال الأشهر القادمة من العام الجديد ليست سوى محتويات القائمة التي أشرت إليها. والتي لم أتعاقد على شيء سواها[44].

... بيان محفوظ بردًا وسلامًا على المجلة، ولم يتوقف هجومها ... وإنما استمر الغمز واللمز بين الحين والآخر ضد أفلامه ومنصبه ... اباته، ليس فقط بسبب تراجع محفوظ عن نشر روايته فيها، ... أيضًا لأن المجلة كانت ذات طابع تقليدي محافظ في كثير من ... وعاتها، رغم أنها مجلة فنية. ففي تلك الفترة شن سلام هجومًا ... إحدى المجلات الفنية لنشرها صورة للفنان كمال الشناوي وخلفه ... في بيته» وكان حريًا بتلك المجلة كما يقول سلام في افتتاحيته: «أن ... لقرائها صورة الفنان العربي المسلم وهو يرسم إحدى لوحاته ... أو وهو يقرأ كتابًا من الكتب الكثيرة التي قرأها»!

---

(44) مجلة الإذاعة، ٢ يناير ١٩٦٠.

كيف يقرأ المشايخ الأدب؟

كـ ن سليمان فياض من أوائل من كتبوا عن «أولاد حارتنا»، تحديدًا
ـ ـر ير ١٩٦٠، اعتبر في مقالته التي نشرها في مجلة «الشهر»
ـ ـضجة حول الرواية: «لم تكن نقدية، وإنما كانت في البيوت
ـ ـشوارع والأقاليم، ومنتديات النقاد والأدباء، ولكنها لم تخرج من
عـ ق ـكلمة الشفوية إلى نطاق الكلمة المكتوبة بين الأدباء والنقاد
ـ ـصحف والمجلات»، وهو ما يرجعه فياض إلى سببين: أن
ـ ـر ية لم تصدر في كتاب بعد، فضلًا عن انعدام الثقة في أن تكون
ـ ـشرت بنصِّها الكامل في «الأهرام» كما كتبها نجيب محفوظ،
ـ ـلًا عن عدم متابعة الكثيرين من النقاد والأدباء لها في «الأهرام».
ـ ـني- كما يكتب- «فكل محاولة للتعليق الآن على «أولاد حارتنا»

هي محاولة تأتي قبل أوانها، خاصة في هذا الجو من انعدام الثقة بين النقاد و«الأهرام» ونجيب محفوظ نفسه. ويختتم فياض بالتأكيد على أن محفوظ:

كان حتى «السكرية» جبلًا بلا قمة، على حد تعبير صديقه الأديب عادل كامل[٤٥]، قد وجد أخيرًا قمته عندما كتب «أولاد حارتنا» تلك القمة الشاهقة الباردة الرائعة، فقد اهتدى أخيرًا إلى الأسلوب الروائي المعاصر الذي هو حصيلة كُتَّاب عصرنا العظام، وهجر أسلوب الرواية الكلاسيكية في القرنين الماضيين وتمثل أسلوبه الجديد هذا في اعتماده بالدرجة الأولى على الحوار والحركة، والوصف المركز، وتكثيفه للغة المنولوج الرومانتيكية التي كانت تميزه في مرحلته الروائية الثانية، وإدراكه لقيمة الرمز، في العمل القصصي، الرمز في الشخصية والموقف والحدث، ذلك أن الرمز هو رداء الفنان وسلاحه في أرض الكلمة.

ما كتبه «فياض» لم يكن إلا جانبًا من جوانب قصته مع «أولاد حارتنا»، فعندما التقيت به في منزله[٤٦] حكى لي عن علاقته بالشيخ محمد الغزالي، الذي يمت له بصله قرابة. وعندما كان فياض طالبًا

(٤٥) عادل كامل (١٩١٦ - ٢٠٠٥) من أبرز أدباء الجيل الأول في الرواية العربية، تخرج في كلية الحقوق ١٩٣٦ ومن أهم رواياته «مليم الأكبر»، و«ملك من شعاع».

(٤٦) تمت المقابلة في يناير ٢٠١٥ قبل رحيله بشهر.

الأزهر وعده الغزالي بالتعيين فور تخرجه إمامًا لمسجد السيدة
... ، ولكن فياض رفض رغم محاولات الشيخ إقناعه بالدخل
الذي سيدخل جيبه من صندوق النذور (٢٣ ألف جنيه وقتها)،
فالأذان لا يمكن رفضه بل هو حلم كل الشيوخ القدامى قبل
المتخرجين حديثًا؛ أو كما قال الغزالي: «جامع تتقطع دونه الرقاب»!
أصر سليمان على الرفض: «عباية الوعظ واسعة عليَّ، كنت أريد
المدينة. لا شيء آخر، كنت أريد أن أصبح كاتب قصة». عمل فياض
فور تخرجه صحفيًا، مع سعد الدين وهبة، في مجلة «الشهر»، يحرر
بابًا ثابتًا بعنوان «شهريات»، وكان مجرد كاتب بالقطعة، كما عمل
في صحيفة «الجمهورية»، ولكنه فصل منها في أواخر ١٩٥٩، وكان
مفلسًا فضاقت به الدنيا، ثم تذكر عرض الشيخ الغزالي فذهب
لزيارته. وانتهت الزيارة بأن اقترح «الشيخ» أن يسعى لتعيين
«فياض» سكرتيرًا في مكتب وزير الأوقاف.
في تلك الفترة حضر فياض اجتماعًا لما سُمي بلجنة «الدفاع عن
الإسلام»، وهي لجنة ابتكرها الشيخان سيد سابق ومحمد الغزالي
بهدف «رصد افتراءات المستشرقين على الإسلام والرد عليها».
والشيخان كلاهما كان عضوًا سابقًا في جماعة الإخوان المسلمين،
لكن «الشيخ سيد» يمتاز بأنه كان مسؤولًا عن تلقين شباب
الإخوان الدروس الفقهية، من أجل تأهيلهم للدخول إلى التنظيم
الخاص «الجناح العسكري» للجماعة، وقد تصدرت صورته غلاف

أحد أعداد مجلة «الإخوان المسلمين» وهو يتدرب على حمل السلاح، كما أنه أفتى بمشروعية قتل النقراشي باشا، رئيس الوزراء، عام ١٩٤٨، ولذا سُمي «مفتي الدم»، وتم اعتقاله مع عدد من أعضاء الجماعة في سجن الطور، لكنه ظل يؤدي دوره في الحفاظ على لحمة التنظيم من خلال تعليم وتلقين أعضاء الجماعة المستمر لمبادئ التنظيم وأفكاره حتى جاءت ذروة الصدام مع الضباط في ١٩٥٤، وتباعد الشيخ كما فعل الغزالي؛ عن جسد التنظيم الساقط على أعواد المشانق وخلف أسوار السجون. والآن- أواخر ١٩٥٩ - أضحى الشيخان مفيدين للسلطة التي تخوض معركة كبرى مع «الشيوعية» في مصر وفي عدد من البلاد العربية - العراق بالأخص - ولذلك بدأت أدوارهما تكبر، فبالإضافة إلى أنهما كانا مسؤولين كبيرين نافذين في وزارة الأوقاف، فإنهما سعيا لحشد جهود الشيوخ في لجنة «الدفاع عن الإسلام» التي ترأسها «الشيخ سابق» وضمت في عضويتها اثني عشر من كبار رجال الدين. وفي أحد الاجتماعات كان محور «الدفاع عن الإسلام» مخصصًا لمناقشة كيفية «التصدي لرواية أولاد حارتنا»، وكان فياض - بالمصادفة - حاضرًا، وها هو يتذكر: «كنت كاتب الجلسة، عندما بدأ الكلام عن «أولاد حارتنا» هاجم الشيخ الغزالي الرواية هجومًا شديدًا وقال إنها «إلحاد، وعبث بتاريخ الديانات»، فارتعش القلم في يدي، فنظر إليَّ الغزالي، وكان يعرف أنني أكتب القصة، وأمرني ألا أكتب شيئًا من مناقشات

... بل هو من سيقوم بالكتابة». حصل فياض على نسختين من
... النهائي الذي تضمن نقدًا حادًا لمحفوظ وإدانة له، وفي يوم
... محفوظ الأسبوعية أعطاه نسخة من التقرير.. يقول فياض:
«... قرأ محفوظ الورقة تغير لونه. أصبح أصفر مثل الليمونة».
... من النسخة الثانية.. يجيب: «حصل عليها غالي شكري»،
... هل تتوقع أن يكون عمل اللجنة بأوامر حكومية؟»، فيجيب:
«لا أظن، هؤلاء كانوا خلايا نائمة لجماعة الإخوان، كانوا يعملون في
... على نشر الأخونة بين الأئمة وفي المساجد»، ويضيف: «نجيب
... لم يكن ينتقد الدين أو السلطة فقط في «أولاد حارتنا»، وإنما
... الثقافية العربية، كلها، وهو أمر لم يكن مقبولًا من الجميع».
... معظم شخصيات لجنة «الدفاع عن الإسلام» تضم أعضاء
... في جماعة الإخوان، كيف وصلوا إذن إلى مناصبهم المؤثرة
... جهاز الدولة الإداري؟ فيجيب: «الغزالي وسابق من تيار
... داخل الأزهر، وهو تيار كان يكره سيد قطب ووافق على
... مع الدولة بعد أن خدع جهاز الأمن، هم لم يتخلوا عن أفكار
... الإخوان على الإطلاق، الوحيد الذي ترك الإخوان ورفض
... هم هو الباقوري»[٤٧].

---

(٤٧) ... حسن الباقوري (١٩٠٧-١٩٨٥)، كان عضوًا في جماعة الإخوان، حتى وصل إلى
... الإرشاد بها وكان أحد المرشحين بقوة لخلافة حسن البنا، وقد وضع نشيد الإخوان
... كان الإخوان يرددونه، «يا رسول الله هل يرضيك أن». وبعد ثورة ١٩٥٢ اختاره
... وزيرًا للأوقاف، فاشترط عليه الإخوان الاستقالة من الجماعة، وظل وزيرًا حتى عام ١٩٥٩

يصمت فياض قبل أن يضيف: «كانوا خلايا نائمة للإخوان داخل الدولة، والأمن لم يكن واعيًا بهم، عملوا من وراء عبد الناصر، ونشروا أفكار تنظيم الإخوان بين أئمة المساجد، ولم يُعتقلوا».
يتذكر فياض اللقاء الوحيد الذي جمعه بسيد قطب، الذي كان يسكن وقتها في حلوان، في بيت مساحته نصف فدان، أكثر من نصفه حديقة بلا أزهار، وكان البيت ملكًا لمأذون حلوان، اشتراه قطب بألفي جنيه. في اللقاء بينهما، دارت مناقشات كثيرة ومتعددة، لا ينسى فياض ما قاله قطب له يومها: «يا سليمان يا حبيبي، بين الناس وحوش وذئاب. ولا شيء يجعل الناس أكثر جرأة على الذئاب إلا الدين».

زنزانة الأسلوب الرمزي

التزم محفوظ الصمت تمامًا طوال أيام نشر الرواية التي انتهت
يوم الجمعة ٢٥ ديسمبر ١٩٥٩، في اليوم ذاته ذهب محفوظ إلى
ندوته الأسبوعية في «كازينو الأوبرا». اعتاد أن ينصرف في الواحدة
بالمنتصف، ولكنه في ذلك اليوم حرص على البقاء حتى الثالثة
بالمنتصف لسخونة النقاش حول الرواية الجديدة. تزعم رفض
الرواية في الندوة مدرس أدب في كلية الآداب وناقد صحفي في
إحدى الصحف اليومية، لم تذكر صحيفة «المساء» التي غطت
تفاصيل اللقاء اسميهما. محفوظ أوضح - لأول مرة - وجهة
نظره كاملة في الرواية. فقال إنه يريد الكشف عن الهدف الأساسي
للبشرية، وهو البحث عن سر الكون، وحتى تستطيع البشرية

الكشف عن هذا السر، تحتاج إلى التفرغ له والاستعداد، وهي لن تتمكن من هذا إلا بعد القضاء على استغلال الأغنياء للفقراء، والصراع بين الناس من أجل لقمة العيش. وأضاف:

القصة تصور هذا الصراع المرير الذي تزعمه الأنبياء والرسل دفاعًا عن الفقراء وتهيئة العيش السعيد للناس أجمعين حتى يتفرغوا للبحث الأعظم، ولكن ما إن تنتهي الرسالة حتى يعود الأغنياء فيقبضون على زمام الأمور، وتعود المعركة من جديد للوصول إلى العدل والرفاهية للجميع، ثم تدخل «العلم» بعد انتهاء الرسالات ليقوم بنفس الغاية وهي إسعاد الناس، ولكن المستغلين سخروا العلم لمصلحتهم أيضًا، وقتلوا رمزه في القصة، إلا أن شخصًا آخر استطاع الهروب بسر الاختراعات العلمية الحديثة ليعاود الكفاح من أجل إنهاء الصراع بسبب لقمة العيش والتفرغ لمعرفة سر الحياة[٤٨].

الناقد الذي لم تذكر الصحيفة اسمه اعترض على ما قاله محفوظ معتبرًا أن «القصة لم تضف جديدًا، فهي فكرة قديمة، هي مجرد تسجيل لتاريخ البشرية بلا إضافة من الكاتب الذي لم يحاول أن يستخلص من هذا التاريخ مغزى عامًا جديدًا، أو موقفًا فكريًا

(٤٨) المساء، ٣١ ديسمبر ١٩٥٩.

...، وأنه فضلًا عن ذلك قد جعل العلم يتمسح في الغيبيات، في ... أنه نبذها من أول ظهوره حتى الآن».

... أقل من أسبوع من الانتهاء من نشر الرواية أجرى أحمد ... ش حوارًا مطولًا مع محفوظ نشرته «الجمهورية»(٩). تحدث فيه ... ط عن اندهاشه من الضجة ضد الرواية، وكرر ما قاله من قبل ... مقصده منها:

هذه الرواية أقصد بها قصة البشرية.. وأبعد ما يكون عن ذهني أن أكتب سير الأنبياء في حارة، ولكن أود أن أبلغ الرجل العادي أنه حتى لو كانت حياته في حارة، فإن الظروف تقتضيه أن يقتدي تمامًا بما يفعله النبي.. أي نبي.

... حروش: ولكني سمعت يا نجيب - وأنا لم أقرأ الرواية بعد - ... أظهرت الشخصية التي تمثل نبينا محمد وهي تدخن الحشيش؟

... محفوظ:

هذه الشخصية ليست محمد في ذاته، وهي ليست النبي الذي ندين بديانته، ولكنها «إنسان» في الحارة.. وإلا فقل لي هل كان واجبًا أن نحرق «كليلة ودمنة»، والحيوانات فيها ترمز إلى البشر.. والكلب فيها يرمز إلى «الوفاء» رغم أنه «يهوهو» وأنه كلب.

... ١٩٦٠.

في الحوار تحدث محفوظ عن انتهاء المرحلة الواقعية التقليدية في إبداعه:

هذا ليس نتيجة التفكير الفني، ولكنه نتيجة تغيير الشخص نفسه، كنت في الماضي أهتم بالناس وبالأشياء.. ولكن الأشياء فقدت أهميتها بالنسبة لي، وحلت محلها الأفكار والمعاني، وأظن هذا تطورًا طبيعيًّا بالنسبة لسن الكاتب.. أصبحت أهتم اليوم بما وراء الواقع.

وقد اعتبر حمروش أن ذلك «فلسفة جديدة». فاعترض محفوظ على استخدام كلمة فلسفة لوصف الأمر:

هي ليست فلسفة.. أرجوك، فأنا لست فيلسوفًا، ولكني أحلم وهذه هي أحلامي. أتطلع إلى لون من ألوان الحياة نستطيع أن نطلق عليه «الصوفية الاشتراكية».

وأوضح محفوظ مقصده من المصطلح:

هو التطلع إلى الله، والإنسان لا يستطيع أن يعرفه إلا إذا ارتفعت حياته إلى مستوى نظيف خالٍ من المفاسد والشرور. وطالما هناك إنسان يستغل الآخرين فالفساد والشر باقيان، الذي يستغل شرير، والمستغَل بائس. والعلاقات بينهما فيها حقد وكراهية، وما بين الشر والبؤس، أتطلع إلى الله.

. ... محفوظ:

...لام إلى حياة إنسانية، علاقات الناس تقوم على الحب والتعاون . .. يستطيعوا أن يتجهوا إلى الله، وهذه هي الاشتراكية التي أطلبها.

..له حروش: وهل تتفق رواياتك الأخيرة مع أفكارك الجديدة؟

. .. ب محفوظ: أظن ذلك.

..... ت متقارب نشرت «الجمهورية»[٥٠]، أيضًا، حوارًا آخر مع ... ط، تحت عنوان «رحلة في رأس نجيب محفوظ»، سأله فيه إبراهيم الورداني: في «أولاد حارتنا» لماذا حبست نفسك ومعك ... في زنزانة الأسلوب الرمزي؟!

... محفوظ:

اسمع، كل واحد وله فكرة بالنسبة لهذا الكون الذي نحيا فيه، وقد أحسست أنني أريد أن أقول فكرتي بتلك الطريقة التي عرضتها بها.. وحتى الآن لم أعرف لماذا كتبتها هكذا، وأصارحك بأنني أعود إلى نفسي أحيانًا، فأقول إنها دعوة للاشتراكية وتقديم العلم بطريقة الدين.. نعم، لماذا لا يكون العلم مقدسًا مثل الدين؟ أو لماذا لا أصارحك.. ربما في هذه الرواية تطور فكري لي شخصيًا لم يتضح لنفسي حتى الآن.

[٥٠] ٩ أبريل ١٩٦٠.

لم تكن أفكار الرواية، وأسئلة محفوظ داخل النص هي فقط ما يشغل الوسط الثقافي وقتها، طرح البعض سؤالًا هامًّا: هل نُشرت الرواية كاملة في «الأهرام»، أم تعرضت للحذف؟ وهو الحذف الذي أشار له سليمان فياض من قبل في مقالته بمجلة «الشهر»؟

ملك إسماعيل حاورت نجيب محفوظ في «المساء»[(٥١)]، وسألته: روايتك الأخيرة «أولاد حارتنا» التي كانت تُنشر في «الأهرام»، لماذا لم تستمر في نشرها حتى نهايتها؟ صمت محفوظ قليلًا، وابتسم قبل أن يجيب: «إزاي الكلام ده؟ أنا نشرتها لآخرها بس القراء لم يفهموها، ولما تطلع لهم في كتاب ويقرأونها على بعضها ستزيد قوتها ويتأكدون أنني أكملتها للآخر في الأهرام»!

استمر محفوظ يدافع عن روايته، واستمر اهتمام الوسط الثقافي والصحفي بها، فمرة أخرى تعود مجلة «الإذاعة»[(٥٢)] لتسأل محفوظ في تحقيق بعنوان: «الجديد الذي أحلم بتحقيقه»، شارك فيه عدد كبير من الأدباء والفنانين، من بينهم: محمد عبد الوهاب، وأمينة رزق، وصلاح جاهين. قال نجيب محفوظ: «حلمي أن أترك الأدب وأعيش مرتاح البال في مزرعة أعمل بها بعيدًا عن ضجيج المدينة وأهل المدينة». ولكن محرر المجلة لم يترك محفوظ، وذهب به بعيدًا عن طبيعة التحقيق.. فسأله: «أنت مثلًا كنت تسير في كل

(٥١) ٢٦ أكتوبر ١٩٦٠.
(٥٢) ١٢ نوفمبر ١٩٦٠.

العالم وقصصك ككاتب واقعي طبيعي. يصف ويحلل. ثم
فاجأ لك فجأة آخر رواية كتبتها «أولاد حارتنا»، وكان لونك
فيها يختلف تمامًا عن واقعيتك التي عرفناها عنك في كل قصصك.
تعتبر «أولاد حارتنا» رواية رمزية، تناولت فيها شخصيات صغيرة
رمزت بها إلى شخصيات خطيرة أنت تقصدها؟
نجيب محفوظ: «أبدًا، أنا لم أرمز إلى شخصيات كبيرة، أنا قصدت
الرمز من خلال هذه الشخصيات الصغيرة إلى أفكار كبيرة، فبعض
الشخصيات رمزت بها إلى التفكير الديني، وبعضها إلى التفكير
العلمي، لأصور أفكار العصر الذي نعيشه، ونعيش قلقه، وأنا أعرف
هذا القلق النفسي والخوف التي يعانيها الفنان قبل أن يقدم على تحقيق
فكرة جديدة أو حلم جديد. أما ما هو الجديد الذي أريد أن أكتبه بعد
«أولاد حارتنا» فأرجوك يا عم. انت عاوز توديني في داهية».

■ ■ ■

لم يتوقف تقريبًا الجدل طوال سنوات الستينيات حول الرواية، ولم
يتوقف نجيب محفوظ عن الإدلاء برأيه بين الحين والآخر، سواء
في حوارات صحفية أو مقالات نقدية، وكان أكثر التأويلات
وضوحًا وتماسكًا ما كتبه في مقال لمجلة الكاتب (فبراير ١٩٦٤)
تحت عنوان: «اتجاهي الجديد ومستقبل الرواية»[٥٣]. كان المقال

---

(٥٣) النص الكامل للمقال في ملف الوثائق نهاية الكتاب.

تعليقًا على تصريحات الروائي الفرنسي آلان روب جرييه[٥٤] بأن الرواية «استنفدت أغراضها ولم يعد هناك من مجال أمام الروائي سوى الشكل». رغم اتفاق محفوظ بأن الرواية «طرقت جميع الميادين، التي يمكن أن يتصورها الإنسان. تناولت الفرد والمجتمع والأسرة، وتناولت الشوارع والمدن، بل والقارات. بل إنها تخطت القارات ككل لتصعد إلى الكواكب. وما من عاطفة بشرية إلا وكانت موضوعًا مكررًا للرواية لفترات طويلة». إلا أنه يرى ألا نتخذ هذا الرأي حجة ندفن بها الرواية وإلا كنا مطالبين بأن «ندفن بها الأدب كله، بل وجميع الفنون الأخرى»، بحكم أنها تناولت كل المواضيع الممكنة. من هنا، فالحكم على الفن، في رأي نجيب محفوظ، لا يرتبط بجدته وإنما بالوظيفة التي يؤديها في «تعميق الحياة وإثرائها بالتجربة»، وبما يحققه من «متعة وفائدة»، تنهضان كمعيار نُظر في ضوئه إلى التراث الفني للإنسانية كلها.

ويذهب إلى أن البحث عن تكنيك جديد للرواية قد يكون شيئًا مهمًا للكُتَّاب في أوروبا نظرًا لظروف العصر، ولكن بالنسبة له شخصيًا فهو عمل دائمًا على الموازاة بين التقنية والانشغالات المجتمعية والفلسفية:

حين كنتُ مشغولًا بالحياة ودلالاتها، كان أنسب أسلوب

(٥٤) آلان روب جرييه (١٩٢٢-١٩٨٨)- كاتب فرنسي ويعتبر رائد الرواية الجديدة.

لِي هو الأسلوب الواقعي الذي قدمت به أعمالي لسنوات طويلة. كانت التفاصيل سواء في البيئة أو الأشخاص أو الأحداث على قدر كبير من الأهمية... أما حين بدأت الأفكار، والإحساس بها يشغلني، لم تعد البيئة هنا، ولا الأشخاص ولا الأحداث مطلوبة لذاتها. الشخصية صارت أقرب إلى النموذج أو الرمز، والبيئة لم تعد نُعرض بتفاصيلها، بل صارت أشبه بالديكور الحديث، والأحداث يُعتمد في اختيارها على بلورة الأفكار الرئيسية.

[illegible] إذن، بالنسبة إلى نجيب محفوظ، من مبرر للحديث عن [illegible] الرواية. وإذا كانت التجربة الروائية الأوروبية قد تأثرت سلبًا [illegible] القيم، فإن تجربة كثير من «دول العالم التي تملك فلسفة [illegible] إنسانية»، ما تزال تجد في الرواية مجالًا ومتنفسًا فنيًّا، [illegible] صياغة الرؤى والأشواق والطموحات.

[illegible] المصورات هي التي تقف خلف «أولاد حارتنا»، التي تروي، [illegible] من حجمها الصغير، «تاريخ الإنسانية»، وصدى للتفكير في [illegible] العصر الحديث.. يكتب:

في هذه الرواية ظن العلم أنه في غنى عن الجبلاوي فقتله، وهذه النهاية توصله إلى الخواء، وإلى الإحساس بمرارة الحياة، وهي النتيجة التي وصل إليها ألبير كامي

حين اعتقد أن الحياة لا معنى لها، وأن العبث هو المعنى الوحيد. ومع ذلك فالرواية لم تقف مكتوفة اليدين بإزاء الموقف الجديد، إنها تغير أسلوبها في العلاج، وتكتشف «فنية» جديدة لها. وهو الذي يفسر المحاولات الجديدة في الرواية المعاصرة. وعندما كانت الرواية تهتم بالحياة في حد ذاتها كان الأسلوب الروائي التقليدي أنسب شيء لها، وكانت الشخصية الإنسانية تظهر بكل تفاصيلها. أما حين تتحول الحياة إلى مشكلة لا يصبح الانسان شخصًا معينًا، بل مجرد إنسان. ليس هو شخصًا بالذات يتميز عن سائر الناس بتفاصيله الخاصة وذاتيته.. ولهذا تختفي التفاصيل، ويختفي السرد، وتتصدر المناقشة كل العناصر الأخرى، ومثلًا رواية «أولاد حارتنا» مع أنها تروي تاريخ الإنسانية كلها، تعتبر من حيث الحجم أقل من جزء من أجزاء رواية كثلاثية بين القصرين.

ويعقد مقارنة دالة بين شخصية كمال عبد الجواد في الثلاثية.. وبين عرفة في أولاد حارتنا:

وعندما يكون الإنسان أمام مصيره وجهًا لوجه تفقد التفاصيل قيمتها، وهذا هو الفرق بين عرفة بطل أولاد حارتنا وكمال أحمد عبد الجواد (بطل الثلاثية). ولكن إذا حاولت الرواية تجديد نفسها بالطريقة التي سار عليها

جريه فمن المؤكد أنها ستنتهي، فمن الغريب أن جريه لا يؤمن أيضًا حتى بالعلم.

■ ■ ■

[illegible] قدم محفوظ تفسيره للرواية، وهو التفسير الذي ظل حريصًا [illegible]راره طوال سنوات الستينيات، وبرغم إمكانية تفسير الرواية [illegible] سياسيًّا لا علاقة له بالبعد الديني أو الميتافيزيقي كله، فإن [illegible] لم يقدم لها تفسيرًا سياسيًّا قط في تلك الأيام، بدا الأمر [illegible]ويل الديني أخف ضررًا من التأويل السياسي. ولكن هل [illegible] الرواية تحمل ذلك التفسير السياسي الذي كان يخشى محفوظ [illegible] إليه؟

تربية المواطن

كـ ـت «أولاد حارتنا» جزءًا من معركة أكبر في ذلك الوقت،
معـ ـة ـسلطة للهيمنة على المجتمع، دينيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا. جرت
ـ ـذه ـمعركة وسط صدام قديم بين الإسلاميين الجدد والعلمانيين
ـ ـشيوعيين، فخاض الأخيرون الذين سيصبحون لاحقًا
ـسكري يسار النظام، معارك متواصلة ضد رجال الدين ومطالباتهم
ـ ـع من الحصانة والقداسة لهم ولمهنتهم.
ـ كتابه «نداء الشعب: تاريخ نقدي للإيديولوجيا الناصرية» يرصد
ـ ـريف يونس العديد من الوقائع الدالة على محاولات الصراع
ـ ـاجم أحمد بهاء الدين استغلال منابر المساجد في الهجوم على
ـتحررين أو المطالبين بحقوق المرأة، وقرر أن الخطباء باعتبارهم

موظفين لدى الدولة لا يجوز لهم أن يستغلوا منابرهم لعرض آراء يستنكرها سواهم، كما رفض فكرة «الحكومة الدينية» التي نادى بها آنذاك حزب التحرير الأردني، مؤكدًا أن الدولة الإسلامية احتوت خلال ألف سنة على صور بشعة من الظلم والفسق والتهتك، وأن الخلفاء الإسلاميين لم يكونوا كلهم عمر بن الخطاب، كما هاجم بهاء مجلة «المساجد» الصادرة عن وزارة الأوقاف، على أساس أنها تعادي جهود الدولة برفضها فكرة التأمين على الحياة والممتلكات وغيرها من أفكار الحداثة». ومن جانبه اتهم الشيخ محمد أبو زهرة بهاء بالانحلال لدفاعه عن فكرة مساواة الرجل بالمرأة. ورد عليه بهاء بعنف. وقد تدخل صلاح دسوقي أحد الضباط الأحرار محاولًا إيقاف ردود بهاء!

وفي الوقت نفسه استنكر فتحي غانم الاحتفال بأبي حامد الغزالي واصفًا إياه بأنه فقيه معادٍ للاشتراكية والعقل. ورد عليه الشيخ أحمد الشرباصي بأن الدين لا يعادي العقل، وأن هناك محاولات بادية أو مستورة لهدم الدين والسخرية من المتدينين، ودعا الشرباصي إلى إيقاف نشر الكتب المخالفة ومصادرتها، وقد استنكر غانم دعاوى الشرباصي إلى المصادرة والحجر على الأفكار المخالفة متهمًا إياه بأنه «يفكر بعقلية موظف في الأمن العام». يؤكد شريف يونس أن «المعركة لم تكن مجرد معركة بين صحفيين ومشايخ، فقد ظهر أيضًا صحفيون موالون لفكرة سيطرة القيم المحافظة التي دافع عنها

.. ـال الدين، فظهرت حملات في الصحف على «الأغاني الخليعة» .. ذلك بتشجيع من كمال الدين حسين».

.. ها أجواء هذا الصراع، بدت «أولاد حارتنا» كنزًا سياسيًّا تتصارع .. القوى السياسية، وتحاول توظيفه لمصلحتها الخاصة، صراع .. المكشوف، تحالف بين الشيوخ والقوى السياسية اليمينية داخل .. الناصرية. وهكذا وجد محفوظ نفسه أشبه براوي «أولاد .. الذي احترف الكتابة «رغم ما جرته عليه من مشكلات».

.. جرّت الرواية على صاحبها الكثير من المشكلات، وخاصة .. محاولات السلطة «تعبئة الفن والثقافة لمكافحة الاستعمار .. الشيوعية»، أو هندسة المجتمع اجتماعيًّا وسياسيًّا من أعلى. لجنة .. جيه القومي» أصدرت في أعقاب نشر أولاد حارتنا «ميثاق .. ف» للأدب والعلم والفن أعلنوا فيه الاستمرار في دورهم .. جيهي، والمشاركة بما يملكون من طاقات فنية وعلمية في بناء .. مع الاشتراكي الديمقراطي التعاوني، وصون الإنتاج الفني .. المصري من عوامل الهدم والانحراف والعمل على جعله وسيلة .. وإعلاء شأنه». كانت بيانات التعبئة تلك تهدف إلى «إدماج .. فروع الفن والأدب فضلًا عن المؤسسة الدينية الإسلامية .. في الآلة الدعائية للنظام»[55]. وسط كل إجراءات التوجيه

(55) .. يونس، نداء الشعب، دار الشروق، ٢٠١٢.

والتعبئة وقف النظام حائرًا ماذا يفعل تجاه نجيب محفوظ و«أولاد حارتنا»؟

■ ■ ■

على المستوى السياسي، قاد وزير الاقتصاد آنذاك حسن عباس زكي (١٩١٧ - ٢٠١٤)، حملة هجوم في البرلمان ضد وزير الثقافة ثروت عكاشة لأنه أسند مهمة الرقابة لرجل «متهم في عقيدته الدينية»، كما نشر زكي - الذي كان معروفًا بميوله الصوفية، وأصبح بعد أن ترك منصبه عضوًا في مجمع البحوث الإسلامية- في الأهرام بعد يومين من نهاية نشر الرواية مقالًا بعنوان: «الفن الذي نريده»[٥٦]، وتلا هذا المقال عشرون مقالًا أخرى نُشرت ما بين «الأهرام» و«الأخبار»، تناول فيها نظريته «الاشتراكية الإسلامية».. مؤكدًا أن «علة المجتمع المصري هي ضعف المعاني الروحية». واقترح توظيف كل الإمكانيات لتربية المواطنين تربية صالحة، بما فيها الفن: «من حقنا عليه (الفنان) أن يتجه بفنه إلى الأفكار التي رسمتها الدولة لحياتنا، أما الحرية فيجب ألا تكون أداة تجريب وتضليل أو تكون مبعثًا لزيغ العقائد».

وبخلاف الأدوار المعلنة لصالح جودت وحسن عباس زكي

(٥٦) الأهرام، ٢٧ ديسمبر ١٩٥٩.

[illegible] حريض على محفوظ بشكل مباشر، يبرز اسم كمال الدين [illegible] (٥٧) عضو مجلس قيادة الثورة الذي لعب دورًا مؤثرًا [illegible] في الظل، من خلال مناصبه المتعددة داخل السلطة في [illegible] الوقت. اتصل مدير مكتبه بنجيب محفوظ يخبره بغضب [illegible] على موافقته تحويل «أولاد حارتنا» إلى مسرحية، وهو ما [illegible] محفوظ الذي أوضح له أن المسرحية التي تُعرض له مأخوذة [illegible] رواية «بداية ونهاية» وليست من «أولاد حارتنا». ولكنه لم [illegible] وكان الشيخ محمد أبو زهرة، الذي كان عضوًا في المجلس [illegible] لمحافظة القاهرة في ذلك الوقت، قد اعترض على تقديم [illegible] «بداية ونهاية»، التي قام بإعدادها للمسرح أنور فتح الله، [illegible] جها عبد الرحيم الزرقاني، لفرقة المسرح القومي، وقال [illegible] زهرة في أحد اجتماعات المجلس: «ها هم يعرضون «أولاد [illegible] باسم جديد، وأين؟ في مسرح الدولة، فالبداية والنهاية [illegible] الكون ونهايته. وهذه «أولاد حارتنا»، لم تظهر في كتاب [illegible] شباب الممثلين والممثلات»(٥٨).

[illegible] ذلك كان نجيب محفوظ أفضل حظًا من روائي آخر هو فتحي

[illegible] شغل في ذلك الوقت ١١ منصبًا من بينها: رئيس المجلس التنفيذي، والمشرف العام [illegible] القومي، ووزير الإدارة المحلية، ورئيس المجلس الأعلى للعلوم، ورئيس المجلس [illegible] والآداب، ورئيس المجلس القومي للبحوث، ونقيب المعلمين، ورئيس المجلس [illegible] الجامعات، ورئيس المعاهد القومية، رئيسًا للجنة الأوليمبية المصرية، ورئيس مركز [illegible] التربوية والنفسية، ورئيس للجنة الطاقة الذرية.

[illegible] شكري، مجلة القاهرة، العدد رقم ١٥٧، ١٥ ديسمبر ١٩٩٥.

غانم الذي نشر في توقيت متزامن مع نشر «أولاد حارتنا» روايته «البارد والساخن»، فقد تفاجأ أنه مطلوب في مباحث الآداب ببلاغ تقدم به كمال الدين حسين نفسه يتهمه فيه بنشر الفسق والفجور، كما أرسل (حسين) إلى رئاسة الجمهورية محتجًا على السماح بنشر الرواية. تدخل يوسف السباعي أيضًا وقتها وطلب من شقيقه رئيس مكتب الآداب «محمود السباعي» أن يحفظ البلاغ. يحكي غانم: سألت يوسف السباعي: ما علاقة بوليس الآداب بالرواية أو بكمال الدين حسين؟!، فأجابني ساخرًا: أنت مسؤول عن إفساد العقول وغواية القلوب! (في إشارة إلى شعار مجلة «صباح الخير»: للقلوب الشابة والعقول المتحررة). طلب السباعي من غانم أن ينسى الموضوع، فالأزمة ليست سوى محاولة لـ «استغلال الرواية للوصول إلى هدف سياسي في صراع ما»[٥٩].

لكن الأمر لم ينته فقد تلقى غانم اتصالًا من حسن صبري الخولي، مدير جهاز الرقابة على المطبوعات، يطلب منه أن يلتقيا.. فذهب إليه في مكتبه، وهناك «أخرج (الخولي) من أحد الأدراج رواية «الساخن والبارد». يقول غانم: «أطلعني على صفحات جرى القلم الأحمر بخطوط عصبية تحت سطورها، ثم قال: هذا الوصف عن العلاقة بين رجل وامرأة متزوجة لم يحتمله كمال الدين حسين،

---

(٥٩) رشاد كامل، روزاليوسف، ٢٤ مارس ٢٠١٨.

ومنح الخولي غانم: «أحسن لك أن تترك المسألة تهدأ فلا تكتب ما
... حسب هذه التيارات».
... من الكتاب المتابعين لهذه الفترة أن كمال الدين حسين
... الجانب اليميني المتشدد داخل السلطة الناصرية، كان شديد
... على المستوى الديني والاجتماعي والثقافي، وقد ارتبط خلال
... الأربعينيات عاطفيًا وتنظيميًا بجماعة الإخوان المسلمين،
... عضوًا بالجهاز السري للإخوان المسلمين.. وتولى في بداية
... وزارة التعليم، وقد اعتبر أثناء مناقشات اللجنة الوطنية
... الشعبية سنة ١٩٦١ أن «الميثاق»، الذي أعدته مجموعة قريبة
... الناصر، ذو طابع «ماركسي».. وأنه ينبغي أن يكون تعبيرًا
... «الاشتراكية العربية»؛ التي تؤمن بالله وبرسالاته وبالقيم الدينية
... ومن هنا عمل على تشكيل لجنة كتبت تقريرًا عن «الميثاق»،
... على أن القوانين يجب أن تستمد من الشريعة، وأن قيم المجتمع
... يجب أن تُبنى على أساس الدين، كما أشار التقرير إلى ضرورة
... على قيم الأسرة والمجتمع. وحسب ما جاء في شهادة كمال
... حسين في كتاب «الصامتون يتكلمون» فقد اتهمه عبد الحكيم
... توزيع كتاب سيد قطب «معالم في الطريق» على زواره. وقد
... على هذه التهمة بأنه وزع هذه النسخ من الكتاب: لأن ما فيها
... رأيه. مضيفًا: «لم ولن أتردد في يوم من الأيام في المجاهرة
... رأيي»، وفي ١٤ أكتوبر ١٩٦٥ صدر قرار بتحديد إقامته

وزوجته في إحدى الاستراحات بالهرم.
أما اسم حسن صبري الخولي فسيتردد في العديد من الوقائع المماثلة بصفته مديرًا لجهاز الرقابة على المطبوعات، فقبل عام من نشر «أولاد حارتنا»، وتحديدًا في سبتمبر ١٩٥٨ بدأ إحسان عبدالقدوس في نشر مجموعته القصصية «البنات والصيف» في مجلة «صباح الخير». وبعد أن انتهى النشر، زاره فجأة محمد حسنين هيكل ليبلغه غضب عبد الناصر من نشر المجموعة، ونقل إليه الرأي ذاته أيضًا حسن صبري الخولي. كتب إحسان تفاصيل ما جرى في رسالة لعبد الناصر نشرها كمقدمة لمجموعته القصصية «آسف لم أعد أستطيع»، وهو لا يتذكر إن كان قد أرسل بالرسالة أم لا؟ وهل قرأها عبد الناصر أم لا؟
كتب إحسان لعبد الناصر:

«أبلغني صديقي «الأستاذ هيكل» رأي سيادتكم في مجموعة القصص التي نشرتها أخيرًا بعنوان «البنات والصيف»، وقد سبق أن أبلغني نفس الرأي السيد حسن صبري مدير الرقابة واتفقت معه على تعديل الاتجاه الذي تسير فيه قصصي. أبلغني صديقي هيكل أن سيادتكم قد فوجئت عندما قرأت في إحدى قصصي «البنات والصيف» ما يمكن أن يحدث داخل الكبائن على شواطئ الإسكندرية.. والذي سجلته في قصصي يا سيدي الرئيس

يحدث فعلًا، ويحدث أكثر منه، وبوليس الآداب لن يستطيع أن يمنع وقوعه، والقانون لن يحول دون وقوعه.. إنها ليس حالات فردية - كما قلت - إنه مجتمع.. مجتمع منحل.. ولن يصلح هذا المجتمع إلا دعوة.. إلا انبثاق فكرة، تنبثق من سخط الناس، كما انبثقت ثورة ٢٣ يوليو.. لهذا أكتب قصصي».

[illegible] إحسان في رسالته نماذج لكُتَّاب من مختلف أنحاء العالم [illegible] قصصهم للإصلاح الاجتماعي»، أو «إبراز العيوب [illegible] داخل المجتمع».. وأنه فعل ذلك متحملًا سخط الناس.
[illegible] الرسالة أيضًا إلى مقالات مصطفى محمود التي كان ينشرها [illegible] «صباح الخير»:

يبقى بعد هذا ما حدثني به الزميل هيكل، عن دعوة الإلحاد في صحف «روز اليوسف»، والمقالات التي ينشرها مصطفى محمود.. وقد أوقفت نشر مقالات مصطفى محمود الخاصة ببحث فلسفة الدين، ولكنني أحب أن أرفع إلى سيادتكم رأيي في هذا الموضوع حتى أكون قد صارحتكم بكل شيء. إني مؤمن بالله يا سيدي الرئيس.. لست ملحدًا ولعلك لا تعرف أنني أُصلي.. ولا أُصلي تظاهرًا ولا نفاقًا، فإن جميع مظاهر حياتي لا تدل على أني أُصلي، ولكني أُصلي لأني أشعر بارتياح نفسي

عندما أُصلي، ورغم ذلك فإني أعتقد أن ديننا قد طفت عليه كثير من الخزعبلات والأتربة، والتفسيرات السخيفة التي يقصد بها بعض رجال الدين إبقاء الناس في ظلام عقلي حتى يسهل عليهم - أي على رجال الدين - استغلال الناس والسيطرة عليهم، في حين أنه لو تطهر الدين من هذه الخزعبلات ونفضنا عنه هذه الأتربة لصح ديننا، وصحت عقولنا ونفوسنا. وسهل على قيادتكم أن تسير بالشعب في الطريق الذي رسمته له.

الجديد في واقعة «البنات والصيف» هو ظهور اسم عبد الناصر نفسه، لا مسؤولين في الدولة، مطالبًا بالمصادرة. والغريب أو المدهش أن الهجوم على إحسان بدأ في رسالة قارئ في بريد القراء، تمامًا كما بدأت أزمة أولاد حارتنا برسالة في بريد القراء في مجلة المصور، أرسل أيضًا أحد القراء من الإسكندرية يُسمى أحمد العريس رسالة إلى مجلة «روز اليوسف» يطلب فيها من إحسان عبد القدوس أن «يكف عن قصصه التي يكتبها عن النساء الخليعات، وأن يكتب لنا عن النساء الخالدات أمثال خولة بنت الأزور والخنساء وهي تودع أولادها للجهاد.. إلخ؟ أحمد العريس، الإسكندرية». وقد رد محرر باب «بريد القراء» ساخرًا من مطالبة القارئ: «إحسان يحب التجديد».

■ ■ ■

. ما هذه الأجواء طلب وزير الثقافة ثروت عكاشة من محفوظ
ا... ك جهاز الرقابة على المصنفات الفنية، ويتولى مسؤولية جهاز
ا ا، وهو جهاز جديد مهمته إعانة نقابة السينمائيين، ودعم
. ال المهرجانات.
. الا محفوظ قد تولى مسؤولية جهاز الرقابة قبل سبعة شهور من
. . . «أولاد حارتنا»، تحديدًا في فبراير ١٩٥٩، وهو الأمر الذي
ام ا الكثيرين بالدهشة، إذ كيف لرجل يدعو للحريَّة وينادي بها
. . من الديموقراطية شعارًا ثابتًا له، يقبل أن يكون رقيبًا على
ال . . يحدُّ من حريَّة الفنانين؟
. . محفوظ موقفه لرجاء النقاش: «إن الرقابة -كما فهمتها-
. فنية، ولا تتعرَّض للفن أو قيمته، ووظيفتها- ببساطة- أن
. . سياسة الدولة العليا وتمنع الدخول في مشاكل دينية قد
. . إلى الفتنة الطائفية، ثم المحافظة على الآداب العامة وقيم
ا. . مع وتقاليده في حدود المعقول، وفيما عدا ذلك يحقُّ للفنان
ا . . ل ما يشاء، ويعبِّر عن نفسه بالأسلوب الذي يراه مناسبًا».
. ام اف: «الرقابة ليست قيدًا على الفنان والرقيب ينبغي أن يكون
. . . للفن لا عدوًّا له، مع الأخذ في الاعتبار أن الأصل في الفن
. . الإباحة» أما «المنع» فهو مثل الطلاق؛ أي أبغض الحلال.
. . ال الفترة التي أمضيتها بالرقابة كنت منحازًا للفنِّ، رغم
ا . الأجواء بها تحمل روح العداء للفنِّ، ولم أشعر، في لحظة من

اللحظات، أنني أخون نفسي كأديب وفنّان».

■ ■ ■

تاريخيًا، لم يكن محفوظ المثقف الأول الذي يتولى مسؤولية رقابية، سبقه العقاد الذي تولى أثناء الحرب العالمية في الفترة من ١٩٣٩-١٩٤٥ جهاز الرقابة على المطبوعات، وأعلن العقاد أنه قبل المسؤولية حتى يستطيع أن يمنع كتب الدعاية النازية والفاشية وغيرها من النظم الشمولية. وفي حوار مع محفوظ حول «القبلة»، قال محفوظ إنه كرقيب كان يوافق على القبلات بأنواعها كافة، ما عدا واحدة، تلك التي تستقر على العنق، خصوصًا لو طال زمنها على الشاشة أكثر من دقيقة. وسئل في حوار صحافي: هذا عن الشاشة ماذا عن الواقع، ماذا تفعل كنجيب محفوظ الإنسان لو رأيت شابًا وفتاة يختلسان قبلة في الشارع؟ أجاب: «أبدًا أبعد وجهي الناحية الأخرى، وأبتسم وأقول: اوعدنا يا رب»[(٦٠)].

وكان آخر سيناريو أعده نجيب محفوظ قبل قبوله منصب الرقيب.. تمصير رواية «ثمن الحرية» تأليف: إيمانويل روبليس.. وقد اختار محفوظ ثورة ١٩١٩ كفترة زمنية تصلح أحداثها للتمصير، وكان توفيق صالح هو المرشح لإخراج الفيلم. ولكن الفيلم لم يخرج إلى النور إلا عام ١٩٦٧ من إخراج نور الدمرداش، ومعالجة درامية

(٦٠) الكواكب، ١٥ يناير ١٩٦٠.

ا...ط وحوار لطفي الخولي، وسيناريو طلبة رضوان.

... محفوظ في منصبه عامًا واحدًا، ورفض بعد أن غادر المنصب

ا... ض معركة دفاعًا عن روايته «القاهرة الجديدة» التي رفض

... الذي تحمل مسؤولية الرقابة من بعده، عبد الرحيم سرور،

... م تحويلها إلى فيلم، اعتبر محفوظ أن هذه المعركة تخص المخرج

... السيناريو، وليس له الحق في أن يخوضها. استمر رفض

... تقديم «القاهرة الجديدة»، وأيضًا رواية «السراب» لسنوات..

... أن ينتصر الفن في النهاية.

■ ■ ■

... الأمر على أن يغادر محفوظ منصبه إلى منصب آخر يبدو

... بل في تلك الفترة استدعته المخابرات العامة لاستجوابه

... الرواية. قال محفوظ لرجاء النقاش:

... أن الفنان فريد شوقي عرض على الدكتور ثروت عكاشة فكرة

... سينمائي يدور في إطار عمل المخابرات المصرية، وطلب تدخله لدى

... ات لكي تسهم في تمويله، وافق عكاشة وأسند إليَّ مهمة كتابة

... اريو وعندما فرغت من الكتابة استدعاني للقائه في مكتبه، وطلب مني

... هاب إلى مبنى المخابرات ومقابلة المسؤولين هناك واستطلاع رأيهم في

... اريو، ومعرفة مدى رغبتهم في تمويل الفيلم. ولم أكن أعرف مكان مبنى

... ات فحدده لي وذهبت. وفي المبنى التقيت نائب رئيس المخابرات،

... خيري، الذي كان مختصًا بمثل هذه الأمور (...) لاحظت عند

دخولي مكتب نائب رئيس المخابرات وجود شخص يحدق فيَّ ثم هم بالانصراف، فاستبقاه خيري طالبًا منه الانتظار، لأن الحديث سيدور عن السينها، ويمكن أن يفيدنا هذا الشخص في المناقشة. لم يعرفني هذا الشخص بنفسه وفتح معي حوارًا طويلًا عن الثلاثية، ثم حدثني عن «أولاد حارتنا» والمشكلات التي ثارت حولها، وسألني عما أقصده من ورائها ومدى صحة مايقال عن وجود تجاوزات دينية بها؟ انتهى اللقاء وانصرفت. وبعد عدة شهور شاهدت صورة في الصفحة الأولى لصحيفة «الأهرام» للرئيس عبدالناصر في إحدى جولاته الأفريقية وتوقفت أمام صورة شخص يظهر في الصورة خلف عبدالناصر. إنه نفس الشخص الذي كان يتحدث معي في مكتب طلعت خيري. وكانت دهشتي شديدة عندما علمت أنه رئيس المخابرات، صلاح نصر.

على الفور قفز في ذهن محفوظ أن اللقاء مدبر، وأن ذهابه إلى مبنى المخابرات سبقته ترتيبات ما. يشير محفوظ إلى أن أصدقاء كثيرين له أخبروه أن المخابرات كان لديها اعتقاد بأن الرواية موجهة ضد النظام، وأنهم اشتموا فيها رائحة مؤامرة، وذهب آخرون إلى أن الأزمة التي أثارها الأزهر ضد الرواية كانت بتدبير المخابرات نفسها! وقد لاحظ في تلك الفترة أنه يخضع للمراقبة، وهذا الإحساس هو ما جعله يشعر أنه مثل محمود أمين سليمان، ودفعه ذلك الشعور لأن يكتب فيها بعد روايته «اللص والكلاب».. وقد أخبرته ابنة أخت الدكتور حسن صبري الخولي، وكانت من رواد ندوته الأسبوعية

ا.،. ارة محملة بمجموعة من العسكر ومعهم ضابط برتبة
، . . . جهوا إلى بيته لاعتقاله، ولكن صدرت لهم أوامر بالعودة
، ٥، م إكمال المهمة»، هذه الرواية حكاها محفوظ لرجاء النقاش في
اااا ،ات» باعتبارها حدثت في أعقاب نشر «أولاد حارتنا»، ولكن
ال ، ائي محمد سلماوي يسرد القصة باعتبارها حدثت بعد «ثرثرة
،، النيل». معتمدًا على ما حكاه له سامي شرف مدير مكتب
،، الناصر: «عرض محفوظ في رواية «ثرثرة فوق النيل» فساد
الما، ل الأمنية ومراكز القوى فثارت ثائرة عبد الحكيم عامر وأصدر
،، ا بالقبض على نجيب محفوظ وتحركت القوة بالفعل. وقد
، . ، لى السيد سامي شرف سكرتير الرئيس عبد الناصر آنذاك أنه
الا، إلى جوار الرئيس وهو يتحدث إلى عبد الحكيم عامر، ويطلب
، ، ماضيًا أن يوقف فورًا إجراءات القبض على محفوظ، فقال له
،ان. إن القوة قد تحركت بالفعل وإنها في طريقها إلى منزله الآن
اا، ص عليه. فقال له عبد الناصر بالحرف الواحد: «زي ما طلعتها
، ، مها.. احنا عندنا كام نجيب محفوظ؟؟!»[61].

ألت سامي شرف[62] عن حقيقة ما حدث فأكد أن أمر الضبط
، ، ث بعد «أولاد حارتنا»، وحدث أيضًا بعد «ثرثرة فوق النيل».
، أن عبد الناصر أوقف أي إجراءات ضد محفوظ. سألته عن

(٦١) الأهرام، ٢٨ أغسطس ٢٠١٥.
(٦٢) اتصال هاتفي معه.

كواليس الأزمة، فأجابني: «قرأ عبد الناصر الرواية مسلسلة كما نشرت في الأهرام، وهو الذي أعطى تعليماته باستكمالها رغم غضب الكثيرين الذين أرسلوا مذكرات احتجاج ضد الرواية».

سألته عن المحتجين هل كانوا فقط رجال الدين؟، فأكد بوضوح: «لا، هناك مثقفون، وسياسيون، أرسلوا مذكرات احتجاج، وتقارير ضد الرواية، لا تزال هذه التقارير موجودة في أرشيف رئاسة الجمهورية في قصر عابدين، كما كان المشير عبد الحكيم عامر غاضبًا من الرواية، وقد رفض عبد الناصر اتخاذ أي إجراء ضد محفوظ بسبب الرواية».

سألته: ولكن ألم يغامر محمد حسنين هيكل باستكمال نشر الرواية على مسؤوليته الشخصية؟، فقال: «هيكل لم يكن يتصرف من دماغه، كل من كان يكتب في «الأهرام» كان باتفاق مع عبد الناصر وتوجيهاته، حتى المعارضين الذين كتبوا سمح لهم عبد الناصر بذلك، مجلة «الطليعة» كانت فكرة عبد الناصر، وهو الذي سمح لنجيب محفوظ أن يكون من كتاب «الأهرام»، ويكون له مكتب دائم هناك.. لأنه كان قارئًا جيدًا لكل أعماله».

■ ■ ■

لم يتوقع هيكل، قبل نشر الرواية، المدى الذي وصلت إليه الأزمة، كان لديه بعض القلق. سألته: هل توقعت أن يتم استغلال الرواية

...ا أيضًا وليس فقط دينيًّا؟ أجاب: «كان واضحًا هجوم محفوظ
... السلطة، ولكن كان لديَّ مبدأ واضح في «الأهرام» أن أي
... لا بدّ أن يكون له نقاد، وإذا لم يتحمل النقد يفقد مبرر وجوده
... و تحول إلى «زنزانة». ثانيًا هناك كُتَّاب لا يمكن أن تضع
... رقابة أو وصاية حتى من رئيس التحرير نفسه، ومنهم نجيب
... وهو صاحب تجربة عريضة وهو وحده من يتحمل مسؤولية
... أمام الرأي العام».
... هيكل أن رواية محفوظ لم تكن وحدها التي أثارت جدلًا
... نشرها في الأهرام، فقد سبقها أيضًا رواية «بنك القلق» لتوفيق
... احتج عليها عبد الحكيم عامر، بشدة ووصل الخلاف بيننا
... حاد أمام عبد الناصر الذي حسم الموضوع بهدوء قائلًا:
«... الحكيم كتب في العصر الإقطاعي السابق (يوميات نائب في
...) وقال رأيه في الأحوال الاجتماعية المصرية في ذلك الوقت،
... له أحد، فهل يعقل أنه عندما ينتقد بعض الأوضاع بعد
... أن نتصدى له».
... هل كان الهجوم على أولاد حارتنا. مقصودًا به نجيب
... أم محمد حسنين هيكل؟ ابتسم: «المقصود به «الأهرام»،
... شخصي ولا محفوظ، هناك داخل السلطة من أزعجهم نجاح
«الأهرام»، لم نكن في طوع الاتحاد الاشتراكي (التنظيم السياسي
... الوحيد)، ولا الحكومة، ولم نكن نطلب مساعدات

منهم، بل كنا نحقق أرباحًا، ولذلك عندما اشتكى علي صبري[٦٣] «الأهرام» للرئيس، أجابه عبد الناصر قائلًا: والله، هيكل لم يطلب مني شيئًا على الإطلاق، ولا يوجد مليم واحد دخل «الأهرام» من الدولة، حتى في الفترة الأولى، على عكس «الجمهورية» التي كانت تطلب دائمًا مساعدة الدولة».

قلت لهيكل: إذن لم تكن السلطة الناصرية مجرد جناح واحد منسجم، بل جناحين، أحدهما يميني والآخر يميل إلى اليسار؟ أجاب: «بل عدة أجنحة، لم يكن فقط الاتحاد الاشتراكي ضد «الأهرام»، بل الحكومة أيضًا وأذكر أن سعد زايد محافظ القاهرة وقتها أهان أحد محرري «الأهرام» في اجتماع عام، فأصدرت قرارًا بألا تنشر أي أخبار عنه في «الأهرام» حتى يعتذر، وقد شكاني لعبد الناصر ولكني صممت على موقفي، حتى اعتذر في النهاية. ومن المفارقات أن الأهرام الذي كنت أرأس تحريره وإدارته، وأنا أقرب الناس لجمال عبد الناصر كان هو الذي تعرض بانتظام لهجوم لم تتعرض له صحيفة أخرى. فقد كان هناك من ضايقه دور «الأهرام» في ذلك الوقت، ولذلك تقرر اعتقال عدد من محرريه، كل هذا وأنا فيه، وكل هذا وأنا القريب لجمال عبد الناصر».

■ ■ ■

(٦٣) علي صبري (١٩١٧-١٩٩١) كان من ضباط الصف الثاني في تنظيم الضباط الأحرار، وكان من مؤسسي جهاز المخابرات، وتولى عدة مناصب سياسية وتنفيذية، منها رئاسة الاتحاد الاشتراكي العربي.

...ام «أولاد حارتنا» ألقت بظلالها على مناقشات «الميثاق» ١٩٦٢،
... دارت معركة شهيرة على صفحات «الأهرام» بين الشيخ الغزالي
... ح جاهين. أثناء المناقشات طالب الغزالي بتحرير القانون
المصـ... من التبعية الأجنبية، وتوحيد الزي بين المصريين، وهي آراء
... ها جاهين غير معبرة عن روح العصر، فخصص رسوماته
الـ... كاتيرية مفندًا آراء الغزالي، كانت الرسمة الأولى للشيخ وهو
... في الجماهير ويقول: «يجب أن نلغي من بلادنا كل القوانين
الوا... دة من الخارج كالقانون المدني وقانون الجاذبية الأرضية».
... الغزالي وهاجم جاهين في جلسات الميثاق: «إن مهاجمة
الـ... امة البيضاء أمر يستدعي أن يمشي العلماء عراة الرأس إذا لم تحم
... مهم». وأضاف: «إن هذا المؤتمر يعطي الحق لكل فرد ليقول
... الأمينة الحرة التي يجب ألا يرد عليها بمواويل الأطفال في
... سيارة ينبغي أن تحترم نفسها». هجوم الغزالي استفز هيكل
... كتب في «كلمة الأهرام» مؤكدًا احترام «الأهرام» للدين،
...: «نرفض محاولة الشيخ الغزالي أن يجعل من الخلاف في الرأي
... وبين صلاح جاهين رسام الجريدة قضية دينية، وإن الجريدة تؤمن
... الرأي، لذلك تنشر نص كلمة الغزالي احترامًا لحقه في إبداء
... مهما كان مختلفًا مع رأي الجريدة، مع إعطاء الحق لصلاح جاهين
... يبدي رأيه هو الآخر فيما يقوله الشيخ». ونشر جاهين رسومات
... يدة وتحتها كتب إن «ملابس الشيخ الغزالي لا تعطيه حصانة تجعل

آراءه فوق النقد». كما كتب جاهين شعرًا ناقدًا للشيخ: (هنا يقول أبو زيد الغزالي سلامة/ وعينيه ونضارته يطقو شرار/ أنا هازم الستات ملبسهم الطرح/ أنا هادم السينما على الزوار/ أنا الشمس لو تطلع أقول إنها قمر/ ولو حد عارض. يبقى من الكفار/ ويا داهية دقي لما أقول ده فلان كفر/ جزاؤه الوحيد الرجم بالأحجار/ فأحسن لكم قولوا (آمين) بعد كلمتي/ ولو قلت: الجمبري ده خضار!). وانتقلت المعركة إلى منابر المساجد هجومًا على جاهين و«الأهرام». حتى تدخل كمال الدين حسين الذي طلب من هيكل تجاوز موضوع الخلاف بين الأهرام والشيخ الغزالي، وضرورة الانصراف إلى مناقشة «الميثاق»، كما أكد أن احترام الدين وإجلاله أمر يحرص عليه الجميع. كانت معركة (جاهين- الغزالي- هيكل) من توابع زلزال«أولاد حارتنا» الذى أربك النظام الذي وقف حائرًا تجاه نجيب محفوظ وروايته التى نشرت رغم كل إجراءات التوجيه والتعبئة؟

■ ■ ■

في المصعد، التقى نجيب محفوظ بحسن صبري الخولي «كان يعمل معي في المبنى ذاته الذي أعمل فيه»، كما قال محفوظ الذي كان وقتها رئيسًا لجهاز الرقابة على السينما، بينما الخولي رئيسًا للهيئة العامة للاستعلامات، ومسؤولًا بالتبعية عن الرقابة على المطبوعات والصحف، ولم يكن وقتها قد أصبح مبعوثًا شخصيًا للرئيس عبدالناصر. رغم أن محفوظ أشار في أحد حواراته أنه كان يطلق عليه

... ب الريس»، ودار بينهما حوار حول «أولاد حارتنا»، فاقترح
الـ... أن يرتب لقاء بين محفوظ وعدد من شيوخ الأزهر المعترضين
على نشر الرواية، وكان من بينهم ثلاثة كتبوا تقارير أوصت بوقف
... مصادرة الرواية وهم: الشيخ محمد الغزالي، والشيخ محمد
أبو... هرة، والشيخ أحمد الشرباصي. ذهب محفوظ إلى مكتب الخولي
في الموعد المحدد وتخلف الشيوخ الذين - ربما- خشوا من المواجهة،
ودار حوار بين الخولي ومحفوظ انتهى إلى اتفاق «جينتلمان» أنه بإمكان
محفوظ نشر الرواية في أي بلد عربي باستثناء مصر إلا بموافقة الأزهر.
«لا نريد أن ندخل في مشكلات مع الأزهر» كما قال الخولي. محفوظ
قال في حوار مع مجلة باريس ريفيو(١٩٩٢) إن ما فعله مدير جهاز
الرقابة على المطبوعات حسن صبري الخولي مجرد «نصيحة» بألا يطبع
الرواية في مصر، مع تعهده بألا تهاجم الرواية في الصحافة المصرية.
استجاب محفوظ للنصيحة وظل ملتزمًا بالاتفاق. معتبرًا أن لديه في
الرواية رسالة لم تصل: «شعرت أن رسالتي لم تصل فلم أسع للدفاع
عنها ولم أسع إلى نشرها»[٦٤].

كانت الرسالة التي يقصدها محفوظ، سياسية، في جانب منها، ولكن
المشكلات التي صاحبتها والتفسيرات التي أعطيت لها جعلت
الكثيرين لا يلتفتون إلى هذه الخلفيات» كما قال رجاء النقاش.

---

(٦٤) ... حافل بالمجانين، حوارات باريس ريفيو، ت: أحمد شافعي، هيئة الكتاب، ٢٠١٥.

وهو ما أشار إليه جون ودنبك في المقدمة التي كتبها للترجمة الإنجليزية لرواية «الشحاذ»: «أوحت «أولاد حارتنا» بأن النظام الجديد لن يختلف كثيرًا في نهاية المطاف عن النظم القديمة، وقد فعلت الرواية ذلك بذكاء قوي وثاقب بدا وكأنه حوَّل خيبة الأمل السياسية- أو حتى اليأس السياسي- إلى حرية جديدة للتعبير».
اللافت أن محفوظ الذي كان يتجنب في سنوات الستينيات أي إشارة إلى «الخلفيات الاجتماعية للرواية» أو إلى منعها لأسباب سياسية، إلا أنه بعد رحيل عبد الناصر كان أكثر جرأة في الإشارة لذلك، قال في حوار مع جريدة «القبس» الكويتية:

«لا أكتب إلا إذا حدث انفصام بيني وبين المجتمع، أي إذا حدث عندي نوع من القلق وعدم الرضا، بدأت أشعر أن الثورة التي أعطتني الراحة والهدوء بدأت تنحرف وتظهر عيوبها، بدأت تناقضات كثيرة تهز النفس، بدأت أشعر أن هناك عيوبًا وأخطاء كثيرة تهز نفسي، وخاصة من خلال عمليات الإرهاب والتعذيب والسجن، ومن هنا بدأت كتابة روايتي الكبيرة «أولاد حارتنا» والتي تصور الصراع بين الأنبياء والفتوات. كنت أسأل رجال الثورة: هل تريدون السير في طريق الأنبياء أم الفتوات؟» (٦٥).

(٦٥) القبس، ديسمبر ١٩٧٥.

لست فيلسوفًا

لم ...صر الاهتمام بأزمة الرواية على مصر وحدها، انتقل الاهتمام
...ا عبر مراسلي المجلات العربية المقيمين في مصر. محيي الدين
...، مراسل مجلة الآداب البيروتية استعرض في تقرير له، الضجة
ا... صاحبت نشر «أولاد حارتنا» رغم أنها «لم تنشر في كتاب
...امع بل قرئت متفرقة في جريدة يومية مع ما يؤديه ذلك من
...ان للملامح، ومن فواصل زمنية، ومن تشتت، ومن فقدان
ا...ط الرئيسي الذي يلملم الشخصيات ويعطيها الطابع الانسيابي
ا... اتي»[٦٦].
...ف أن «الضجة لم تقتصر على شيوخ الأزهر، وإنما امتدت

...مجلة الآداب، فبراير، ١٩٦٠.

إلى بعض النقاد في الصحف اليومية والندوات، الذين ربطوا شخصيات الرواية بالرجال العظام في التاريخ كالأنبياء».. موضحًا: «هجوم الأزهر يستند إلى ما يسميه تطاول الروائي على مقدسات الأمة العربية، مسلمين ومسيحيين، يرفض أن تكون شخصية الرسول مرسومة بهذه الألوان «الضحلة» التي لا دلالة لها سوى الرغبة في السخرية من الأديان، أما هجوم النقاد فقد استند إلى نوعية أكثر نضجًا ووعيًا، فالبعض أقام في ذهنه مقابلة بين هذا العمل وبين أمثاله في الغرب، ودافعهم إلى إقامة المقابلة هو رغبة شخصية لنجيب محفوظ بأن يكون كاتبًا على غرار توماس مان كروائي إنساني، على أن يكف نهائيًا عن مجرد التصوير الحرفي لحياة الطبقة الوسطى في المدينة».

نقل محيي الدين محمد أسباب الهجوم، ودافع عن محفوظ ساردًا أسبابه: «لم يتخل محفوظ عن طبقته، لم يقفز بعمله الفني إلى المستوى الإنساني، إنه مغمور ما زال في وحل شرقنا العربي، يحاول أن يداوي أمراضه، ويشفي قروحه، والظن الساذج يرجع إلى انخداع بعض هؤلاء النقاد برموز الرواية وتسرعهم في الاستنتاج».. وأضاف الكاتب: «استعانة الروائي بشخصيات التاريخ لا يمكن أن يفهم منها أنها محاولة للسرد، أكثر مما يفهم منها أنها محاولة لتكثيف خطأ الوسيلة التي تردى فيها الشرق أكثر من مرة بعدد الأنبياء والرسل والمصلحين الذين ظهروا في تاريخه، إن الجواب لا بد

ا.. ىحون عصريًّا وعلميًّا للغاية.. يقفز بالعربي إلى منتهى التحرر واللاعبودية..». وفي النهاية يدعو محيي الدين محمد النقاد ومهاجمي ... ظ إلى التمهل في الحكم والصبر حتى «تخرج الرواية كاملة في ... ».

١٠ حاور غالي شكري مراسل مجلة «حوار»[٦٧] اللبنانية محفوظ .. ل الرواية، التي وصفها شكري بأنها لا تضيف جديدًا للفلسفة الإنسانية، الجديد هو إضافتها هذا الشكل الفني إلى الأدب ا... علق محفوظ بهدوء: «أولاد حارتنا» لا تضيف جديدًا إلى الفلسفة الإنسانية. هذا حق ولكني متى ادعيت أنني فيلسوف بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة؟ الفيلسوف هو الذي يضيف جديدًا للفلسفة الإنسانية، أما الأديب المتفلسف فهو الذي يعبر تعبيرًا ... يأخذه من هذه الفلسفة. وهو يفيد الفلسفة بذلك، لأنه ... ها إلى تجربة حية تعيش في النفس البشرية، بعد أن كانت معادلة ... تختص بها الفلاسفة وتابعوهم. ماذا أضاف شكسبير أو ... أو إبسن أو شو إلى الفلسفة الإنسانية؟ لا شيء. الأدب لا ... الفلسفات، ولكنه يعالجها. وإذا وجد أدب، وفي الوقت ... أضاف جديدًا للفكر، فذلك لأن مؤلفه فيلسوف وأديب ... مثل سارتر». وحاول محفوظ أن يقدم رؤيته للشكل الفني

(٦٧) ... أبريل، ١٩٦٣.

الذي اختاره إطارًا لفكرته في الرواية.. فقال: «لكن ما هو الشكل الفني لـ «أولاد حارتنا»؟ لعله - أقول لعله - شيء نقيض ما فعل سويفت[٦٨] في رحلته المشهورة. فقد نقد الواقع عن طريق الأسطورة. أما هنا، فأنا أنقد الأسطورة عن طريق الواقع. لقد ألبست الأسطورة ثوب الواقع لتزداد للواقع فهمًا وأملًا».

■ ■ ■

وتواصل الجدل، رغم أن محفوظ أصدر أعمالًا أخرى إلا أن السؤال الذي انشغل به العديد من الصحفيين حول سبب عدم صدور «أولاد حارتنا» في كتاب. فقد سأله سعد كامل المحرر بـ«آخر ساعة»: «لماذا لم تصدر «أولاد حارتنا» حتى الآن في كتاب؟»، أجاب محفوظ: «لم تنشر لأنني لم أتمكن من الحصول على تصريح من رقابة الكتب حينذاك بنشرها، ومع أن هذه الرقابة ألغيت فإن أي ناشر يخشى عرضها نظرًا لاعتراض الأزهر». يسأله المحاور: «وما مصيرها الآن؟»، يجيب محفوظ: «حاولت لبنان الحصول على حق طبعها، ولكنني أجلت ذلك لحين أن تنشر في مصر أولًا بعد أن يزول سوء التفاهم الذي أثاره الأزهر والأخذ والرد الذي دار حولها»!

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها محفوظ عن منع رسمي للرواية داخل مصر لعدم تمكنه من الحصول على تصريح من

---

(٦٨) جوناثان سويفت، صاحب «رحلات جاليفر».

الرواية، ثم خشية الناشرين من نشرها. بعد أكثر من عامين على هذا الحوار تساءل الروائي محمد جبريل «متى تصدر أولاد حارتنا في كتاب؟»(٦٩).

ورد جبريل الكثير من التفاصيل مؤكدًا إحجام ناشر محفوظ عن طبع «أولاد حارتنا» مكتفيًا بأن يعلن في آخر كل كتاب جديد لنجيب محفوظ أن «أولاد حارتنا» تحت الطبع، دون أن يقدم على طباعتها بالفعل. وأضاف جبريل: «ولعل في حرص الناشر أن تكون «أولاد حارتنا» تحت الطبع دومًا، ما يؤكد أن قرارًا بعدم النشر لم يصدر. وإلا لما أصر أن يعلن في نهاية كل كتاب عن قرب موعد صدورها. ألا تعني «تحت الطبع» قرب موعد الصدور». واقترح جبريل حلًّا بأن: «تنهض بمسؤولية طبع «أولاد حارتنا» دار نشر عامة - أي تابعة للقطاع العام مثل الدار المصرية للتأليف والترجمة والدار القومية وغيرهما، فليس من المعقول أن يرفض محفوظ عرضًا مغريًا من دار نشر بيروتية بطبع «أولاد حارتنا» ويصر على أن تصدر الرواية مثل باقي أعماله في القاهرة. وليس من المعقول أن يكون هذا هو موقف الفنان ثم لا تنهض دور نشر القطاع العام بأول واجباتها وهو تذليل عقبات النشر أمام الأدباء والفنانين، وأدبينا ليس نكرة إنه واجهة مضيئة لتطور أدبنا العربي الحديث».

(٦٩) جريدة المساء، ٢٦ يونيو ١٩٦٥

طال انتظار محفوظ، لأكثر من سبع سنوات، ظل مترددًا حتى استجاب لعرض دار «الآداب» البيروتية، لتصدر الرواية في ديسمبر عام ١٩٦٧. يحكي سليمان فياض أنه التقى محفوظ في جلسته الأسبوعية في مقهى ريش، وسأله عن مصير نشر الرواية في كتاب.. أجابه محفوظ: «يبدو أن السحار متردد في نشرها، ولا أظن أنها ستنشر في مصر». فعقب فياض: «على أية حال لديَّ الناشر إذا رفضت أي دار مصرية نشر الرواية». فسأله محفوظ: «من؟»، أجاب فياض: «دار الآداب البيروتية». لم يعترض محفوظ، واتصل فياض بسهيل إدريس الذي قال: «سأكون في القاهرة خلال أسبوع من أجل الرواية». وبالفعل جاء سهيل واتفق مع محفوظ على نشر الرواية، التي مهدت لها مجلة الآداب بحملة إعلانية تحت عنوان «الرواية التي طال انتظارها».

طوال سنوات الانتظار، لم يكن هناك قرار رسمي مكتوب بمنع نشر الرواية. لم ترفض الرقابة أو توافق لأن أحدًا لم يقدم على طباعتها. وفي تلك السنوات كانت الضجة قد هدأت قليلًا، وانشغل محفوظ بأعماله الأخرى. بين الحين والآخر تنشر الصحف دراسة هنا أو هناك عن الرواية المثيرة للجدل، لكن في ١٢ مايو ١٩٦٨، أي بعد خمسة شهور من صدور الرواية في بيروت، أصدر مجمع البحوث الإسلامية، برئاسة أمين عام المجمع في تلك الفترة محمود حب الله أول تقرير رسمي بمنع الرواية، استعرض التقرير أحداث الرواية

، ' ـ صياتها، ورصد: «جوانب المؤاخذة في القصة، ولا يخفف من
، «٥» الانتقال من الأحداث الطبيعية وشخصياتها إلى أحداث دالة
، ' ـ صيات رامزة، فإن ذلك كله لا يخفي الوجه الحقيقي لكل حادثة
، ا ا، شخصية. كما لا يخفف من وقع هذه المؤاخذات أن ما قدمه
ا ا، ب من حيث هو - بعيدًا عن المعتقدات والمقدسات - عمل فني
، ا ، وقد كان في مقدور الكاتب أن يخرج عمله الفني بعيدًا عن هذا
ا مو ط». وانتهى التقرير إلى توصية: «بعدم نشر القصة مطبوعة أو
، ...و عة أو مرئية»[٧٠].
لماذا صدر هذا التقرير في ذلك التوقيت؟ ليس لدينا إجابة مؤكدة،
، الحن ثمة استنتاجًا أن طبعة الرواية البيروتية تسربت إلى القاهرة،
، ـ مني مجمع البحوث أن يطلب البعض توزيع الرواية في مصر،
، استبق المجمع مثل هذا الطلب بذلك التقرير.
ا . واني محمد جبريل يذكر في كتابه «صداقة بين جيلين» أن نسخًا
... بت من الرواية بعد صدورها في بيروت، فاتصل وزير الإعلام
ـ ـد فائق بنجيب محفوظ وأبلغه أن قرار حظر النشر لا يزال قائمًا،
، لا داعي لتوزيع الرواية في مصر.
..ألت فائق[٧١] عن حقيقة ما ذكره جبريل فابتسم وقال: «أنا الذي
أ عطى تعليمات بتحويل الرواية إلى مسلسل إذاعي»، المسلسل أذيع

(٧٠) النص الكامل للتقرير في ملحق الوثائق في نهاية الكتاب.

(٧١) لقاء معه على هامش إحدى الندوات العامة.

في عام ١٩٧٠، بالاسم ذاته في إذاعة «صوت العرب»، من إخراج حسين أبو المكارم، وسيناريو عبد الرحمن فهمي، وبطولة: سميحة أيوب، وعبد الله غيث، وعبد الرحمن أبو زهرة، وتوفيق الدقن، وكريمة مختار، ومحمد رضا. ومر بدون أن يعترض أحد.

فائق كان قد اعترف لمارينا ستاغ من قبل أن المسلسل جرت عليه تغييرات بسيطة: «اقترحتها أنا شخصيًا على نجيب محفوظ لتفادي الاحتجاجات ووافق عليها». مضيفًا: «إن أشد درجات الرقابة كانت دائمًا تجيء نتيجة للاحتجاجات الدينية، وبالنسبة لمعظم الأعمال التي سمح بنشرها في الصحف وواجهت صعوبات لنشرها في كتب كانت الأسباب الدينية الأخلاقية وراء تلك الصعوبات، ونشرها في الصحف يعني أنه لم تكن هناك اعتراضات سياسية».

سألته: هل حصلت على موافقة عبد الناصر قبل إذاعة المسلسل؟

أجاب: «لا.. الرئيس لم يكن ليعترض».

البحث عن المخطوط

أين يمكن أن نجد مخطوطة «أولاد حارتنا»؟

أخيرًا أجاب فيليب ستيوارت، أول مترجم للرواية إلى الإنجليزية:

ترقد المخطوطة داخل خزانة أحد البنوك في بيروت!

لماذا بيروت تحديدًا؟

لا بد أن نحكي القصة من بدايتها: في مارس ١٩٦٢ وصل إلى القاهرة الشاب فيليب ستيوارت (المولود في لندن عام ١٩٣٩)، الذي يدرس اللغة العربية في جامعة أكسفورد. كان قادمًا من الجامعة لإنجاز بحث عن «روايات نجيب محفوظ» ليحصل به على درجة الدكتوراه، لم يكن لديه فسحة من الوقت. فقط ستة أشهر

يعود بعدها لدراسة علم الغابات، تردد على المقهى الذي يجلس عليه محفوظ كل صباح، حيث تعرف هناك على محام أجنبي يدعى «هارفي»[٧٢] نصحه بعدم تضييع وقته في البحث والاكتفاء بترجمة إحدى روايات نجيب محفوظ، ووقع الاختيار على «أولاد حارتنا» لم تكن الترجمة بهدف النشر، بل ترجمة أكاديمية لمجرد الحصول على الدرجة العلمية، واقتنع ستيوارت بالفكرة.

في حوار لي معه قال: «كنت أتوقع أن ترجمة الرواية مع كتابة مقدمة وملاحظات كافية لرسالة دكتوراه، لكنهم رفضوها في الجامعة».

أثناء عمله على الترجمة، حصل ستيوارت على نسخة من الرواية كما نشرت في «الأهرام» مسلسلة، والتقى نجيب محفوظ مرات عديدة لبحث ما استغلق عليه من الرواية، أو ما سقط من جمل وعبارات من طبعة «الأهرام». عندما سأل ستيوارت محفوظ عن مخطوط الرواية، أجابه: «لقد سلمته لـ «الأهرام» تمهيدًا للنشر، ولم تتم إعادته، فاستنتجت ضياعه، ولم أسأل عنه».

أدركت بحكم معرفتي بمحفوظ أن إجابته كانت دبلوماسية، لأنه يتحدث عن النسخة التي تم تبييضها وتسليمها للنشر، وليس عن مسودات الرواية أثناء كتابتها والشطب والتعديل فيها، لكن حصاد ستيوارت من محفوظ لم يكن كله دبلوماسيًّا، فقد طرح العديد من

---

(٧٢) هارفي أحد أصدقاء نجيب محفوظ، وفي نفس عمره تقريبًا، محامٍ يساري، وكان يتردد على ندوات الأستاذ حتى رحيله.

الأسئلة والإشكاليات عليه (خاصة الإشكاليات الدينية والرمزية)،
ورد محفوظ على التساؤل الأهم: ما الذي يثير غضب الرأي العام من
الرواية؟

طرح ستيوارت ثلاث نقاط:

١ تجسيد الأنبياء روائيًا.

٢ موت الجبلاوي كمعادل لموت الإله عند نيتشه.

٣ محاكاة القرآن حيث تنقسم الرواية إلى ١١٤ فصلًا (بمقدار عدد
سور القرآن).

ضحك محفوظ، ثم قال:

أعوذ بالله.. سأوضح لك الأمر: الرواية بالمقدمة ١١٥ فصلًا، هذا
التقسيم لم يكن في ذهني أثناء الكتابة، كان في ذهني أن تكون الرواية من
خمسة فصول رئيسية، أما التقسيم داخل الفصول فتم بعد أن انتهيت
من الرواية، استخدمت الأرقام لتقطيع الفصول إلى أقسام أصغر
لمجرد تسهيل القراءة ليس إلَّا، وسور القرآن تحمل أسماء لا أرقامًا، كما
أنها متفاوتة الطول، أما القول بتجسيد الأنبياء، فهو أمر مرفوض من
معظم رجال الدين، وفي كل الأديان، وقد تعرض كازنتزاكس لهجوم
شديد بسبب روايته «المسيح يصلب من جديد»، هم لا يريدون أن
يتصوروا أن الأنبياء بشر مثلنا، يأكلون ويشربون، وردي عليهم من
القرآن: «وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق».
ورغم ذلك أنا لم أكن أقصد الأنبياء في روايتي، قاسم ليس النبي

محمد، هو شاب ينتمي إلى قاهرة القرن التاسع عشر، ليس شابًا من مكة ينتمي إلى القرن السابع، أما ما يتعلق بالجبلاوي، فالماركسيون هم الذين تصوروا في نقدهم أنني أدعو إلى موت الإله، والجبلاوي بالعقل ليس هو الله المطلق الخالد، وإنما هو الإله في أذهان بعض البشر، لا يمكن أن أُمَثِّل الله بشيء لأنه «ليس كمثله شيء».

واختتم محفوظ إجابته لمترجمه قائلًا: «بالعكس، عندما انتهيت من الرواية شعرت أنني وجدت إيماني».

القضايا الروحية، لم تكن بعيدة عن عالم محفوظ - كما يرى ستيوارت في مقدمته للترجمة: «فحتى في زقاق المدق التي نشرت عام ١٩٤٧، نجد الشخصيتين الرئيسيتين هما «رضوان الحسيني» الذي «وطأ أحزان الدنيا بنعليه، وطار بقلبه إلى السماء، وأفرغ حبه على الناس جميعًا»، و«الشيخ درويش» الذي «هجر أهله وإخوانه ومعارفه إلى دنيا الله» وبالمثل، فإن محفوظ في الأعمال التي نشرها منذ ١٩٥٩، عاد مرة بعد مرة إلى موضوعات الوهم والحقيقة والهلوسة والتنوير الصوفي، وتجلى ذلك بوضوح في قصة «زعبلاوي» التي تعد بمثابة مذكرة الكاتب التفسيرية لشخصية «الجبلاوي».

أنهى ستيوارت ترجمة الرواية في تلك الفترة المحدودة، وقدمها للجامعة، تزوج في تلك الفترة وانشغل بدراسة علم الغابات، ثم سافر عام ١٩٦٧ إلى الجزائر باحثًا لمدة سبع سنوات، وعاد مرة أخرى إلى أكسفورد عام ١٩٧٥. في أوكسفورد التقى المستعرب

الأمريكي روجر آلان، تحدثا عن نجيب محفوظ، وأخبره أن الجامعة الأمريكية حصلت على حقوق ترجمة روايات محفوظ، وسألني: «هل أقبل أن أمنحهم حق الترجمة؟»، يقول ستيوارت: «أجبته: أن دار هاينهان تفكر في سلسلة عن الأدب العربي وأنني قد منحتهم حق نشر ترجمتي». دار «هاينهان» أرسلت مخطوط الرواية إلى الدكتورة فاطمة موسى لمراجعتها، تصور ستيوارت أنها ستقارن النص العربي بالترجمة لتصحيح ما استغلق عليه فهمه، لكنه فوجئ بأنها تقوم بتصحيح «الإنجليزي»، وقامت بتحويل كلمة «Strongman»... إلى «Strong man»، كترجمة لكلمة «فتوة». وقد رفضت ما قامت به، وقمت بترجمة «فتوة» إلى «Chief» وكان الأمر خطأً شديدًا مني!

وأضاف ستيوارت: «صدرت الترجمة عام ١٩٨١ في طبعة محدودة، لم يبع سوى ٤٠٠ نسخة طوال ثماني سنوات حتى حصول محفوظ على جائزة نوبل. قبل ستة أسابيع من إعلان جائزة نوبل، طلبت الجامعة الأمريكية شراء الحقوق من «هاينهان» التي قبلت. ولكن الجامعة نسيت شراء الحقوق من دار Three Continents Press التي طلبت مني إصدار طبعة أمريكية، وكانت فرصة لإجراء مراجعة النص، وتصحيح بعض الأخطاء التي وقعت فيها واستخدمت في هذه الطبعة كلمة «فتوة» -كما في الأصل العربي- بدلًا من «Strongman». وباقتراح من Pierre Cachia. في عام ١٩٩٦ بدأت في مقارنة طبعة بيروت بنص الأهرام، في البداية كان يبدو لي العمل

عملًا ورتيبًا، ولكن بداية من الفصل الثالث وجدت جملًا وكلمات كثيرة سقطت من طبعة «الأهرام»، كما أن طبعة بيروت فقدت العديد من الجمل».

يوضح «ستيوارت» - في المقدمة التي كتبها للترجمة الإنجليزية لأولاد حارتنا - أنه كان هناك ٩٦١ اختلافًا بين النص الذي نشرته «الأهرام» ونص الرواية الصادر عن دار «الآداب»، وهي تمثل ما يقرب من ١٢٤١ كلمة ناقصة بخلاف آلاف الاختلافات في علامات الترقيم. واستنتج «ستيوارت» أن طبعة دار «الآداب» اعتمدت على المخطوط الأصلي: «ربما باعه أحد من «الأهرام» لدار «الآداب»، كما يقول. لأن طبعة «الأهرام» بها العديد من الكلمات التي سقطت في أثناء عملية الكتابة، كما أن طبعة «الآداب» بها فقرات كاملة محذوفة. لذا فالنصان غير مكتملين». محفوظ أبدى غضبه من طبعة دار الآداب»، باعتبارها «ناقصة، ولم أشارك في مراجعتها»، كما قال للمترجم.

الترجمة الإنجليزية قد تكون هي النص الوحيد المكتمل للرواية بعد مقارنتها بالنصين، فضلًا عن مراجعة محفوظ بنفسه، ومساعداته في الترجمة التي وصفها في رسالة كتبها لـ«ستيوارت»: «إنك جدير بكل شكر، أولًا لترجمتك الرواية بأسلوب شهد له كل من قرأه بالجودة والجمال، وثانيًا بكتابة هذا المقال الجيد».

■ ■ ■

... ...وارت عن «مخطوط» الرواية، دفعنا لسؤال رنا إدريس
... سهيل إدريس صاحب دار «الآداب»، فأحالتنا إلى
... مائدة إدريس التي شهدت نشر الرواية في الدار فأجابتني:
... نشرت من تجميع الدكتور سهيل إدريس لما نُشر في جريدة
... ام»، ولا نملك المخطوط الأصلي وبموافقة نجيب محفوظ
... نص التوقيع على عقد إلَّا أننا نملك جميع الإيصالات الموقعة
... بأنه استلم حقوقه كاملة من دار الآداب منذ الطبعة الأولى».
... إلى قسم المعلومات والأبحاث بـ«الأهرام»، وحصلت على
... اتصال بأحد العاملين بالقسم في تلك الفترة، وكان الأستاذ
... السعود إبراهيم رئيس القسم الأسبق، الذي التحق بالعمل
... «الأهرام» عام ١٩٦٥، أي بعد نشر «أولاد حارتنا» بحوالي
... سنوات كاملة، وقلت ربما يكون قد صادف المخطوط في
... شيف، ولما سألته قال: «طوال فترة عملي بالأرشيف لم أشاهد
... مخطوطات لروايات نجيب محفوظ.. عادة كانت الأصول تذهب
... قسم التصحيح، ثم إلى صاحب العمل نفسه ليراجع المراجعة
... نهائية، ولم يحدث أن جاءت روايات محفوظ إلى قسم المعلومات
... ال فترة عملي».
أ... السعود قام أيضًا بتصنيف مكتبة الأستاذ هيكل ووثائقه، وعلى
... ة ومعرفة كبيرة بما تضمه المكتبة من وثائق ومراجع، وكان
ذلك مناسبًا لأسأله عن إمكانية وجود المخطوط لدى الأستاذ

المغرم بجمع الوثائق، فأكد أبو السعود أن «مكتبة الأستاذ هيكل لا تتضمن أي أصول لروايات محفوظ التي نشرت أثناء رئاسة الأستاذ للأهرام».

هل يمكن أن يكون الرئيس جمال عبد الناصر قد حصل على المخطوط لقراءة الرواية أثناء نشرها؟ سألت سامي شرف سكرتير الرئيس عبد الناصر لشؤون المعلومات فأجاب: «عبد الناصر كان حريصًا على قراءة كل ما كتبه نجيب محفوظ، لكنه لم يقرأ مخطوط الرواية، قبل نشرها، لكنه قرأها مسلسلة كما نشرت في «الأهرام».

في كتابه «النميمة» كتب الروائي الراحل سليمان فياض عن عادل كامل أحد حرافيش نجيب محفوظ.. قال فياض: إنه شاهد مخطوط «أولاد حارتنا» في مكتبة كامل قبل أن تنشر في «الأهرام». سألت الفنان جميل شفيق، أحد أقدم أعضاء شلة الحرافيش، فنفى أن يكون محفوظ قد أطلع الشلة على مخطوطات أي من أعماله قبل نشرها، أو تحدث في أي مرة عن مخطوطاته: «كان لديه أسراره الخاصة التي يحرص عليها».

سألته: هل تضمنت مكتبة الراحل عادل كامل أي مخطوطات لمحفوظ؟

أجاب: «بعد أن قرر عادل كامل الهجرة، كتب لي توكيلًا خاصًا للتصرف في أعماله، وقد حصلت بموجب هذا التوكيل على كل مخطوطات صاحب «مليم الأكبر»، وقد طلبها مني الروائي سليمان

. . . . حبها إياه وكان من بينها رواية كاملة غير منشورة بعنوان
. . . . . والشيطان».. ولكن لم يكن من بين أوراق كامل أي
. . . . لمحفوظ».
. . . . وارت هو المستعرب الوحيد الذي اهتم بالرواية بعد
. . . «الأهرام»، كان هناك أيضًا الأب جاك جومييه الذي كتب
. . . ات دراسة عن «الثلاثية»، وكانت أول دراسة أجنبية عن
. . . محفوظ. تابع جومييه الرواية أثناء نشرها. عندما سأله
. . . جمال الغيطاني: هل وجدت في الرواية تفسيرًا دينيًّا؟
. . . جومييه: لا، لم يخطر ببالي ذلك، ولكن صديقي يحيى حقي في
. . . معه عبر الهاتف، قال لي عندما تحدثت له عن إعجابي بالرواية:
. . . الك نجيب بيكتب تاريخ الأديان والأنبياء». يحيى حقي كان
. . . صف الرواية في مقال له بجريدة المساء: «قرأنا لنجيب محفوظ
. . . الثلاثية روايته «أولاد حارتنا» وهي تأتي في اعتقادي في الأعمال
. . . ستبقى له ويخلد بفضلها اسمه، فقد حقق بها ما عجز عنه غيره
. . . الكتاب»[٧٣].

---

٧٣) جريدة المساء، ١٣ فبراير ١٩٦٣.

الأصل البعيد

أثناء جلسات العمل على ترجمة «أولاد حارتنا» إلى الإنجليزية، اعترف نجيب محفوظ لفيليب ستيوارت أن العمل الفني الوحيد الذي يمكن إقامة علاقة بينه وبين روايته هو «العودة إلى متوشولح»[٧٤] لبرنارد شو، وفيما بعد في رسالة خاصة إلى ستيوارت.. كتب محفوظ:

قرأت مقالتك[٧٥]، وأعجبت بفكرتها، ووجدت فيها

---

(٧٤) نُشرت المسرحية لأول مرة عام ١٩٢٢، وتضم خمس مسرحيات قصيرة مترابطة هي على [illegible]: في البدء، عام ٤٠٠٤ ق. م (في جنة عدن)، إنجيل الأخوين بارناباس (الوقت الحاضر)، [illegible] يحدث (تدور في عام ٢١٧٠)، مأساة السيد كهل (عام ٣٠٠٠م)، أقصى ما يمكن أن يصل [illegible] العقل (عام ٣١٩٢).

(٧٥) نشرت المقالة كمقدمة الطبعة للترجمة الإنجليزية لرواية أولاد حارتنا التي صدرت طبعتها الأولى عام ١٩٨١.

حلًّا موفقًا بين من اتهموا روايتي بالإلحاد، ومن وصفوها بأنها عمل صوفي. وأعجبني كذلك متابعتك لأصلها عند برنارد شو، وهذا يتفق مع إعجابي به وبعمله الكبير «العودة إلى متوشولح» بصفة خاصة. ولعل الدكتور مندور كان الناقد الوحيد الذي ألح إلى مثل هذه الفكرة؛ عندما قال عنّي إنّي «نقلت فكرة تقليدية عن الله دون تعرض لله ذاته»[٧٦].

في «العودة إلى متوشولح» التي تضم خمس مسرحيات قصيرة، يقفز برنارد شو بين الأزمنة، حيث تبدأ المسرحية بآدم وحواء في «عدن».. قبل أن تغريهما الحية، ليخرجا من الجنة، بعد الخروج تقول حواء لابنها قابيل: «الإنسان لا يحتاج دائمًا أن يعيش بالخبز فقط، يوجد شيء آخر لا ندري إلى الآن ما هو، ولكننا سنكشف عنه في يوم من الأيام، هنالك لا يبقى محل للحفر أو الغزل أو النزاع أو القتال»، وتتوالى الأحداث، حتى نصل إلى محاولة الإنسان لتحقيق الحلم بإطالة العمر ليصبح مثل «متوشولح»، أحد شخصيات العهد القديم، جد النبي نوح، وقد امتد به العمر حتى عاش ٩٦٩ عامًا، وتنتهي المسرحية في العام ٢١٦٠ عندما ينجح العلم في ذلك. صنف النقاد مسرحية شو بأنها «خيال علمي».. ولكن شو نفسه رفض

(٧٦) النص الكامل للرسالة في ملحق الوثائق في نهاية الكتاب.

... معتبرًا أن اهتماماته سياسية وليست علمية، حيث
... التطورات التي ينبغي أن يمر بها الإنسان قبل أن يتمكن من
... نفسه بنفسه، ولا يصبح في حاجة إلى حكومات ترتب له
... أعجب محفوظ مسرحية شو مبكرًا جدًا، قبل أن ينشر أيًا
... بل وكتب عنها مراجعة نقدية في مجلة «المعرفة».. يبدأ
... عرضه لمسرحيات شو:

ميتوزيلا بطريق، يقال إنه عمَّر طويلًا حتى نيف على التسعمائة بنصف قرن أو يزيد، فالرجوع إليه هو الرجوع بالإنسان إلى الحياة الطويلة، والحكمة في ذلك هي ما تدور عليه القصة بما سيعلمه القارئ بعد حين، والمؤلف يرمي بها إلى تأريخ التطور الخالق (CREATIVE EVOLUTION) فيبدأ بقصة آدم وحواء واستغل تلك الأمنية الأبدية «حجر الفلاسفة» الذي يغلب الناس على غائلة الموت، والقصة فوق ذلك تمثل فيه نقائص الحياة[77].

... عرضه للمسرحية يشير محفوظ إلى حلم البشرية في حياة ممتدة،
... أن رجال السياسة ذوي النفوس المظلمة يموتون دائمًا ولما
... بعد سن الرشد، فيجب أن تمتد بهم الحياة ليبلغوا الحكمة
... يستفيدوا من تجارب الماضي! يترجم محفوظ مقاطع مطولة من

(77) المعرفة، أبريل، مايو ١٩٣٤، النص الكامل للمقال في ملحق الوثائق في نهاية الكتاب.

حوار المسرحية لا تلقي فقط الضوء على الأفكار الرئيسية للنص، بقدر ما تكشف أيضًا عن أفكاره التي انشغل بها. أحد أبطال شو لا يثق في العلم، كانت ثقته في الشعر أعظم، ويضرب مثلًا على صدق الشعر بأسطورة عدن، ثم يقول: «حسنًا، أنت تذكر أنه في جنة عدن لم يكن آدم وحواء خاضعين للموت، وأن الموت الطبيعي - كما نسميه الآن - لم يكن جزءًا من الحياة وإنما هو اختراع متأخر عليها ومنفصل تمامًا منها».. ويضيف: «نعم، كان آدم وحواء معلقين بين قدرين مخيفين: انقراض النوع من الموت غير الطبيعي، والأمل في حياة أبدية، ولما لم يطيقا واحدًا منهما قررا أن يكتفيا بحياة قصيرة أمدها ألف عام، ومن ثم يعهدان بعملهما إلى زوج جديد، فاخترعا الميلاد الطبيعي والموت الطبيعي اللذين هما من الظاهر استمرار الحياة من غير أن يرزح مخلوق تحت وطأة الخلود»..

هل استلهم محفوظ شخصية الجبلاوي من «متوشولح» في العهد القديم؟ وهل ألهمته مسرحية برنارد شو أفكاره التي عبر عنها في «أولاد حارتنا»؟

■ ■ ■

كانت ثلاثينيات القرن العشرين هي سنوات «القلق الفكري» لدى نجيب محفوظ، سنوات الحيرة والبحث في الأفكار الكبرى، لم يكن حتى عام ١٩٣٦ قد حسم أمره بين الفلسفة والأدب، كما قال:

كنت أمسك بيد كتابًا في الفلسفة، وفي اليد الأخرى قصة

طويلة من قصص توفيق الحكيم أو يحيى حقي، أو طه حسين. وكانت المذاهب الفلسفية تقتحم ذهني في نفس اللحظة التي يدخل فيها أبطال القصص من الجانب الآخر. ووجدت نفسي في صراع رهيب بين الأدب والفلسفة.. صراع لا يمكن أن يتصوره إلا من عاش فيه، وكان عليَّ أن أقرر شيئًا أو أجن[٧٨].

[illegible] عان ما حسم أمره، بالتفرغ للأدب، ولكن ظلت الفلسفة [illegible] عليه الأدب. وقد نشر محفوظ في «المجلة الجديدة» عددًا من المقالات التي تكشف اهتماماته الفلسفية في تلك الفترة، ومن بينها [illegible] بعنوان: «الله في الفلسفة»[٧٩]، وقد تزامن نشرهما مع بدء [illegible] في كتابته روايته الأولى «عبث الأقدار»، التي صدرت عام ١٩٣٩.

[illegible] «عبث الأقدار» عن عراف يقرأ المستقبل للملك خوفو، ويتنبأ [illegible] أنه لن يجلس على عرش مصر أحد من ذريته، وأن من سيتولى [illegible] مصر من بعده طفل حديث عهد بالوجود هو ابن الكاهن الأكبر لمعبد «أون»، يخرج خوفو على رأس حملة ليقتل كل الأطفال حديثي الولادة المحتمل أن يهددوا عرشه، ولكنه يحمل أحد الأطفال بنفسه إلى بيت كبير الموظفين ويعهد إليه بتربيته. لا يموت

(٧٨) مجلة آخر ساعة، ١٢ ديسمبر ١٩٦٢.
(٧٩) يناير، مارس ١٩٣٦.

الطفل، بل يحيا إلى أن يصل إلى أعلى المراتب، ويوليه خوفو بنفسه عرش مصر بعد أن قتل ولي عهده وتزوج ابنته. يصبح الإنسان في رواية محفوظ لعبة في يد القدر يعبث به كيفما شاء.

يذكر محفوظ أنه استوحى «عبث الأقدار» من «أسطورة فرعونية كان يرددها المصريون»[٨٠]. وفي لقاء آخر يقول: إنه حين ترجم كتاب «مصر الفرعونية» وجد حكاية عن قارئ الغيب الذي تنبأ لخوفو بشيء ثم لم تكتمل الحكاية نظرًا لفقدان ورقة البردي التي كتبت عليها، فتخيل تكملة لها في روايته هذه»[٨١].

يقصد محفوظ بالبردية المفقودة بردية «ويستكار»[٨٢] التي كتبها الكاهن «فيتون»، أول مؤرخ مصري، وتضم خمس قصص، بعضها عن كهنة يقومون بـ«شق البحر»، والقصة الأخيرة غير المكتملة

(٨٠) جمال الغيطاني، نجيب محفوظ يتذكر.

(٨١) نبيل راغب، قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ.

(٨٢) Westcar Papyrus - وتُعرف بردية وستكار لدى الأثريين بهذا الاسم لأن المغامر البريطاني Henry Westcar هو من عثر عليها في عام ١٨٢٣ أثناء إحدى رحلاته لمصر، ولكنه لم يدون ظروف ومكان عثوره على تلك البردية. وفي عام ١٨٣٩ حصل العالم الألماني Karl Richard Lepsius على البردية من إحدى قريبات هنري وستكار، والبردية موجودة حاليًا بمتحف برلين. تكون بردية وستكار من ١٢ لفافة بردي دونت في أثناء فترة الاحتلال الهكسوسي لمصر، ولكن الأثريين يعتقدون أن النص يعود إلى فترة أقدم من عصر الاحتلال الهكسوسي، وهي تروي قصصًا تعود إلى عصر الأسرة الرابعة بالدولة القديمة. تعرف بردية وستكار أيضًا باسم «بردية المعجزات الثلاث من بلاط الملك خوفو»، وأحيانًا باسم «بردية الملك خوفو والسحرة»، وهي عبارة عن خمس قصص رواها أبناء الملك «خوفو» (من الأسرة الرابعة) في إحدى الجلسات ببلاطه الملكي، وهي قصص تروي معجزات قام بها بعض الرجال، وهي تعتبر أول مصدر يتحدث عن قدرات الإنسان الخارقة في السيطرة على عالم الطبيعة وما وراء الطبيعة، وهي ما يعرف اصطلاحًا بالمعجزة مثل شق مياه البحر وتقطيع الحيوانات إلى أشلاء وإعادتها إلى الحياة.

حمل اسم «قصة ميلاد الملوك الثلاثة»، وقد نشرها جيمس بيكي في «مصر القديمة»، الكتاب الذي ترجمه محفوظ أيضًا (١٩٣٢).
وهي يلتزم بالبردية، حيث يتنبأ العراف بأن يحكم مصر «الأطفال الثلاثة أبناء كاهن رع». وتعرف بخبرهم خادمة كانت في بيت رع، فتخرج غاضبة لتخبر الملك خوفو بأمر الأطفال، ولكن بينها تسير على شاطئ النيل ظهر تمساح فجأة وجذبها إليه واختفى بها في الماء.
يقول بيكي: «وهنا للأسف تنتهي القصة ولم نعرف هل حاول خوفو قتل الأطفال أم لا، فإن أوراق البردي مفقودة لا يعلم أحد عنها شيئًا»[٨٣].

هذه هي المادة التاريخية التي ألهمت نجيب محفوظ روايته الأولى، لكنه استخدم خياله الروائي ومصادر أخرى أيضًا لاستكمال القصة الناقصة في أصلها، من ضمن هذه المادة الرؤية الإسلامية للنبي موسى. الرواية الإسلامية تقول إنه عندما حملت أم موسى به خافت أن يقتله فرعون فأخفت حملها، ولما ولدته أوحى الله إليها أن تلقيه في التابوت وتلقيه في اليم، فقامت بذلك فطاف في اليم فالتقطته زوجة فرعون وأحبته، وأدخل البلاط الفرعوني، وطلبت زوجة فرعون اتخاذه ولدًا فأدخلته القصر وأسموه (موسى) أي: المنتشل من الماء. كما يمكن إحالة أحداث الرواية

(٨٣) جيمس بيكي، مصر القديمة، ترجمة: نجيب محفوظ، مكتبة مصر.

إلى سوفوكليس في «أوديب ملكًا» حيث تتنبأ إحدى العرافات للملك «لايوس» ملك طيبة بأنه سينجب ابنًا يقتله ويتزوج أمه. فانزعج لايوس لهذه النبوءة وهجر زوجته حتى لا ينجب. ولكنه يواقعها وهو مخمور، ويحدث الحمل غير المتوقع، ينزعج الملك لخوفه من النبوءة وانتظر حتى تمت ولادتها وأعطى الطفل لحارسه لكي يقتله، ثم ذهب به الحارس إلى الجبل وهو مقيد بالأغلال من قدميه، وبدلًا من أن يلقيه في الجبل ليموت تركه لراعٍ قابله في ذلك الجبل. ولقد أشفق الراعي على الطفل وأخذه لملك وملكة كورنثة فهما لا ينجبان وأعطاهما إياه، واعتقد لايوس أنه قد تخلص من ابنه ومن النبوءة.

تبدو التقاطعات بين رواية محفوظ والرؤية الدينية أكبر بكثير من تقاطعاتها مع أسطورة أوديب. أي أن محفوظ كان يفكر منذ فترة مبكرة في إمكانية استنطاق الموروث الديني واستغلاله والبناء عليه. ورغم أن نجيب محفوظ وصف روايته فيما بعد بأنها كانت مجرد «عبث أطفال» إلا أننا يمكن أن نرصد فيها العديد من السمات التي لازمت تجربته فيما بعد، وقام بتطويرها. وخاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن للبداية - حسب إدوارد سعيد -: «إصرار استحواذي في العقل»[٨٤]. بل ربما تشكل «عبث الأقدار» الأرضية التي انطلق

(٨٤) إدوارد سعيد: مقالات وحوارات.. تحرير محمد شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر

، وا ما بعد في رواياته التالية، وتحديدًا «أولاد حارتنا»، ليس
فقط أن كليهما يسعى إلى الاستفادة من التراث الديني للتعبير عن
أز... الإنسان المعاصر، أو أن كليهما يتعامل مع الحاضر بوصفه
ا... ولكن في الفكرة التي انشغل بها محفوظ طويلًا بتقسيم
الـ... إلى «فتوات» و«حرافيش». في «عبث الأقدار» ينقسم الناس
إلى «أسرى»؛ وهؤلاء «مساقون إلى العمل»، ومصريين «ذوو عزة
و... وجلد وإيمان تحملهم للعذاب عجيب وصبرهم على
الشدائد صارم.... يضربون الصخر بسواعد كالصواعق وعزائم
الأقدار، وهم ينشدون الأغاني ويترنمون بالأشعار». وكذلك في
«أولاد حارتنا» حيث ينقسم البشر إلى «فتوات لا يغلبون»، وفقراء
«...شون في القاذورات بين الذباب والقمل، نقنع بالفتات، ونسعى
بأجساد شبه عارية». وربما من هنا يمكن اعتبار «عبث الأقدار»
... فة أولى لـ«أولاد حارتنا»؟

وقد ظل اهتمام محفوظ بـ«السرد الديني»، حتى بعد إصدار «عبث
الأقدار».. وامتد في كل أعماله. وقد أشار في كثير من حواراته إلى
أن القصص القرآني، شكَّل لديه مفهوم الفن الروائي، وامتد هذا
التأثير في كتاباته جميعها، ولكن بشكل خاص في «أحاديث الصباح
والمساء».. يقول: «وأنا أطالع القرآن أقرأ قصصه بعناية لأنها كانت
تستهويني كفنٍّ روائي راقٍ، كُتبت كأجمل ما تكون الكتابة القصصية
الراقية، وما زالت حتى الآن أكثر القصص الإنسانية تأثيرًا في

وجداننا هي القصص القرآنية، فمن منا يستطيع أن يأتي بقصة مثل قصة مريم، أو سيدنا يوسف»[٨٥].

كما يشير إلى أن تيار الوعي الذي عرفته أوروبا على يد جيمس جويس ومارسيل بروست، كان هو الأسلوب المتبع في سرد «القصص القرآنية»، «فقصة مريم لا تبدأ في سورة مريم من بدايتها، وتتسلسل بالترتيب المنطقي لأحداثها إلى أن تنتهي لتبدأ بعدها قصة جديدة أو سورة جديدة، وإنما نجد قصة مريم موزعة على سور مثل البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة ومريم حيث يرد في كل منها جزء من قصتها أو قصة المسيح عليه السلام». وربما من هنا كان اهتمام محفوظ بكتاب سيد قطب «التصوير الفني في القرآن» الذي تناول فيه جماليات السرد القرآني. وقدم محفوظ قراءة في الكتاب عقب صدوره مباشرة. كتب محفوظ مخاطبًا قطب: «إن عصرنا - من الناحية الجمالية - عصر الموسيقى والتصوير والقصة، وهأنت ذا تبين لنا بقوة وإلهام أن كتابنا المحبوب هو الموسيقى والتصوير والقصة في أسمى ما ترقى إليه من الوحي والإبداع»[٨٦].

■ ■ ■

وعندما نتحدث عن الأصل البعيد لـ«أولاد حارتنا»، فلا ينبغي أن نتجاهل تأثير أفكار سلامة موسى على محفوظ. فالرواية في جانب

(٨٥) الأهرام، حوارات نجيب محفوظ، ٥ يونيو ٢٠٠٠.
(٨٦) الرسالة، أبريل ١٩٤٥.

، ما كانت تعبيرًا عن فكرة انشغل بها محفوظ كثيرًا، ومبكرًا؛ تحديدًا
في أوائل الثلاثينيات عندما التقى سلامة موسى لأول مرة. روى
محفوظ تفاصيل هذا اللقاء في «ثلاثيته». عندما يلتقي أحمد شوكت
الشخصية جانب من جوانب نجيب محفوظ مثله كمثل كمال
عبد الجواد في الرواية ذاتها) بعدلي كريم (الذي يبدو في الرواية
معادلًا فنيًّا لسلامة موسى) ليعمل معه في مجلته «الإنسان الجديد».
نصيحة عدلي لشوكت كانت: «أنت تدرس الأدب، ادرسه كما تشاء،
ولكن لا تنس العلم الحديث، يجب ألا تخلو مكتبتك، إلى جانب
كتب الأدب، من كتب داروين وفرويد وماركس وإنجلز، هؤلاء
العلماء. لكل عصر أنبياؤه، وأنبياء هذا العصر هم العلماء». وبصيغة
أخرى كرر رياض قلدس في «السكرية» أيضًا المعنى ذاته: «العلم
سحر البشرية ونورها ومرشدها ومعجزاتها وهو دين المستقبل».
كان سلامة موسى هو الأب الروحي لنجيب محفوظ، القارئ الأول
لأعماله الأولى، مرشده أيضًا لما ينبغي أن يقرأ، ثلاثية محفوظ تكشف
ذلك بجلاء، وأيضًا حواراته المتناثرة: «وجهني سلامة موسى إلى
شيئين مهمين هما العلم والاشتراكية ومنذ دخلا مخي لم يخرجا منه
إلى الآن». إذن بذرة الفكرة الأولى ألهمه إياها «موسى» الذي كان:
«أكبر مبشر في جيلنا بالعدالة الاجتماعية وبالعلم وبالرؤية العصرية،
وبقدر تطرفه في الدعوة للعلم والصناعة وحرية المرأة، كان في
الجانب السياسي معتدلًا فلم يجنح إلى الديكتاتورية. لذلك اعتبره

الأب الروحي للاشتراكية والديمقراطية». محفوظ نفسه احتفظ بتلك الأفكار، كان مشغولًا بالفعل بدور العلم في حياة البشر وتقدمهم. قبل أقل من شهر على نشر «أولاد حارتنا» أجرى عبد الله أحمد عبد الله حوارًا مع محفوظ في مجلة «الإذاعة». سأله عن حكمته التي التقطها من الحياة: أجاب محفوظ على الفور: «العلم أساس الملك»[٨٧]. وفي الكثير من حواراته كان يكرر دائمًا: «أتمنى أن يأتي اليوم الذي نتفق فيه جميعًا على أن العلم وحده هو ديوان العرب».

(٨٧) مجلة الإذاعة، ٢٢ أغسطس ١٩٥٩

١٣ أكتوبر ١٩٨٨

القاهرة مدينة تبعث على الملل، لا أخبار جديدة ومثيرة في ذلك
ا . م. ذان ياسر عرفات في زيارة إلى القاهرة معلنًا أن الانتفاضة
. ..رة لحين تحرير كل التراب الفلسطيني، تحديد أول نوفمبر
.. مدًا لبدء محاكمة تنظيم «ثورة مصر»[٨٨] الذي يقوده محمود
.. الدين وخالد عبد الناصر، رغم التعاطف الشعبي الواضح مع
أ .ضاء التنظيم إلا أن الصحافة الرسمية المصرية سعت إلى تصوير
أ .ضاء التنظيم كـ«إرهابيين» ومدمني مخدرات، ولكن ذلك لم يؤثر

(٨٨) تنظيم مسلح لمواجهة رجال الموساد الإسرائيلي ممن يتخفون تحت غطاء دبلوماسي، .. بدأ التنظيم عملياته عام ١٩٨٤، وتم إلقاء القبض على عدد من أفراد التنظيم في أواخر عام ١٩٨٧. حوكم نور الدين مع عشرة متهمين آخرين من بينهم خالد عبد الناصر الذي وجهت له تهم .. بل التنظيم وإمداده بالأسلحة، ولكن سرعان ما تمت تبرئته مع أربعة متهمين آخرين، في حين .حكم على نور الدين بالسجن ٢٥ عامًا.

الأب الروحي للاشتراكية والديمقراطية». محفوظ نفسه احتفظ بتلك الأفكار، كان مشغولًا بالفعل بدور العلم في حياة البشر وتقدمهم. قبل أقل من شهر على نشر «أولاد حارتنا» أجرى عبد الله أحمد عبد الله حوارًا مع محفوظ في مجلة «الإذاعة». سأله عن حكمته التي التقطها من الحياة: أجاب محفوظ على الفور: «العلم أساس الملك»[٨٧]. وفى الكثير من حواراته كان يكرر دائمًا: «أتمنى أن يأتي اليوم الذي نتفق فيه جميعًا على أن العلم وحده هو ديوان العرب».

(٨٧) مجلة الإذاعة، ٢٢ أغسطس ١٩٥٩

١٣ أكتوبر ١٩٨٨

القاهرة مدينة تبعث على الملل، لا أخبار جديدة ومثيرة في ذلك
، م، كان ياسر عرفات في زيارة إلى القاهرة معلنًا أن الانتفاضة
. ...رة لحين تحرير كل التراب الفلسطيني، تحديد أول نوفمبر
.. ..دًا لبدء محاكمة تنظيم «ثورة مصر»[٨٨] الذي يقوده محمود
.. الدين وخالد عبد الناصر، رغم التعاطف الشعبي الواضح مع
أ ..ضاء التنظيم إلا أن الصحافة الرسمية المصرية سعت إلى تصوير
أ ..ضاء التنظيم كـ«إرهابيين» ومدمني مخدرات، ولكن ذلك لم يؤثر

(٨٨) تنظيم مسلح لمواجهة رجال الموساد الإسرائيلي ممن يتخفون تحت غطاء دبلوماسي، ... بدأ التنظيم عملياته عام ١٩٨٤، وتم إلقاء القبض على عدد من أفراد التنظيم في أواخر عام ١٩٨٦. حوكم نور الدين مع عشرة متهمين آخرين من بينهم خالد عبد الناصر الذي وجهت له تهم ...بل التنظيم وإمداده بالأسلحة، ولكن سرعان ما تمت تبرئته مع أربعة متهمين آخرين، في حين ..حكم على نور الدين بالسجن ٢٥ عامًا.

على حجم التعاطف الهائل الذي بدا واضحًا خلال المحاكمة.
وزير الداخلية زكي بدر يعلن في ندوة بالغرفة التجارية الألمانية: لن نتخلى عن سيادة القانون والديمقراطية. قبل أيام تم افتتاح دار الأوبرا الجديدة، ومقالات الصحف تتناول الحدث مع نداء لفاروق حسني وزير الثقافة أن يعيد النظر في أسعار التذاكر التي تتراوح بين خمسة جنيهات وثلاثين جنيهًا «حتى تجتذب الجمهور لمتابعة العروض الرفيعة، وترتقي بوعيهم وتعيدهم إلى تقاليد الحياة الفنية»، سعر الدولار ٢٣١ قرشًا (سينشغل الأدباء المصريون بعد ساعات بمعرفة سعره الرسمي).
الصفحات الأدبية للجرائد تتحدث عن مواصلة وفد من تلفزيون بافاريا برئاسة المستشرقة الألمانية ادمونت هيللر رئيسة تحرير مجلة «فكر وفن»، تصوير فيلم عن نجيب محفوظ: حياته اليومية، والأماكن التي عاش فيها، الفيلم كتبه الأديب التونسي حسونة المصباحي.
على المسرح القومي، يواصل يحيى الفخراني عرض مسرحية «البهلوان» ليوسف إدريس، أما فاروق الفيشاوي فيقدم مسرحية «شباب امرأة» وتظهر معه للمرة الأولى فيفي عبده كممثلة مسرحية، أما دور العرض السينمائي فتعرض فيلمي «اغتيال مدرسة»، و«ملف سامية شعراوي».

■ ■ ■

في الواحدة تمامًا خرج سكرتير الأكاديمية السويدية ستوري آلن

...ا فوز الأديب المصري نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب،
... ل صمت القاهرة إلى صخب وفرحة بالإنجاز.
... كان نائمًا، بعد أن عاد من صحيفة «الأهرام» مصطحبًا معه
... أخضر» نصحه به صديقه المخرج توفيق صالح، باعتباره
... المرض السكري، تناول محفوظ الغداء، ودخل لاختلاس
... اليومية المعتادة، ثم استقبلت زوجته اتصالًا من محمد
... الصحفي بالأهرام، زافًا إليها نبأ فوز محفوظ بجائزة نوبل.
... لت إليه توقظه صائحة بالخبر اليقين، وبينما ينهض علق آسفًا:
... نهاية أحلام بقي».. لكنها أخبرته أن الأمر ليس مزحة، قام ليرد
بالإنجليزية: ?Who is speaking.. لكن الزوجة نبهته أن المتحدث
... ي... لم يصدق محفوظ أيضًا «اتصل بي شخص تعودت منه
... اح دائمًا، فلم أصدق الخبر منه، وقلت له دعني أنام»[٨٩]!
... فجأة امتلأت صالة المنزل بالمراسلين الصحفيين، وفجأة أيضًا
... سل السفير السويدي بالقاهرة، وعندها انشغل ذهن محفوظ
... حكاية البصل الأخضر، وظل يتحدث إلى السفير واضعًا يده على
... طوال الوقت. ولكن، هل كانت نوبل أحد أحلام محفوظ؟
... هل خطط لها؟

■ ■ ■

(٨٩) رجاء النقاش، نجيب محفوظ: صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته.

على مدى ثلاثين عامًا، كان نجيب محفوظ يستمع إلى هذا السؤال، من صحفيين، ونقاد، وأصدقاء في جلساته المختلفة. هل تحلم بجائزة نوبل؟

وكانت إجابته واحدة في كل مرة، لم تتغير: لا!

في عام ١٩٥٨ سألته مجلة «الكواكب»: هل تعتقد أن أديبًا من عندنا سيحصل ذات يوم على الجائزة؟

أجاب محفوظ: قد يحدث يومًا ما ولكن أدبنا اليوم لم يصل إلى المستوى الذي يستحق عليه «جائزة نوبل»، فنحن لم نصل بعد إلى هذه الدرجة العالمية[٩٠].

وفي عام ١٩٦٩ طلب منه الروائي عباس الأسواني حوارًا لـ«روز اليوسف» يتخلى فيه عن دبلوماسيته المعهودة، وأن يتحدث بصراحة، وافق محفوظ مداعبًا الأسواني: «ربنا يستر»!

تطرق الحوار إلى الأدب الروسي، فتحدث محفوظ عن أهم الأدباء الذين تأثر بهم، واعتبر بوريس باسترناك (١٨٩٠-١٩٦٠): «روائي ضخم، لكن تنقصه الرؤية الفنية، ولا يستحق جائزة نوبل»!

سأله الأسواني: هل تطمح أنت إلى نيل الجائزة؟

- لا.

- لماذا؟

(٩٠) الكواكب، ٢٩ يوليو ١٩٥٨.

لا أ... أن ما قدمته يكون إضافة إلى التراث الإنساني.
- ...ل... أن طه حسين مرشح لهذه الجائزة.. فهل أضاف طه حسين ال... ات الإنساني ما يستحق عليه الجائزة؟
- لا، الأديب الوحيد الذي يمكن أن يرشح لهذه الجائزة هو توفيق الحكيم[91].

وفي أواخر عام ١٩٨٧، سأله الناقد غالي شكري في حوار بينهما على «مقهى «علي بابا» بميدان التحرير:
- لماذا تهاجم جائزة نوبل؟ أنت تغار؟
- أغار؟!
- هل تنكر عظمة الغالبية ممن حظوا بها؟
- لا أنكر شيئًا، ولكني أنكر على العرب حلمهم بها.
- لم تحلم بها أبدًا؟
- لا والله العظيم.
- بماذا تحلم إذن؟
- ايه حكايتك «عالصبح» اشرب القهوة طالما أنك ما زلت تحلم بأنني أحلم[92]!

وقبل أيام قليلة من إعلان فوزه بالجائزة، سأله الكاتب الصحفي أسعد حيدر في حوار لمجلة «المستقبل» السؤال ذاته.. وأجاب

---

(٩١) روز اليوسف، مايو ١٩٦٩.

(٩٢) غالي شكري، من الجمالية إلى نوبل، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩١.

محفوظ مستفيضًا: «عندما كانت الجائزة تُمنح للتقليديين يعني العمالقة، مثل برنارد شو، وتوماس مان، لم تكن الجائزة من أحلامي أبدًا.. بعد ذلك انتهى عصر العمالقة يعني زي جان بول سارتر وألبير كامي، بعد هؤلاء أنت عارف أصبحت الجائزة تُمنح للعاديين والعاديين جدًّا، لذلك لم أعد أفكر بها، ولهذا أيضًا ما فيش عندي مرارة، وأنا لا أتصور أنني سآخذها، دي جائزة مش بتاعتنا، أنا لا أطمع بها، وأنا ماليش علاقة بها». في الحوار ذاته حكى محفوظ أنه علم أن سيدة سويدية جاءت إلى مصر منذ أربع سنوات (١٩٨٤) بعد أن ذهبت إلى سوريا ولبنان وتونس والمغرب لكي تعرف الأدباء الذين يعيشون في الشرق، وتسأل عن الأدباء الذين يستحقون جائزة نوبل، قال ساخرًا: « لقد قضت في كل المدن العربية ستة أشهر.. وهي في حاجة إلى ستين عامًا لكي تعرف هذا الأدب لا ستة أشهر، كما أنها لا تعرف العربية».

■ ■ ■

رغم نفي محفوظ الدائم بأن الأدب العربي لا يرقى إلى مستوى العالمية، إلا أن كثيرًا من النقاد وضعوا مبكرًا أدبه في مكانة متميزة. فعندما صدرت رواية «زقاق المدق» كتب محمد فهمي ناقد مجلة«المقتطف»:

إنني أقولها صريحة، وأنا لا تربطني صلة شخصية بهذا الأديب وأعلن اليوم، وستؤمن على قولي الأجيال القادمة.

لقد خلق لنا أدبًا قصصيًّا في مستوى الأدب الروسي الذي استرعى أنظار العالم بفضل ديستوفسكي وتشيكوف وترجنيف، وسيقف أدب القصة عندنا بين الآداب العالمية سامقًا يفيض قوة وحياة ونبضًا[٩٣].

ن اعتبر سيد قطب أن أعمال محفوظ:

هي نقطة البدء الحقيقية في إبداع رواية قصصية عربية أصيلة، فلأول مرة يبدو الطعم المحلي والعطر القومي في عمل فني له صفة إنسانية، في الوقت الذي لا يهبط مستواه الفني عن المتوسط من الناحية المطلقة».. ويضيف قطب: «نملك اليوم أن نقول: إن عندنا قصة طويلة، أي رواية. كما نملك أن نقول إننا نساهم في تزويد المائدة العالمية في هذا الفن بلون خاص، فيه الطابع الإنساني العام، ولكن تفوح منه النكهة المحلية، وهذا ما كان ينقصنا إلى ما قبل أعوام[٩٤].

أما طه حسين فقد اعتبر أن محفوظ «أتاح للقصة أن تبلغ من الإتقان . الروعة ومن العمق والدقة ومن التأثير الذي يشبه السحر ما لم بتحه لها كاتب مصري قبله».. واعتبر أن رواية «بين القصرين»: «تثبت للموازنة مع ما شئت من كُتَّاب القصص العالميين في أي

(٩٣) المقتطف، ديسمبر ١٩٤٧.

(٩٤) مجلة الفكر الجديد، ١٢ فبراير ١٩٤٨.

لغة من اللغات التي يقرأها الناس»[٩٥]. وفي رحلته إلى المغرب عام ١٩٥٨ ألقى طه حسين محاضرتين عن «مكانة الأدب العربي بين الآداب العالمية»، والثانية بعنوان: «حول الأدب العربي في مصر قديمًا وحديثًا».. قدم فيهما العميد إلى قراء المغرب العربي نجيب محفوظ:

إذا أتيح لكم أن تقرأوا ما يُنشر في مصر من القصص الآن، فإني أحب أن تقرأوا ما يكتبه كاتب مصري من الكتاب الشبان الذين تخرجوا في جامعة القاهرة، وهو نجيب محفوظ، كتب طائفة من القصص أعتبرها أنا أروع ما أنتج في الأدب المصري الحديث. كتب قصصًا وهو يتحرى حين يكتب أن يختار شارعًا من شوارع القاهرة أو حيًّا من أحيائها ويختار في هذا الحي أسرة من الأسر، ويكتب تاريخ الأسرة، وبكتابة تاريخ الأسرة يصور تاريخ الحي، ويصور تاريخ القاهرة، ويصور تاريخ الأحداث السياسية التي كانت تحدث في القاهرة، وإذا أتيح لكم أن تقرأوا هذه السلسلة التي كتبها باسم «قصر الشوق»، وباسم «بين القصرين»، و«السكرية» فسترون قصصًا أصيلة بأدق معاني الكلمة[٩٦].

■ ■ ■

(٩٥) الجمهورية، «بين القصرين: قصة رائعة للأستاذ نجيب محفوظ»، ٦ فبراير ١٩٥٧، وقد أعيد نشر المقالة في كتاب «من أدبنا المعاصر»، الشركة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٨.

(٩٦) نشرت المحاضرتان في جريدة الأهرام تحت عنوان «الأهرام ينشر محاضرات مجهولة لـ «طه حسين» بالمغرب، ٦ يوليو ٢٠١٦.

... أعلن فوز محفوظ بنوبل قال في أكثر من حوار إن العقاد هو
... تنبأ بحصوله على الجائزة في برنامج تلفزيوني في الستينيات،
... كان يعلق على حصول الكاتب الأمريكي جون شتاينبك على
الجائزة، فقال العقاد: «إن عندنا كاتبًا يستحق الحصول على نوبل هو
... محفوظ». ثم إن العقاد كتب مقالًا طويلًا عن جون شتاينبك
الحاصل على نوبل في ذلك العام، جاء فيه:

الآن يحق لنا أن نقول إذا كانت المسألة مسألة بحث بعد مجهود، فلماذا يقف هذا البحث دون البلاد العربية من أمم العالمين، فلا تهتدي اللجنة، ولا تريد أن تهتدي إلى واحد منهم، وهم على هذه الطبقة غير قليلين.. إنني أذكر منهم أربعة من كُتَّاب القصص الطوال والمسرحيات، وهي مجال شتاينبك الفائز بجائزة نوبل في ذلك العام. يفضلونه في بعض مزاياه ولا يقصرون عنه في واحدة من مزاياه وهم: توفيق الحكيم ومحمود تيمور، نجيب محفوظ، ميخائيل نعيمة. ونجيب محفوظ يصارعه وقد يفوقه في تصوير شخصياته من أولاد البلد والسذج والبدائيين العصريين[97].

لم يكن كلام محفوظ دقيقًا في شأن أن العقاد كان أول من رشحه

---

(٩٧) الأخبار، ٣١ أكتوبر ١٩٦٢.

للجائزة، إذ أسقط محفوظ من ذاكرته لويس عوض الذي سبق العقاد في التنبؤ له بنوبل، وتحديدًا في الحفل الذي أقامه محمد حسنين هيكل في الأهرام احتفالًا بعيد ميلاد محفوظ الخمسين[٩٨]، وحضره: أم كلثوم، صلاح جاهين، كمال الملاخ، حسين فوزي، وفي هذا الحفل خطب فتحي رضوان مشيدًا بنجيب محفوظ، ثم تكلم لويس عوض مخاطبًا محفوظ: «أتوقع حصولك على جائزة نوبل في السنوات العشر المقبلة».. ربما سقط لويس عوض من ذاكرة محفوظ عمدًا، فهو حسب وصف محفوظ له: «يتفنن عندما ينقد، وينقد عندما يتفنن.. إنه ناقد خيالي وفي نفسه أشياء تؤثر على نقده»[٩٩].

■ ■ ■

لم يلتفت العرب إلى جائزة نوبل للآداب وقت إطلاقها عام ١٩٠١، كان التصور أنها جائزة للأوروبيين فقط. ودعَّم هذا التصور أن لجنة الجائزة منحتها في دوراتها الأولى لكتاب من أوروبا حصرًا. كانت بداية الالتفات لها عربيًّا عندما منحت عام ١٩١٣ للشاعر الهندي طاغور، ومن وقتها بدأ طموح العرب نحو الجائزة التي توقفت بسبب الحرب العالمية بين عامي ١٩١٤، ١٩١٨.
في تلك الأيام لم يكن هناك أبرز من أمير الشعراء أحمد شوقي الذي كان قد عاد من منفاه الأندلسي عام ١٩١٩. وبدأت حملة دعم

(٩٨) ديسمبر، ١٩٦١.
(٩٩) روز اليوسف، مايو ١٩٦٩.

لترشيحه للجائزة. الشرارة جاءت في هيئة رسالة بعث بها قارئ «معجب بشوقي» - كما عرف نفسه - ونشرتها مجلة «الكشكول» تحت عنوان «شعر شوقي وجائزة نوبل» وأعادت نشرها مجلة «سركيس» في ديسمبر ١٩٢١، بدأ القارئ المجهول رسالته بسؤال: «أليس في الشرق من يستحق هذه الجائزة؟ وإذا كان بيننا أحد، أليس بيننا من يعرف الغربيين ببعض نوابغنا في الآداب؟ إن لشوقي لك شعرًا يجب أن يقرأه الغربيون. ولا نغالي إذا طلبنا عرضه على لجنة جائزة نوبل. فإن نال شاعرنا الجائزة كان فوزه فوزًا لنا ومفخرة لأدباء الشرق في هذا العصر. فمن يقوم بالمهمة؟».

عندما زار طاغور مصر في ديسمبر ١٩٢٦ تجدد الجدل مرة أخرى، وكان مدهشًا أن يقف طه حسين موقفًا سلبيًا، معتبرًا أن طاغور «شاعر إنساني (...) يكبره الغرب الحديث كما يكبره الشرق القديم».. بينما شعر شوقي وحافظ أو البارودي ومطران شعر بلا «فلسفة».. مضيفًا في رسالة لمحمد حسين هيكل: «طاغور لا يزدري العقل ولا يسلم نفسه للخيال وحده، وأن أصحابنا لا يلتمسون شعرهم في العالم الحقيقي المعقول، وإنما يلتمسونه في هذا الدخان الذي يرسلونه من أفواههم حين يدخنون السجائر أو الشيشة»![100]

ظل السؤال حول استحقاق شوقي للجائزة حتى بعد رحيله، فيسأل

(١٠٠) نشر نص الرسالة في كتاب «شعر شوقي وحافظ».

قارئ من العراق مجلة «الهلال»[١٠١]: ألم يكن شوقي شاعرًا عبقريًّا؟ ألم يكن أمير الشعراء والبيان؟ ألم يكن الفيلسوف؟ لماذا إذن حُرم من جائزة نوبل؟

ويجيب محرر «بين الهلال وقرائه»: «عندي لذلك أسباب كثيرة: أولها أن شعر شوقي لم يترجم إلى لغة أوروبية يفهمها أولو الأمر في شؤون هذه الجائزة، فهم لم يصل لهم به علم».

استمر الجدل حول الجائزة واستحقاق المصريين لها، فطرحت مجلة «كل شيء والدنيا» في يناير ١٩٣٠ سؤالًا على قرائها: من الأديب المصري الأحق بجائزة نوبل في الأدب؟ وخصصت المجلة مكافأة عشرة جنيهات للإجابة الصحيحة.. ولكن أيًّا من القراء لم يرسل أي إجابات في الأعداد التالية للمجلة.

وفي أبريل ١٩٣٢، نشرت مجلة الهلال تحقيقًا بعنوان: هل من بين أدبائنا من يستحق جائزة نوبل؟ تضمن آراء د. محمد حسين هيكل، وأنطوان الجميل رئيس تحرير الأهرام، وإبراهيم عبد القادر المازني، وخليل مطران..

قال مطران: «نحن لم نندمج في الأسرة الدولية إلا منذ سنوات، وليس لنا ممثل في عاصمة السويد، ولا أظن أنه حان الوقت الذي تبادر فيه حكومتنا إلى الاهتمام بتوجيه نظر السويد إلى أدبنا العربي»

---

(١٠١) مارس، ١٩٤٩.

وأضاف: «لا يفوتني في هذا المقام أن أقرر حقيقة مؤلمة، هي أن الأدب في بلادنا منسي لا يحفل به جمهور ولا تُعنى به حكومة.. وأن عوامل الهدم والتعويق للإنتاج الأدبي كثيرة ولا بد من جعل حياة الأديب والشاعر رخية منتجة ثم بعد ذلك نفكر في إحراز نوبل وهي ليست الغاية التي نجعلها مثلنا الأعلى».

وقال محمد حسين هيكل ساخرًا: «لو أنني اتخذت الأدب حرفة ما وجدت ثمن الخبز، تسألني عن جائزة نوبل.. اسأل رجال التعليم في المدارس والجامعات، فعليهم تقع المسؤولية الأولى في كساد صناعة الأدب في هذه البلاد».

وقال أنطوان الجميل: ليس استحالة وجود هذا الأديب أو الشاعر الذي يحرز نوبل ولكن أغلب الظن أن الشوط الأساسي لإحراز نوبل أن يكون الكاتب أو الشاعر فذًّا عن الأقدمين والمحدثين، إنسانيًّا في نزعته. وأرجع السبب الأساسي في عدم حصول جيله على نوبل إلى الظروف والبيئة وحداثة العهد بالخلق والابتكار واعتبر أن حصول مصري على نوبل مدخرًا في الغيب المجهول.

أما المازني فقال ساخرًا أيضًا: «وماذا عسى تكون القيمة الأدبية لجائزة نوبل؟ أحسبها ليست إجازة تدخل الأديب أو الشاعر في زمرة الخالدين، وتفسح له قبرًا في «البانثيون» المنتظر؟». وأضاف: «التقدير الحقيقي للأديب أو الشاعر لا يكون صحيحًا قبل مضي خمسين عامًا على وفاته يوم تموت الأحقاد ويبقى العمل الفني بين

أيدي نقاد منزهين عن الغرض، فقلما يحسن المعاصرون تقدير المعاصرين، لذلك تُعطى نوبل لورثة الأديب بعد وفاته».

وتحت عنوان: «مستقبل مصر بعد ٢٠ عامًا» نشرت مجلة «الهلال»[١٠٢] استطلاعًا للرأي، اختارت المجلة خليل مطران شاعر القطرين ليتحدث عن مستقبل الأدب العربي.. وسأله المحرر: لماذا لم يظفر أديب مصري بجائزة نوبل؟ أجاب مطران: «سيكون لنا بعد نصف قرن من الآن ما نصبو إليه الآن، كُتاب عالميون، وكُتاب ينتشر لهم صيت في كل مكان، وتترجم منتجاتهم البديعة إلى اللغات كافة. لا أتكلم على سبيل الأمنية، أنا أستنتج محترسًا ناظرًا إلى الغاية من المستهل. فلا شك في أن الأحوال المعنوية والظروف المادية ستتطور، ولا شك في أن الأديب سيدنو فنه من الكمال المنشود، فقد أرى أن الرخاء واليسر ضروريان لتقدم الفنون الجميلة».

ويضيف مطران: «إن الرواية المسرحية والقصة - صغيرة أو مستفيضة - ستزدهر على طراز مستحدث. سيكون الأديب في سنة ١٩٨٢ في رغد من العيش، الكتاب الواحد أو الرواية الواحدة تدر على صاحبها آلاف الجنيهات، ويومئذ تكثر شركات النشر والطباعة وترتقي الصحافة وتباع الجرائد بالملايين. ثم لا يبتعد أن توجد مدارس في الأدب والنقد. فليطمئن أهل الصنعتين: النثر والشعر،

(١٠٢) نوفمبر، ١٩٣٢.

الأن المستقبل لن يبخسهم حقهم».
ا: المجلة الجديدة التي كان يصدرها سلامة موسى فقد «تساءلت
في أغسطس ١٩٣٩ عن أسباب عدم نيل مصري لجائزة نوبل في أي
من فروعها العلوم والآداب أو السلام؛ في حين أن الهند نالتها مرتين
وحازت عليها أمم صغيرة مثل دنمرك وهولندا وسويسره ونمسا
وبلجيكا، ونالتها عدد من السيدات. أما الأسباب التي حرمتنا من
شرف نوال هذه الجائزة فندعها لفطنة القارئ المصري، ونرجو أن
تُمنح أحد المصريين يومًا لنيلها».
وفي مارس ١٩٥٨ أجرت مجلة «الرسالة الجديدة» استفتاء مع عدد
من الأدباء المصريين عن توقعاتهم لما ينبغي أن يقوم به الاتحاد العام
للأدباء العرب بمناسبة عقد مؤتمره الثالث في القاهرة.. وشارك
نجيب محفوظ بكلمة قصيرة دعا فيها الاتحاد إلى تأسيس جائزة
للكُتاب العرب على نمط جائزة نوبل.
وقد اعتبر يحيى حقي أن الأدب العربي لا يصلح للترجمة والنقل
إلى الثقافة الدولية بسبب عيبين فيه «الميوعة والسطحية»، داعيًا
في محاضرته التي ألقاها في جامعة دمشق إلى «حاجتنا إلى أسلوب
جديد»[١٠٣] يكون بسيطًا بل شديد البساطة، فعنده أن عازف العود
الماهر هو الذي لا يُسمعك خبطة الريشة، كذلك الكاتب البارع

(١٠٣) يحيى حقي، خطوات في النقد.

يجب ألا يُسمع قارئه صرير القلم.

ومن جانبه انشغل عباس العقاد بالجائزة وتاريخها، وكتب كتابًا كاملًا عنها بعنوان: «جوائز الأدب العالمية»[104]، وقد «برر في الكتب اهتمامه بالجائزة لأنه أكبر منها، إذ إنه رفض أن يكون من بين مرشحيها أكثر من مرة».

■ ■ ■

كان عميد الأدب العربي طه حسين أول من طُرح رسميًّا للجائزة، وحسب وثائق الجائزة التي تظل سرية لمدة ٥٠ عامًا. ترشح العميد لأول مرة عام ١٩٤٩. وقد رشحه للجائزة أحمد لطفي السيد الذي كان وقتها رئيسًا لمجمع اللغة العربية، وعضوًا في مجلس الشيوخ، كما تقول وثائق الجائزة، ودعم ترشيحه الكاتب الفرنسي الحاصل على نوبل أندريه جيد، والمستشرق ماسينيون.. وقد نشرت مجلة المصور وقتها حيثيات الترشيح: «باعتبار أن مجموعة مؤلفاته ككاتب روائي واجتماعي وكأديب مدقق يجعله أهلًا للحصول على هذه الجائزة».. ولكن ذهبت الجائزة إلى الروائي الأمريكي الشهير وليم فوكنر والذي تسلمها بعد عام في مفارقة مدهشة، وقد ذكر موقع جائزة نوبل أن شروط الجائزة لم تنطبق على المرشحين في ذلك العام، فتم منحها لفوكنر على أن يتسلمها في العام الذي يليه!

(١٠٤) عباس محمود العقاد، جوائز الأدب العالمية، دار القلم، مارس ١٩٦٤.

ـ... وثائق الجائزة المفرج عنها، فقد استمر طه حسين على قوائم
ال. شيحات على مدى سنوات عديدة، في عام ١٩٥٠ رشحه مجلس
ـامعة فؤاد الأول (القاهرة)، كما رشحته عدة مؤسسات أجنبية
ءامي ١٩٥١، ١٩٥٢.. ولكن اختفى اسمه من الترشيحات بعد
ث.رة يوليو ليظهر مرة أخرى عام ١٩٦١ بترشيح ثلاث جهات من
...ها محمد أحمد خلف الله (كان وقتها عضو مجمع اللغة العربية،
، نائبًا لرئيس جامعة عين شمس)، وظل العميد مرشحًا حتى عام
١٩٦٤ بترشيح أمريكي (دي وايت والاس صاحب وناشر مجلات
الريدرز دايجست الأمريكية الشهيرة وقتها).
في عام ١٩٦٦ تقاسم الجائزة الأديب الإسرائيلي شموئيل يوسف
عجنون، بعد ضغوط من مؤسسات صهيونية كثيرة في الغرب،
مع السويدية نيللي زاكس الحاصلة على الجنسية الإسرائيلية أيضًا
و صاحبة كتاب «اليهود والتاريخ اليهودي». في ذلك العام كان
خيار لجنة الجائزة أن يتم تقاسمها مع أديب عربي، ولكن - حسب
تصريحات نشرت وقتها في مجلة روز اليوسف لمراسل المجلة من
جنيف - لم تجد المؤسسة مرشحًا عربيًّا للجائزة[١٠٥]، إذ لم ترسل
أي مؤسسة عربية اسم طه حسين الذي كان قد وصل من قبل إلى
القوائم النهائية. وكان المجلس الأعلى للآداب والفنون في مصر قد

(١٠٥) إبراهيم عزت، روزاليوسف، ٢٦ يونيو ١٩٦٦.

أرسل اسمي توفيق الحكيم ونجيب محفوظ، ولكن أيًا منهما لم يكن مدعومًا ومعروفًا بقوة في الغرب، فلم يصلا إلى القوائم النهائية، كما أن ترشيحات المؤسسات الرسمية ليس معترفًا بها. وعندما لم تجد لجنة نوبل مرشحًا عربيًا تم تقاسم الجائزة بين أديبين «صهيونيين».

في تلك الأيام كان عبد الناصر يحلم بجائزة نوبل عربية، وكان أكبر داعم لحصول توفيق الحكيم عليها باعتباره «مؤسس المسرح المصري الحديث»، لذا أرسله لباريس عام ١٩٥٩ مندوبًا لمصر في اليونسكو، حتى يكون قريبًا من دوائر الترشيحات، باعتبار باريس، ليست فقط مدينة الفن، وإنما أيضًا «فاترينة العالم»[١٠٦]، حسب وصف الحكيم. ولكن كما قيل وقتها إن بخل الحكيم منعه من التواصل في أي مؤسسة، أو شخص، وفضل أن يعيش عامًا كاملًا منعزلًا في برجه العاجي[١٠٧]. عاد الحكيم بعد مرور العام ولم يحقق حلم عبد الناصر. راهنت المؤسسة الرسمية على الحكيم، وأضافت إليه نجيب محفوظ عندما فقدت الأمل في الحكيم، ليصبح اسم محفوظ مرشحًا أوليًا منذ عام ١٩٦٦. وقد حكى المخرج الراحل أحمد بدرخان في العدد الخاص من مجلة الهلال المخصص لنجيب محفوظ (فبراير ١٩٧١) أنه كان مشاركًا في مهرجان برلين السينمائي عندما دخل عليه مجموعة من الشباب الألماني، وسألوه: هل تعرف

---

(١٠٦) عصفور من الشرق.

(١٠٧) جمال الغيطاني، أخبار الأدب، ٢ ديسمبر ٢٠٠١.

نجيب محفوظ؟ أجاب: نعم إنه رئيسي في العمل. قال أحدهم: «أنتم تعرفون نجيب محفوظ هذه حقيقة، ولكن لا تعرفون أدب نجيب محفوظ وعمقه. وهذه حقيقة أيضًا، لو كنتم تعرفونه لأنفقتم عليه ملايين الجنيهات ليحصل على جائزة نوبل».

■ ■ ■

قبل وقت قصير من إعلان فوز محفوظ بالجائزة، كان في الجو الأدبي في أوروبا- خاصة في السويد- ما يشير إلى اقترابه من الفوز بها: توقعات أو تكهنات أو حتى مجرد أمنيات. في مارس ١٩٨٨ أجرت مجلة «مجازين ليترير» الفرنسية الشهيرة حوارًا مع المستعرب الفرنسي أندريه ميكيل.. أشار فيه إلى «إنه دائمًا كان يسأل نفسه لماذا لم يحصل أي أديب عربي على جائزة نوبل؟ وأنه يعتقد أن نجيب محفوظ هو هذا الأديب العربي المنتظر حصوله على هذه الجائزة». وفي العام ذاته خصصت مجلة «آرتس» السويدية عددًا للأدب العربي، والمجلة يرأس تحريرها أوستن شوستراند أحد أعضاء أكاديمية نوبل، وهو - حسب وصف صبري حافظ له - أكثر أعضاء الأكاديمية تعاطفًا مع العرب، وكان ينادي بإعطاء الجائزة لأديب عربي. وفي أبريل من نفس العام نشرت مجلة «فولكيت» (البلد) السويدية، ملفًا خاصًا عن محفوظ، ترجمت فيه قصته «تحت المظلة»، ومقالًا مطولًا عن تجربته كتبه الكاتب السويدي بير جارتون، الذي ختم مقاله: «نجيب محفوظ واحد من أبرز قصاصي العالم العربي، وفق ما اتفق

عليه الخبراء بالإجماع، ولا شك في كونه مرشحًا جادًّا للفوز بجائزة نوبل». قبل أيام من إعلان الجائزة كان وفد من التلفزيون الألماني في القاهرة منشغلًا باستكمال تصوير فيلم عن حياة محفوظ.. وذكر عدد من الجرائد العالمية اسمه من ضمن الأسماء المطروحة في بورصة الترشيحات.

بعد إعلان الجائزة انقلبت حياة نجيب محفوظ. لم تعد كما كانت من قبل؛ كان عليه أن يصبح موظفًا «لدى نوبل» كما قال ساخرًا ذات مرة، وكان عليه أن يتصدى لمواجهة حملات هجوم منظمة ضده، من أنظمة عربية، ومن بعض أبناء جيله من الكتاب، ومن جماعات الإسلام السياسي!

■ ■ ■

انهالت الاتهامات التي وجهها خصوم نجيب محفوظ له، كان تأييده لمعاهدة «كامب ديفيد» (١٩٧٨) أول الاتهامات، ولم يكن موقف محفوظ استثنائيًّا من المعاهدة، بل إن غالبية أبناء الجيل الليبرالي الذي نشأ وتكون في ظل ثورة ١٩١٩، وانتموا إلى أفكار حزب الوفد لم يكن لديهم مشكلة في التفاوض مع العدو، بل إن الفكرة التي استمد منها حزب الوفد اسمه كانت تشكيل وفد للتفاوض مع المحتل، كوسيلة لإقناعه بالجلاء ومنح مصر استقلالها. يضاف إلى ذلك أيضًا، نشأة محفوظ الفلسفية المتشككة، والباحثة عن اليقين من منطلق إنساني غير عنصري. من هنا يمكن أن يكون مبررًا موقف

... ظ من تأييد كامب ديفيد، فموقفه لم يكن نتاجًا نفاقًا للسلطة، أو ... عن جائزة دولية. وموقفه هذا كان معلنا بصورة أو أخرى منذ ...ايات الستينيات.

... يوليو عام ١٩٦٨ كتب نجيب محفوظ مقالًا في مجلة الكاتب ...عنوان «الدولة العصرية»؛ تحدث فيه باختصار عن المقومات التي ...ونها لا تتحقق الدولة العصرية، على المستوى السياسي رأى محفوظ أنه: «يجب أن تتوافر مقدمة سياسية أساسية تتلخص في ...دمة حقوق الإنسان؛ تلك الحقوق تبدأ بالحرية: حرية الفرد ... اختيار الحاكم ونظام الحكم، وحرية إبداء الرأي والعقيدة، ... حرية التملك»، وعلى المستوى الاجتماعي رأى محفوظ أن الدولة العصرية: «يجب أن تخلو من أي تعصب لأسباب دينية أو عقائدية»، ... ثالثًا: «ينبغي أن تسود روح العلم لا العلم وحده في كل نشاط يتصل بحياة الفرد أو الأسرة أو المجتمع. ولتحقيق كل هذا هناك ضمان أول وأخير، هو الدستور الذي يضعه الشعب بقوته الذاتية».

وفي مؤتمر عقده ثروت عكاشة لقيادات وزارة الثقافة تحت عنوان «حوار مفتوح للخروج من النكسة»، قال محفوظ: «الطريق الوحيد للخروج من الأزمة هو العودة للديمقراطية، والحوار، وإطلاق حرية تعدد الأحزاب والآراء، وأن نرضى بالحزب الذي يصل إلى السلطة عن طريق انتخابات حرة نزيهة حتى لو تفاوض مع إسرائيل».

كان الكلام جريئًا، بل صادمًا وقتها، ولكن صدمة الهزيمة تجاوزت الإحساس بالخوف الشخصي. لذا ترك النظام وقتها هوامش للتنفيس لم يكن يسمح بها من قبل. كرر نجيب محفوظ كلامه بعد رحيل عبد الناصر، تحديدًا عام ١٩٧١ في لقاء مع القذافي ضم مجموعة من المثقفين دعا إليه محمد حسنين هيكل في صحيفة «الأهرام»، إذ قال محفوظ: «هل في إمكاننا أن نحارب إسرائيل؟»، أجاب أحمد عباس صالح: «ليس بوسعنا الحرب»، فعلق محفوظ: «بما أننا لا نستطيع الحرب فلا بد أن نسلك الطريق الآخر، طريق التفاوض»[١٠٨].

هذا الموقف من «كامب ديفيد» جعله شبه ممنوع في أغلب الدول العربية؛ منعت الطبعات المصرية من رواياته، بينما كانت الطبعات البيروتية تمر بسلام، وكانت أفلامه كذلك شبه ممنوعة، ما جعل الكثير من المنتجين السينمائيين يطلبون منه أن يكتب لهم سيناريوهات أفلام بشرط ألا يضع اسمه عليها حتى يسمح بعرضها هناك. كانت سنوات كبيسة، أنجز فيها محفوظ روايته الأشهر «الحرافيش»، وتعرض لحملة هجوم من الجميع تقريبًا. كان المهاجمون يتهمونه دائمًا بأنه اتخذ هذا الموقف المؤيد للاتفاقية من أجل جائزة نوبل، وهو ما كان ينفيه دائمًا، حتى إنه هاجم الجائزة في

(١٠٨) رجاء النقاش، نجيب محفوظ: صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه.

...له مع «المصور»؛ إذ قال: «جائزة نوبل تعبر عن قيم الحضارة
الغربية، ويوم أن مُنحت لمنشق روسي، لم تكن تكيد لروسيا، وإنَّما
... أن الشيوعية هدم لقيم الحضارة الغربية الأصلية، وعندما
... أحد الكتاب منها موقفًا واحتج عليها شجعته لأنها تشجع
...»، وقال في صحيفة الشرق الأوسط (١٩٨٧): «أنا لم أفكر أبدًا
في جائزة نوبل، وأعجب كيف أننا نشغل بالنا ليل نهار بهذه الجائزة،
... فأننا لم نكتب أدبًا، أو لن يكون لنا أدب إذا لم نفز بها، وهو أمر
محجل يعكس عدم الثقة بالنفس، والنظر إلى تراثنا الأدبي الهائل على
أنه قليل القيمة، مع أنه ليس كذلك أبدًا، لا ينبغي أن نشغل أنفسنا
بتلك الجائزة أفرادًا ومجتمعًا، فهي ليست جوازًا للمرور إلى عالمية
الأدب وليست مقياسًا للأدب الجيد».

وردًا على سؤال للصحفي السيد الشوربجي - ضمن حوار أجراه
مع محفوظ قبل حصوله على جائزة نوبل، وأعيد نشره بعد حصوله
عليها: إذا مُنحت لك جائزة نوبل هل سترفضها مثلما فعل سارتر؟
أجاب محفوظ: «البعض اعتقد أنني أدعو إلى السلام وكامب ديفيد
من أجل الحصول على جائزة نوبل التي تسيطر عليها الصهيونية
العالمية (..) إنني أدعو إلى السلام في نظر هؤلاء لكي أحظى برضا
تلك المنظمات التي تتحكم في منح الجائزة لمن تريد، لهذا فإنني
سأرفض جائزة نوبل لو مُنحت لي بالفعل لأنني في الحقيقة غني عن
رضا الصهيونية (..) إن هذه الجائزة ككل جائزة تقوم على أساسين:

الأساس الأول: عمل يشترط فيه درجة من التفوق، الأساس الثاني تحقيق مضمون معين لا يخلو من خط سياسي بالمعنى العام»[١٠٩].

وقاد الناقد صبري حافظ؛ قبل شهور قليلة من إعلان فوز محفوظ بالجائزة، هجومًا قاسيًا عليه، إذ كتب في مجلتي: «الأقلام» العراقية، و«الموقف العربي» الليبية، عدة مقالات هاجمه فيها، واعتبره «قد أصيب بتدهور في تركيب بنائه الروائي والتخلف الفكري والتدهور الفني وتسطيح الرؤية».

بعد أسبوع من حصوله على الجائزة هاجمه يوسف إدريس في صحيفة «الوفد»: «إنني رشحت للجائزة قبل نجيب محفوظ خمس مرات، وكانوا يستبعدونني في آخر لحظة لمواقفي السياسية، أما محفوظ فقد حصل عليها بفضل مهادنته لليهود وعدم انتقادهم، أما حكاية أن نجيب محفوظ قد فتح الباب أمام الأدباء العرب، فالعكس هو الصحيح لأنهم لن يمنحوها لأديب عربي آخر قبل ثلاثين عامًا على الأقل، وأؤكد أن نجيب محفوظ قد حصل على الجائزة قبل ترجمة أعماله خصوصًا أن زقاق المدق هي الرواية الوحيدة المترجمة له إلى السويدية». بالطبع لا أحد يعرف هل رُشح إدريس للجائزة بالفعل أم لا، كما أن اسمه لم يرد على الإطلاق في قوائم المرشحين التي تداولتها الصحف والمجلات.

---

(١٠٩) جريدة الشرق الأوسط، ٢٤ ديسمبر ١٩٨٧، وأعيد في مجلة الكويت، يناير ١٩٨٩.

واصل إدريس هجومه على محفوظ، ففي مهرجان «المربد» العراقي؛
وعند تسلمه لجائزة «صدام حسين»، قال: «إن روايات محفوظ محلية؛
ليست محلية الأشخاص والأحداث، ولكنها محلية الفكر». وذكر
أن أحد أفراد أكاديمية نوبل اقترح عليه تقاسم الجائزة مع أديب
إسرائيلي. وهو ما نفاه فيما بعد الكاتب السويدي شل أسبمارك،
عضو أكاديمية نوبل، مصححًا الواقعة: «كان ذلك حماقة من رجل
سياسي (زعيم سابق لحزب سويدي) كان في زيارة إلى مصر وقتها،
وتحدث مع يوسف إدريس واقترح عليه ذلك»، فغضب إدريس
ومنها كثيرًا من نشر تصحيح الكاتب السويدي وراح يصرخ أمام
الجميع: «الاقتراح كان من أحد أعضاء جائزة نوبل».
لم يكن إدريس وحده المهاجم، انضم له الروائي إدوار الخراط؛ الذي
اعتبر أن محفوظ وإدريس كليهما لا يستحقان الجائزة: «هما كاتبان
متوسطا القيمة بالمعايير التي تقاس بها الأعمال الأدبية العظيمة
الخالدة، وإن كان يذكر لهما بالطبع ريادتهما وما قطعاه من شوط كبير
في العمل القصصي والروائي».
محفوظ ظل صامتًا إزاء هذا الهجوم، لم يحاول كعادته الرد على
هذه الاتهامات، ولكنه اضطر فيما بعد لتوضيح وجهة نظره بعد
أن نشر موشيه ساسون السفير الإسرائيلي الأسبق في القاهرة في
مذكراته أن نجيب محفوظ أخبره «إن المعارضين للسلام مجموعة
أرزقية»، فعقب: «لا يمكن أن يصدر مني هذا الكلام، ليس في

قاموسي ولا طريقة تفكيري هذا المعنى، أن أتهم المخالفين لي في الرأي بأنهم أرزقية، أو يتبنون موقفًا من أجل المال»[١١٠]. وكشف محفوظ لصحيفة «أخبار الأدب» تفاصيل لم يذكرها من قبل: «وأنا في «الأهرام» زارني في مطلع الثمانينيات، قبل حصولي على نوبل واحد من السفارة الإسرائيلية (في القاهرة) لا أذكر اسمه، وعرض عليَّ الترشح لجائزة عالمية كبرى كان قد حصل عليها الأديب البريطاني جرهام جرين، وقال إنهم يفكرون في منحي الجائزة، وأنه جاء يستأذن، قلت له: إنني شاكر جدًّا لكنني أعتذر لأن ربط الجائزة بدفاعي عن السلام أمر لا أقبله، إذ إنه موقف مبدئي وليس من أجل الجوائز». كانت الجائزة التي يقصدها محفوظ هي جائزة «القدس الدولية»، وتبلغ قيمتها ١٠ آلاف دولار، وحصل عليها جرين عام ١٩٨١، وكان قد حصل عليها العديد من الأدباء منهم: أرثر ميلر، أوكتافيو باث، أوجين يونسكو، بورخيس، بيرتراند راسل، سوزان سونتاج، سيمون دي بوفوار، كويتزي، ماريو فارغاس يوسا، ماكس فريش، ميلان كونديرا وآخرون. وعُرضت الجائزة على محفوظ في عام ١٩٨٢ ولكنه رفضها. في الحوار ذاته قال محفوظ: «بعد حصولي على نوبل كتب لي شيمون بيريز خطابًا رقيقًا يقترح فيه أن أرشح لنوبل روائيًّا إسرائيليًّا اسمه عموس عوز، وقد

(١١٠) أخبار الأدب، ٣٠ نوفمبر ١٩٩٧.

، ـمـ إحدى رواياته إلى اللغة العربية، وأجبته في رسالة معتذرًا
، ما ـ إن عاموس عوز سوف يجد من يرشحه لنوبل، ولكن إذا كان
، لا بد أن أرشح أديبًا لنوبل فأفضل أن أرشح أديبًا عربيًّا».
، لـ كن الهجوم على نوبل محفوظ مقتصرًا على اتهامات يوسف
إد ـس أو بعض الصحف العربية (دعم الصهيونية له) أو إدوار
الخـ راط (كاتب تقليدي).. دخل على الخط الجماعات الدينية
المتطرفة، التي رأت أن محفوظ حصل على الجائزة بسبب روايته
«أ، لاد حارتنا».. فهي رواية «إلحادية»، وحدث، بعد أسبوعين من
إعلان فوز محفوظ بالجائزة أن هاجمت الداخلية تنظيمًا إرهابيًّا في عين
شمس، بدعوى أن أعضاء فيه هاجموا محفوظ في أحد المساجد..
، تحدثوا عنه باعتباره «الكاتب المرتد».. وربما بدأ يومها التخطيط
لاغتياله!

■ ■ ■

، لكن هل كان بالفعل يوسف إدريس مرشحًا للجائزة؟ وتم إبلاغه
بذلك؟

في عام ١٩٨١ نشر الكثير من الصحف الإنجليزية، ومن بينها
«التايمز» توقعاتها لمن سيحصل على جائزة نوبل ذلك العام، وجاء
اسم محفوظ من بين المرشحين، وكالعادة، تعتمد الصحف في نشرها
لقوائم المرشحين على تسريبات كثيرًا ما تكون من شخصيات مؤثرة
من داخل الأكاديمية السويدية، وقد تصدق تلك الترشيحات، وقد

لا تصدق. اسم محفوظ تم تناوله بناء على كثير من المعطيات، أهمها ما نشره أستاذ الأدب العربي عطية عامر رئيس معهد الدراسات العربية بجامعة أستوكهولم الذي يعيش في السويد منذ عام ١٩٥٩، وقد تحدث تفصيلًا عن ترشيحات نوبل في كتاب «قصة نوبل نجيب محفوظ»[١١١] الذي حرره وحيد موافي. ويمكن اختصار ما قاله عطية عامر في مجموعة من النقاط:

• في عام ١٩٧٨ طلبت مني الأكاديمية السويدية ترشيح أديب عربي للحصول على نوبل. قمت بترشيح نجيب محفوظ على الفور. أدبه يمثل مصر الحقيقية، ويتضمن فلسفة واضحة تربط الماضي بالحاضر وتنظر إلى المستقبل. وقد رددت عليهم بتلك الرسالة: (أقدم شكري للجنة جائزة نوبل في الأدب على الدعوة التي وجهتها لي طالبة مني ترشيح أحد الأدباء العرب لجائزة نوبل لعام ١٩٧٩، وأفسر هذه الدعوة على أن اللجنة تريد مني ترشيح أديب يكتب باللغة العربية، ويسرني أن أزكي للحصول على الجائزة نجيب محفوظ، لأنه - في رأيي - أعظم ممثل للأدب العربي الحديث، وأحد كتاب القصة في العالم في عصرنا الحاضر).

• طلبت من السفارة المصرية (في استوكهولم، عاصمة السويد) توفير كل كتب محفوظ وترجماته في اللغات المختلفة. وقد علم

(١١١) قصة نوبل نجيب محفوظ، عطية عامر، تحرير: وحيد موافي، مكتبة مدبولي، ٢٠١٣.

ال ادات بمسألة الترشيح فاتصل بالسفارة يطلب إبلاغي بترشيح
.،. الحكيم بدلًا من محفوظ. مبررًا ذلك بأن «توفيق الحكيم
ما سي وهو مع النظام من الأول. وجمال كان يحبه وأنا كمان.
ا. ،. ك اطلب من عطية تغيير ترشيحه»، وبدأت السفارة المصرية
ا. ، م الحكيم، مما كان له أثر عكسي سيئ باعتبار أن اللجنة ترفض
اا ، حل الحكومي في عملها!
ا ت أرى أن أدب الحكيم لا يمثل الروح المصرية العميقة،
«المسحة الفرنسية واضحة جدًّا في تفكيره ولا يصل في الرواية إلى
. سوى نجيب محفوظ»
بعد وصول مبارك إلى السلطة (١٩٨١) اتصل بي السفير المصري
، أخبرني أن هناك رسالة هامة لي من الرئيس مبارك. مضمون
ال سالة أنهم يعرفون أنني رشحت نجيب محفوظ للجائزة ويطلبون
. بي ترشيح عبد الرحمن الشرقاوي بدلًا منه، وكنت أعرف استحالة
، ، ل ترشيحه لأسباب تتعلق بشروط الجائزة الأدبية نفسها، التي
. طلب أن يكون مجموع إنتاج المرشح لها أدبيًّا، ومعظم إنتاج
الشرقاوي في الفكر الإسلامي.
. في عام ١٩٨٦ أثناء زيارتي للقاهرة التقيت صديقي أحمد هيكل
، زير الثقافة وأبلغته أنني سأرشح نجيب محفوظ للمرة الثالثة
، طلبت منه ألا تتدخل الحكومة فيمن سيرشح للجائزة حتى لا
يحدث ما حدث من قبل في المرشحين السابقين، وكان التزام أحمد

هيكل بعدم تدخل الدولة في شأن هذا الترشيح له كبير الأثر في فوز نجيب محفوظ.
• اتصلت لجنة نوبل بي وطلبت ترشيح أديب آخر بجانب محفوظ وبالفعل اخترت يوسف إدريس، وقد التقيت به في استوكهولم، وسألته: هل أرسلتك الحكومة؟ فقال لي: لا إن صدام حسين هو الذي أرسلني. وكان يرتدي ساعة يد عليها صورة صدام، وقد ألقى في الزيارة عدة محاضرات لطلاب الجامعة الذين عابوا عليه تشدقه بهذه العلاقة مع ديكتاتور. أخبرت إدريس بأمر ترشيحه مع نجيب محفوظ، فرح لترشيحه وقال لي: سيبك من نجيب محفوظ.. هذه الجائزة سترفعني إلى السماء لماذا لا تريد لي ذلك؟ قلت له: يكفي أنني رشحتك كمنافس لمحفوظ وليس بديلًا عنه.
سألت د. جابر عصفور عن تفاصيل أكثر، خاصة أنه قضى عامًا أستاذًا للأدب العربي في جامعة استوكهولم بدعوة من عطية عامر، فأوضح: «بالفعل رشح عامر إدريس للجائزة وكتبت وقتها بالعربية حيثيات ترشيح إدريس بنفسي، وترجمها عطية للسويدية».
في إحدى جلسات فندق شبرد علق محفوظ على اتهامات إدريس للمرة الأولى، وربما الأخيرة. سُئل محفوظ: «ماذا يبقى من يوسف إدريس؟»، فأجاب: «قصصه». سُئل: «هل يستحق عليها جائزة نوبل؟»، فأجاب: «إبداعه لا يؤهله لها». وعلق أحد الحاضرين: «لقد حصل على جائزة صدام حسين واعتبرها كجائزة نوبل». فعلق

..ط: «ما دام أخذها تبقى أكبر من نوبل»[112].
لا يمكننا التشكيك فيما قاله عطية عامر، خاصة أنه دعم ما كتب بالعديد من الوثائق، والمخاطبات الرسمية مع الأكاديمية السويدية، لكن الحقيقة أكثر اتساعًا مما قال، فلم يكن هو الداعم الوحيد لمحفوظ، كان هناك جهات عديدة من بينها قسم الدراسات العربية في جامعة السويد الذي كان يرأسه عطية عامر نفسه، وهناك أيضًا الناقدة الفلسطينية سلمى الخضراء الجيوسي التي صرحت بأن أكاديمية نوبل طلبت منها عام ١٩٨٥ تقريرًا عن الكُتاب العرب المستحقين لنوبل وأنها دعمت محفوظ وأدونيس، وهناك أيضًا المستعرب الأمريكي روجر آلان الذي أشار في أحد حواراته إلى دعمه لمحفوظ، وهناك جامعتا جورج تاون والسوربون، وبعض الجامعات الأوروبية والروسية والتي قدمت تقريرًا عن استحقاق صاحب «الحرافيش» للجائزة. وهناك أيضًا دنيس جونسون ديفز الذي يحكي في كتابه «ذكريات في الترجمة» عن تلقيه في الثمانينيات اتصالًا من أحد أصدقائه يخبره فيه أن زوجة السفير الفرنسي في تونس، وهي سويدية، موجودة في القاهرة وترغب في مقابلته، وحينما قابلها أخبرته أن لجنة نوبل تبحث إمكانية فوز كاتب عربي بها، وكان معها قائمة بأسماء المرشحين، ومنهم أدونيس ويوسف

(١١٢) إبراهيم عبد العزيز، ليالي نجيب محفوظ في شبرد، بتانة، ٢٠١٧

إدريس والطيب صالح، وأثناء النقاش أوضح لها ديفز أن شعر أدونيس بعيد تمامًا عن مدارك الكثير من القراء، ويوسف إدريس لم تكن هناك أعمال مترجمة له إلى الإنجليزية أو الفرنسية، وهما اللغتان اللتان يعرفهما أعضاء لجنة نوبل، أما الطيب صالح فرغم أن دنيس جونسون ديفز كان مترجمه وصديقه إلا أن إنتاجه القليل استبعده من القائمة، وهكذا بدا واضحًا أثناء تلك الجلسة أن نجيب محفوظ هو المرشح الأفضل للجائزة. وفي فبراير ١٩٨٨ تلقى محفوظ خطابًا من المستشرق شيفتيل (AVIHAI SHIVTIEL) يخبره بترشيحه للجائزة:

الأستاذ نجيب محفوظ المحترم:

تحية طيبة..

أتشرف بإرسال هذه السطور القليلة مقدمًا نفسي لسيادتكم، وإخباركم بأن الأكاديمية السويدية لجائزة نوبل أرسلت إليَّ أخيرًا خطابًا، طلبت فيه أن أوافيهم باسم أديب يرشح للجائزة المذكورة أعلاه للسنة الجارية. فقد سررت جدًّا بهذه الفرصة الذهبية لألفت نظر الأكاديمية إلى أعمالكم الأدبية التي يشار إليها بالبنان لأنني لم أجد أحدًا أجدر وأحق من سيادتكم بهذه الجائزة. ولذا هرعت إلى إرسال توصيتي المتواضعة، مؤكدًا أن منح سيادتك جائزة نوبل يعني إعطاء القوس باريها، نظرًا لما وضعتموه من مؤلفات، تعتبر من أرسخ دعائم وركائز

الأدب العربي المعاصر. فلا تؤاخذني على عدم الاستشارة بسيادتكم قبل إرسال التوصية، وذلكم لقصر الوقت، فأتمنى لسيادتكم أن تفوزوا بهذه الجائزة الرفيعة كي تحظى ثروتكم الأدبية بالاعتراف الدولي الذي تستحقه. وأخيرًا فاقبلوا تمنياتنا القلبية، مبتهلين إلى الله تعالى أن يعطيكم الحول والقوة والعافية، للمضي في إجزال العطاء الأدبي لكل الناطقين بالضاد.

المخلص: د. أ. شيفتيل - رئيس قسم الدراسات العربية الحديثة - جامعة ليدز - بريطانيا[١١٣].

... رد عليه محفوظ برسالة شكر:

فقد تلقيت رسالتك الكريمة التي تنبئني فيها بتفضلكم بتزكيتي لدى لجنة نوبل، بالسعادة والشكر والتقدير، ومهما تكن النتيجة النهائية لمسعاكم الحميد، فحسبي أنني فزت بتقدير أستاذ كبير فاضل مثلكم، وهذا تقدير من ناحيتي الأدبية لا يقل عن الجائزة بحال. أكرر الشكر يا سيدي ولك مني أطيب تحية.

الكاتب السويدي شل أسبمارك، عضو الأكاديمية السويدية ورئيس لجنة نوبل بين ١٩٩٨ و٢٠٠٤، وأحد الأعضاء الخمسة المسؤولين

---

(١١٣) د. مصري حنورة، نجيب محفوظ وفن صناعة العبقرية، دار الشروق، ٢٠٠٨

عن الاختيار النهائي للفائز بجائزة نوبل للآداب، أوضح عام ٢٠١٤ لـ«فرانس ٢٤» طريقة عمل لجنة الجائزة: «لدينا العديد من المختصين والخبراء في اللغة العربية وآدابها حول اللغة المستعملة وتقنيات الكتابة المعتمدة فيها وكذلك البناء الأدبي والهيكلي للعمل فالترجمة اللغوية هي جزء فقط من الترجمة الكلية، أما الجزء الثاني وأظنه الأهم فهو ترجمة الأساس والتقنيات والبناء الأدبي والتمازج الصوتي والمراجع المعتمدة فيها وكيفية إنجاز وإكمال الكتاب».

■ ■ ■

امتد الفرح بنوبل محفوظ إلى الوطن العربي، كانت القطيعة الرسمية «العلنية» مع مصر تلفظ أنفاسها الأخيرة فالسنوات العشر (١٩٧٨ - ١٩٨٨) فعلت فعلها؛ بمقتل السادات أولًا، ثم بالحرب العراقية- الإيرانية ثانيًا، وخروج المقاومة الفلسطينية من لبنان ثالثًا، والعجز عن مواجهة إسرائيل رابعًا، كل هذا جعل العلاقات المصرية- العربية أشبه بالعلاقات الطبيعية الودية حين أعلن فوز محفوظ بنوبل، ولذلك فقد تلقى محفوظ برقيات تهنئة من كل قادة الدول العربية، باستثناء ليبيا. وكانت المفاجأة زيارة قام بها مسؤول في منظمة التحرير الفلسطينية لمحفوظ في بيته، بصحبة الناقد رجاء النقاش (الذي روى الواقعة بدون أن يشير إلى جنسية المسؤول)[114]

(١١٤) رجاء النقاش، في حب نجيب محفوظ، دار الشروق.

المسؤول يحمل معه حقيبة سوداء بها ثلاثة أضعاف قيمة نوبل
(٤٠٠٠ ألف دولار وطلب من محفوظ الاعتذار عن الجائزة وتوجيه
اللوم والنقد ولا بأس من بعض الشتائم للغرب الذي يعادينا،
أن يحصل على المبلغ الذي يحمله معه في حقيبته السوداء.
استقبل محفوظ العرض بهدوء شديد واعتذر للضيف معتبرًا
الجائزة ليست له، وإنما للأدب العربي كله، وأن رفضه للجائزة
على كل الأدباء العرب من بعده. كما احتفت كل المجلات
الصحف العربية بالجائزة وصاحبها، وأرسل إليه نزار قباني رسالة
«الأهرام»، يدافع فيها عن محفوظ ضد مهاجميه:

نجيب محفوظ واحد من «أولاد حارتنا» يقيم صداقات يومية مع بائع الجرائد، وبائع الحليب، وصبي المكوجي ويقف بالطابور أمام بائع الفول، ولديه بدلتا «سفاري» واحدة ينام فيها والثانية يستحم فيها. «نجيب محفوظ» تلميذ مجتهد يكتب فروضه المدرسية بانتظام.. ناسك يؤدي الصلوات في أوقاتها، مجاور يجلس تحت أعمدة الأزهر، قديس يلبس جلابية بيضاء ويتجول في الشوارع الخلفية ويسجل على دفتر صغير آهات المتأوهين، وأنين المسحوقين ودموع المعذبين في الأرض.(...) وفي نظري أن أخلاق «نجيب محفوظ» ونقاءه الروحي وطهارته الداخلية والخارجية هي التي ربحت جائزة نوبل قبل أن

تربحها أعماله الأدبية. يا صديقي نجيب محفوظ: مبروك عليك جائزة نوبل التي ربحتها بعرق جبينك واحتراق أعصابك وصهيلك الشجاع على الورق على مدى خمسين عامًا ولم تربحها على طاولة الروليت أو من سمسرة السلاح!

■ ■ ■

كان من المتوقع أن يسارع نجيب محفوظ بإعلان سفره إلى السويد لتسلم الجائزة، لكنه كان قد اتخذ قراره مبكرًا، بعد يومين من إعلان الجائزة، برفض السفر، في جلسة الحرافيش قال لأصدقائه: «المشكلة في مسألة عدم القدرة على السمع، هنا المسألة بسيطة أقول ازعق يا علي أو يا محمد، لكن هناك أأقول للملك أو الملكة علِّي صوتك شوية؟». كما أن طبيبه الخاص نصحه بعدم السفر بسبب أمراض السكري والضغط. وفي زيارة لسكرتير جائزة نوبل ستوري آلان لترتيب فعاليات الحفل أخبره محفوظ استحالة سفره، وأنه يرشح سفير مصر في السويد لتسلم الجائزة نيابة عنه، لكن سكرتير الجائزة أخبره أن الجائزة ليست رسمية حتى يتسلمها أحد المسؤولين، ولا بد أن يختار أحد أفراد أسرته أو ممثلًا شخصيًّا بدلًا منه لتسلم الجائزة. اختار محفوظ الكاتب محمد سلماوي لتسلم الجائزة نيابة عنه، وهو ما أحدث ضجيجًا إعلاميًّا أيضًا، وكتبت بعض الصحف أن رئاسة الجمهورية ستختار اسمًا من ثلاثة لتسلم الجائزة نيابة عن

ط: لويس عوض أو ثروت أباظة أو ثروت عكاشة، وهو ما
سلماوي يكتب رسالة إلى محفوظ يعتذر فيها عن السفر لتسلم
الجائزة ليرفع عنه الحرج، ولكن محفوظ أخبره أن «مقام رئاسة
الجمهورية محفوظ، ومن حق الرئيس أن يختار من يشاء، ولكني
اخترت من يمثلني»، وقال محفوظ لمجلة «المصور» إنه اختار
سلماوي لأنه «أراد أن يمد يده بالجائزة إلى الأجيال الشابة». في
الوقت نفسه ذهب ابن شقيقة محفوظ «محمود الكردي» إلى سفارة
السويد في القاهرة يطلب السفر لتسلم الجائزة، وهو ما أغضب
الأسرة ليستقر الأمر على سفر سلماوي لإلقاء الكلمة، وسفر أم
كلثوم وفاطمة ابنتي محفوظ لتسلم الجائزة.

■ ■ ■

ساعات من حصوله على جائزة نوبل استطاع نجيب محفوظ
الهرب من عدسات المصورين الذين أحاطوا بمنزله، وكلمات
المجاملة التي يلقيها للمهنئين من مسؤولين وصحفيين، إلى أصدقائه
«الحرافيش» كما اعتاد كل خميس، هناك عاد إلى طبيعته، وتحدث بلا
تكلف. عندما سأله أحدهم عن إحساسه بعد إعلان الجائزة، قال:
«إني سعيد لأنني كسرت القاعدة».
أي قاعدة؟ سألوه، فأجاب: «القاعدة التي تقتضي بأن الحصول
على أي شيء الآن - دع عنك مثل هذه الجائزة - إنما يقتضي مسلكًا
خاصًا يقوم على قاعدة انتهازية، وعلاقات عامة، واتصالات دائمة

بهنا وهناك. أنا لا أقول إنني وضعت قاعدة جديدة، أقول فقط إني كسرت القاعدة السائدة، وقدمت درسًا لكل الجادين والمجتهدين إن الانصراف إلى العمل والعكوف عليه، يمكن أن يؤدي.. حتى إلى جائزة نوبل»[115].

وفي الحفل الذي أقامه الرئيس الأسبق حسني مبارك لتكريم محفوظ ومنحه «قلادة النيل» أرفع وسام مصري، أثار عدد من المثقفين قضية منع «أولاد حارتنا». وقال مبارك: «ليس هناك ما يمنع نشرها». وهو ما تحمس له وزير الثقافة آنذاك فاروق حسني الذي أعطى تعليماته لهيئة الكتاب بالبدء فورًا في نشر الرواية ما دام لا يوجد حكم قضائي يمنع نشرها. وقد نشرت صحيفة «الجمهورية» هذا الخبر في صفحتها الأولى، المدهش أن اجتماعًا لمجلس الوزراء في ٣٠ نوفمبر ١٩٨٨ ناقش موضوع طبع الرواية، وانقسم المجلس إلى فريقين: تزعم الأول فاروق حسني المتحمس للنشر. وعلى الجانب الآخر وزير الإعلام صفوت الشريف الذي رفض طبع الرواية، وطلب عرض الموضوع على الرئيس مبارك مرة أخرى، واستقر الرأي على عدم نشر الرواية بعد مكالمة جرت بين الشريف ومبارك. لا يتذكر فاروق حسني هذه الواقعة[116]، مؤكدًا أنه أعطى أوامره لسمير سرحان رئيس هيئة الكتاب وقتها بطبع الرواية دون تدخل

---

(١١٥) فاروق عبد القادر، في الرواية العربية كتاب الهلال، سبتمبر، ٢٠٠٢.
(١١٦) مكالمة هاتفية جرت معه.

.. مبارك، لكن جابر عصفور ويوسف القعيد[١١٧] اللذين شهدا .. يم محفوظ يؤكدان على صحة الواقعة. ويبدو أيضًا أن لنظام .. في مراحله المختلفة أكثر من جناح، ودائمًا ما ينتصر الجناح الأمني، إذ أصدر مجمع البحوث الإسلامية بعد يوم واحد من اجتماع مجلس الوزراء بيانًا يجدد فيه منعه لصدور الرواية، رغم أن أحدًا لم يطلب منه أساسًا إذنًا أو يقدم له طلبًا لإبداء الرأي. هل كان صوت الشريف وراء هذا المنع الثاني. وبالتالي وراء هذا التقرير؟ لا أحد يعلم الإجابة حتى الآن.

■ ■ ■

بعد الجائزة استمر محفوظ يدافع عن الرواية، كانت سنوات تصاعد فيها الإرهاب الديني، دافع عن روايته مقدمًا لها أيضًا تفسيرًا سياسيًا. ففي حفل لتكريمه أقامه قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة، انصبت معظم أسئلة الحضور من أساتذة القسم الذي تخرج فيه محفوظ، حول «أولاد حارتنا»، فأوضح أن «الرؤية التي حكمته في كتابته للرواية تتعلق بالسلطة ومواجهتها. الفتوات الذين كانوا يمثلون السلطة ويستخدمونها ضد الحارة، وأن هناك القيم التي يجب أن تسند العلم، فكان هدف أبناء الجبلاوي أن يعيدوا إحياء هذه القيم كي تسند العلم». وقال بوضوح أكثر:

(١١٧) مكالمات هاتفية تمت معهما.

«الرواية لا فيها حملة على الدين ولا سخرية من الأنبياء ولا زراية بهم». وأضاف:

يصح أن الرواية كانت تثير مشكلات سياسية، وهي أثارتها فعلًا بدرجة، لكن لما وجدت أن هناك حاجة أقوى يمكن أن تهدمها سكت عن ما كان يمكن أن تثيره سياسيًّا، أولاد حارتنا كما كانت تخاطب على مستوى ما البشر، فإنها تخاطب أيضًا رجال الحكم بلا شك. في ذلك الوقت ١٩٥٩، كانت هناك نشوة بانتصارات ما، فجاء واحد يقول لهم الوقف أهه، الحارة أهي، الفتوات أهم، وهذا المعنى فيها أعتقد لم يفت على السلطة؛ لأنه تم التلميح لي به، وهل هناك أحد سيأتي ليسألني ماذا تقصد بالفتوات؟ الفتوات هما الفتوات، السؤال هنا له مغزى، لكن لما وجد رجال السلطة أن الرواية أثارت أمرًا آخر بعيدًا عن اللي سألوا عنه سكتوا[١١٨].

الأزمة كلها من وجهة نظر محفوظ «أزمة قراءة.. لا أكثر ولا أقل». أزمة القراءة أو الاضطراب في التفسير فسره محفوظ في رسالة أرسل بها إلى د. محمد حسن عبد الله بمناسبة صدور كتابه «الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ» اعتبر عبد الله أن «أولاد حارتنا»

(١١٨) فيديو على موقع يوتيوب.

..له إسلامية، مصدرها القرآن الكريم، وتفسيرها لظواهر الكون
.. الى الرسالات تفسير إسلامي، وهو ما فعله محفوظ أيضًا في رواية
«الطريق» التي تعبر عن نفس الموقف الإسلامي من حيرة المصير
... الجبر والاختيار، والعلم ليس وارثًا للدين أو خليفة له، وإنما
.. وسيلة من وسائل الحياة، تصلح وتفسد، تبني وتدمر.. حسب
الدوافع والالتزام الخلقي والروحي. وكتب محفوظ:
امل الاضطراب الناشئ من قراءة أدبي أحيانًا مصدره أن قلبي يجمع
... التطلع لله والإيمان بالعلم والإيثار للاشتراكية. ومحاولة الجمع
... الله والاشتراكية مثار للظن بالإلحاد عند قوم، وبالمحافظة عند
اخرين. وطالما عجبت من أن تتخذ الفلسفة الشيوعية دينًا، إذ إنني
بصفتي تلميذًا للفلسفة أعلم أنها أبنية تتجدد من تطور الزمن ولا
تصلح للعبادة على الإطلاق. أما ما يثير إعجابي في الشيوعية فهو
عدالتها الاجتماعية المطلقة؛ والتي لم تطبق بعد في روسيا نفسها، ألا
، هي من كل على قدر طاقته ولكل على قدر حاجته، فهو أساس
كامل في المعاملة الإنسانية يجعل من البشرية أسرة سامية، ولكن أي
ضرورة تستوجب لكي أومن بذلك أن أومن قبلًا بالتفسير المادي أو
بإنكار الله؟ (١١٩)

■ ■ ■

(١١٩) محمد حسن عبد الله، رسالة من نجيب محفوظ، البيان الكويتية، مايو ١٩٧٢.

مدفوعًا بالرغبة في صد الهجوم الشديد عليه؛ والذي استمر لأكثر من شهرين من أطراف عديدة، سواء أكانوا كتابًا منافسين له، وغيورين منه، أو جماعات إسلامية تطعن في عقيدته الدينية، أو أنظمة سياسية ترى أنه نال الجائزة لأسباب «صهيونية»، أو حتى من صحف عالمية سألت: من يكون القادم من الشرق الأوسط؟، جلس نجيب محفوظ ليكتب كلمة «نوبل» التي ستلقى نيابة عنه في مراسم توزيع الجائزة. كتب محفوظ كلمته تحت هذه الضغوط. لم يتحدث فيها عن تقنيات الكتابة، وجمالياتها. كان يريد أن يقول للعالم: أنا ابن هذا العالم الثالث الذي تسألون من هو؟، كان يريد أن يثبت أنه ابن حضارتين عظيمتين أثرتا في الإنسانية وكأنه يريد أن يؤكد موقفه الديني، تحدث لا بصوته، وإنما بصوت ملايين العرب الذين انتظروا الكلمة، تحدث عن همومهم. وكانت فلسطين وقضيتها في قلب هذه الهموم. كتب محفوظ همومًا شخصية، وهمومًا قومية، وهمومًا إنسانية، كتب: «الخير يحرز نصرًا كل يوم.. ولكن غاية ما في الأمر أن الشر عربيد ذو صخب ومرتفع الصوت»، هكذا قال. بمراجعة مخطوط الكلمة، نجد أنه استبدل كلمة واحدة في كلمته، ففي سياق حديثه عن الحضارة الإسلامية كتب أولًا: «تنهض على الحرية والمساواة والتسامح»، ولكنه استدرك فشطب على كلمة «المساواة»، وكتب بدلًا عنها كلمة «العدل»، فهل رأى محفوظ أن «العدل» كقيمة أكثر تعبيرًا عن الحضارة الإسلامية من قيمة «المساواة»،

أ..ان مقتنعًا فعلًا بأن «المساواة» كانت - دائمًا - على هامش الحضارة الإسلامية؟

■ ■ ■

ى يونيو ١٩٩١ كان الشيخ محمد الغزالي ضيفًا على صالون الأوبرا . الذي يحمل اسم «صالون إحسان عبد القدوس الثقافي» واعترف . فيها علنًا؛ لأول مرة، أنه كتب تقريرًا رفعه للرئيس عبد الناصر يعترض فيه على نشر الرواية، وشاركه في كتابة تقارير أخرى الشيخان: محمد أبو زهرة وأحمد الشرباصي. وأعلن رأيه بصراحة تامة: «الرواية كانت ناضحة بأن الحضارة تحت الدين كله». ودعا الغزالي محفوظ إلى التبرؤ من «أولاد حارتنا»، مقرًّا أنه «كاتب ثري ولديه أعمال رفيعة القيمة». علق محفوظ باختصار على ما طالب به الغزالي: «الإنسان لا يستطيع أن يتراجع عن عمل كتبه»، وأعلن أنه على استعداد لمناقشة شيوخ الأزهر فيما جاء في الرواية.. ولكن للمرة الثانية لم يكن أي من شيوخ الأزهر مستعدًّا للمناقشة!

ويتجدد الجدل مرة أخرى بعد أن أصدر الخميني فتوى باهدار دم الروائي سلمان رشدي (فبراير ١٩٨٩) بسبب روايته «آيات شيطانية». في التوقيت ذاته سُئل عمر عبد الرحمن، مفتي الجماعة الإسلامية، في صحيفة «الأنباء الكويتية» (أبريل ١٩٨٩) عن رأيه في رواية «رشدي»، فأجاب: «لو أن الحكم بالقتل نفذ في نجيب محفوظ حين كتب «أولاد حارتنا» لكان ذلك بمثابة درس بليغ لسلمان .

رشدي». وكرر إجابته تلك في العديد من الصحف وفي خطبته للجمعة، بصيغ أخرى: «لو قتلنا محفوظ من ٣٠ سنة مكنش طلع سلمان رشدي». الغريب أن رجال الأمن المصري اتصلوا بمحفوظ لكي يخصصوا له حراسة خاصة، فرفض قائلًا: «عبارة عمر عبدالرحمن ليست فتوى بالقتل، ولكنها جملة شرطية لأنه بيقول لو قتلنا محفوظ من ٣٠ سنة». بالفعل ما قاله عبد الرحمن لم يكن فتوى، كان رسالة أو إشارة لقتل محفوظ.

١٤ أكتوبر ١٩٩٤

في الجو غبار خانق، كما يقول نجيب محفوظ في مفتتح «اللص والكلاب»، عواصف رملية تضرب القاهرة، وتتسبب في حوادث وانهيارات عديدة، وأمطار رعدية، وسيول تغرق عددًا من المحافظات الجنوبية.

في الخامسة والنصف مساءً، اعتاد نجيب محفوظ أن يخرج من بيته متجهًا إلى ندوته الأسبوعية في كازينو قصر النيل، كان في انتظاره أمام المنزل الطبيب فتحي هاشم الذي كان مفترضًا أن يصطحبه بسيارته إلى مكان الندوة حيث الأصدقاء والحرافيش. لم يكن فتحي هاشم وحده منتظرًا، كان هناك شاب آخر، يحمل معه مطواة قرن غزال، اتجه إلى محفوظ بعد أن استقر في المقعد الأمامي للسيارة، ليغرس مطواته.. قال محفوظ: «رأيت وحشًا مخيفًا ينقض عليَّ..

وينهش رقبتي بأنيابه» اندفعت نافورة دماء في رقبته، وهرب الجاني «ربنا يستر».. كانت العبارة الأكثر تداولًا بين المصريين عندما أذيع الخبر.

بعد أيام قليلة أعلنت الشرطة اسم الجاني: محمد ناجي. كان الحادث ذروة صراع عنيف بين الدولة من ناحية وجماعة الإرهاب الديني من ناحية أخرى، تفجيرات إرهابية تستهدف السياح والأقباط، واغتيالات سياسية تستهدف مفكرين وسياسيين، هذا السياق أوهم كثيرين «أن عربة الدولة الدينية لا محالة قادمة، فكان على بعضهم أن يحجز مقعدًا له فيها» حسب تعبير نصر أبو زيد[١٢٠]، وخلق مناخًا معاديًا للحريات. لكن الوقائع التي سبقت الحادث تؤكد أن الفاعلين المحرضين كُثر.

■ ■ ■

قبل عام من الحادث قامت وزارة التعليم بإلغاء تدريس رواية «كفاح طيبة» التي كانت مقررة على طلاب المرحلة الإعدادية، وعللت لجنة اختيار النصوص هذا القرار بالخلاف على ٨ قروش مع ناشر الرواية، حيث طالب الناشر بـ ١٠٤ قروش بينما تصر الوزارة على ٩٦ قرشًا. المدهش أن اللجنة اختارت رواية «الصقر الجريء» لعبد السلام زيدان بديلًا للرواية الملغاة، وقد بلغ ثمن النسخة ١٢٤ قرشًا بزيادة عشرين

(١٢٠) محمد حسن عبد الله، رسالة من نجيب محفوظ، البيان الكويتية، مايو ١٩٧٢.

..نا عن السعر الذي رفضته الوزارة لنسخة «كفاح طيبة». قبل أيام
.. هذا القرار رأت اللجنة نفسها تخفيف المناهج على طلاب المدارس
الثانوية بحذف خطاب نجيب محفوظ في حفل تسلمه جائزة نوبل..
، هو الأمر الذي اعتبرته صحيفة أخبار الأدب مؤامرة على عميد
الرواية في وزارة التعليم[121].

في التوقيت ذاته كان الدكتور نصر حامد أبو زيد يدور في أروقة
المحاكم في القضية التي بدأت قبل شهور، عندما تقدم في مارس
١٩٩٣ للترقي في جامعة القاهرة بثلاثة أبحاث عن الإمام الشافعي،
، الخطابات النقدية الجديدة لتحليل النصوص الدينيَّة، قامت الدنيا
ضده. رأى بعض أساتذة الجامعة على رأسهم عبدالصبور شاهين أنَّ
طرد أبو زيد من الجامعة بمثابة «انحسار للعلمانية في الجامعة». من
هنا، سارع عبد الصبور إلى كتابة تقرير ساخن يرفض الترقية، ويتهم
أبو زيد بالكفر. وبدأ يهاجمه في خطب الجمعة واكتملت الدائرة المرعبة
بدعوى التفريق بينه وبين زوجته وزميلته ابتهال يونس أستاذة الأدب
الفرنسي في جامعة القاهرة باعتبارها مسلمة وهو مرتد[122].

في ١٠ فبراير ١٩٩٤ أصدرت الجمعية العمومية برئاسة المستشار

(١٢١) أخبار الأدب، ٢٩ أغسطس ١٩٩٣.
(١٢٢) رفضت اللجنة ترقية نصر أبو زيد في مارس ١٩٩٣. ورفع عليه البعض دعوى قضائية
للتفريق بينه وبين زوجته د. ابتهال يونس.. وظلت متداولة سنوات، قبل أن يقرر أبو زيد الخروج
في رحلة منفى اختياري إلى هولندا (١٩٩٥) استجابة لدعوة من جامعة ليدن، وبقي هناك أكثر من
١٥ عامًا.. حتى رحيله في يوليو ٢٠١٠... لم يزر فيها مصر إلا نادرًا.

طارق البشري فتوى تؤكد أن الأزهر الشريف وحده صاحب الرأي الملزم لوزارة الثقافة في تقدير الشأن الإسلامي للترخيص أو رفض الترخيص للأعمال الفنية والمصنفات السمعية والبصرية التي تتناول قضايا إسلامية أو تتعارض مع الإسلام ومنعها من الطبع والتسجيل أو النشر والتوزيع والتداول. كما أن مجمع البحوث الإسلامية بما يتبعه من لجان أو إدارات، ومنها إدارة البحوث والتأليف والترجمة والنشر، هو من له ولاية مراجعة المصحف الشريف، ومن له حق التصدي لفحص المؤلفات والأعمال الفنية التي تتعرض للإسلام وإبداء الرأي فيها، الأمر الذي يجعل هذه الهيئة هي صاحبة التقدير فيما يتعلق بالشؤون الإسلامية، ومن ثم يكون إبداء الأزهر بواسطة هيئاته رأيه في تقدير هذا الشأن ملزمًا الجهات التي نيط بها إصدار القرار. الفتوى اعتبرتها مؤسسات المجتمع المدني «مساهمة من مجلس الدولة في هدم أسس الدولة المدنية ومحاولة بعث الدولة الدينية من جديد».. وانتقدها جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة «لا يعني ذلك أن تتحول مؤسسة دينية إلى قاضٍ ورقيب على ضمائر الناس أو عائق أمام حرية المبدعين».

والغريب أن جهات الرقابة لم تكن تحتاج إلى فتاوى قانونية، إذ كانت تمارس دورها بفجاجة وثقة بعد أن تقدم أحد أعضاء البرلمان المصري (جلال غريب) باستجواب لوزير الثقافة محتجًا على نشر مجلة «إبداع» لوحة للفنان النمساوي جوستاف كليمنت بعنوان «آدم وحواء»،

ا.مح على إقامة مهرجان للمسرح التجريبي، وعلى وجود أوركسترا
ل أوبرا القاهرة باعتباره لا لزوم له في بلد الأزهر. وبعد ساعات
من الاستجواب كانت لجنة من الرقابة الإدارية تتوجه وبصحبتها
قائمة من الأعمال الإبداعية مثل: «وش الفجر» ليوسف أبو رية، «آية
جسم» لحسن طلب، «وردة القيظ» لفريد أبو سعده، «العراة» لإبراهيم
عيسى، «أنا بهاء الجسد» لمحمد آدم، «مخلوقات الأشواق الطائرة»
لإدوار الخراط، «بستان الأزبكية» لمحمد عبد السلام العمري، «خطط
الغيطاني»، و«وقائع حارة الزعفراني» لجمال الغيطاني، «قصة للأطفال»
لمختار السويفي. وجهت اللجنة أسئلة لمسؤولي الهيئة حول ظروف
طبع هذه الأعمال، وكيف تم اختيارها.. ثم أخذت عينات من الكتب
المصادرة، وأصدرت توجيهات بمنع التصرف في نسخ تلك الكتب
الموجودة في مكتبات ومخازن الهيئة، ثم أحالت اللجنة الأعمال المضبوطة
إلى الأزهر لإبداء رأيه فيها. في التوقيت ذاته كانت رقابة عمال هيئة
الكتاب قد تكرست، إذ رفض عمال المطابع في هيئة الكتاب «صف»
قصة للكاتبة نعمات البحيري كان مقررًا نشرها في مجلة «إبداع» لأنها-
من وجهة نظرهم - قصة «جنسية»، وقال أحدهم لرئيس تحرير المجلة
أحمد عبد المعطي حجازي: «أنا عندي أوامر من رئيس الهيئة (سمير
سرحان).. القصة التي لا تعجبني أبلغ عنها»[١٢٣]!

(١٢٣) أخبار الأدب، ١٧ يوليو ١٩٩٤.

وسط هذا المناخ وقع عدد من المثقفين بيانًا بعنوان «دفاعًا عن الثقافة»: «نحن الموقعين على هذا البيان من مثقفين وأدباء وفنانين ورجال فكر، وقد تابعوا بمزيد من الدهشة والغضب ذلك التعرض الفج للمجلات الثقافية والإبداع الفني والثقافي الذي تمثل في مواجهة غير حضارية وغير متسمة باللياقة بين أحد أعضاء مجلس الشعب ووزير الثقافة. إن هذه الحملة هي جزء لا يتجزأ من العمل الإرهابي الذي يواجه الشعب المصري، إننا ندين هذه الحملة المحمومة ونعلن وقوفنا ضدها، ونؤكد توحدنا في مواجهتها»[١٢٤]..

وكان نجيب محفوظ من بين الموقعين على البيان، في مرة نادرة بعد أن وقع بيانًا مطالبًا بإنهاء حالة اللاحرب واللاسلم قبل حرب أكتوبر.

■ ■ ■

تتواصل كذلك حملة الهجوم على المؤتمر الدولي للسكان والتنمية[١٢٥]، الذي استضافته القاهرة قبل أيام، لجنة الفتوى بالأزهر ومجمع البحوث الإسلامية أصدرا بيانًا قبل المؤتمر يحتج على محتويات برنامج عمل المؤتمر التي تتعارض مع الشريعة الإسلامية. ووصم البعض المؤتمر بأنه للترويج للشذوذ ونشر الفحشاء، وإباحة

(١٢٤) أخبار الأدب، ٢ يناير ١٩٩٤.

(١٢٥) نظمته الأمم المتحدة في الفترة ما بين ٥ إلى ١٣ سبتمبر ١٩٩٤. وقد نتج عنه برنامج عمل عبارة عن وثيقة توجيهية لصندوق الأمم المتحدة للسكان. حضر المؤتمر ٢٠٠٠٠ ممثل عن حكومات متعددة ووكالات تابعة للأمم المتحدة ومنظمات لاحكومية إضافة إلى وسائل الإعلام وذلك للحديث حول قضايا متنوعة مختصة بالسكان، تتضمن الهجرة ووفيات الأطفال وتحديد النسل وتنظيم الأسرة إضافة إلى تعليم النساء وحمايتهن من مساعدات الإجهاض الخطرة.

الا -هاض، وإفساد الأبناء خلقيًّا وصحيًّا.
ا ل. ب الوطني الحاكم عقد مؤتمرًا تحدث فيه يوسف والي أمين
ا ل. ب مؤكدًا أن مصر تحكمها الهوية الإسلامية، وقال مفتي
الجمهورية محمد سيد طنطاوي إن ٩٠٪ من القضايا التي سيناقشها
المؤتمر تؤيد مكارم الأخلاق. وزير السكان ماهر مهران قال إنه
... على تعاليم دينه وتقاليد مجتمعه.. وأن الآراء التي ستناقش في
المؤتمر لا تعني أن نقوم بتطبيقها وإنما تخص دولًا وثقافات أخرى.

■ ■ ■

في ذلك التوقيت كانت «الأهرام» قد بدأت نشر «أصداء السيرة
الذاتية».. وهي حسب وصف محفوظ لها «تخاريف عجوز»
أو «تأملات يصعب تصنيفها ضمن جنس القصة القصيرة». كان
محفوظ قلقًا من التجربة، رافضًا لنشرها في كتاب، خاصة أن الأهرام
لم تحتفِ كما يجب بالأصداء، لم تعلن عنها، أو تسعى إلى تسويقها،
كما أنها نشرت بإهمال وسط المقالات الأخرى، بشكل لا يليق
بمحفوظ، وقيمته وموقعه!
قبل شهر من محاولة الاغتيال سأله الدكتور إبراهيم كامل عن
الموقف في مواجهة مصر مع الإرهاب.. أجاب نجيب محفوظ: «لقد
كسبت الشرطة المعركة الراهنة، ولكنني أخشى أن يكون المجتمع
كله قد خسر الحرب، لقد جرى توسيع المرجعية الدينية بصورة لم
تحدث من قبل، انظروا إلى أي مثقف وحجم حديثه عن الدين،

وجعله ركنًا من أركان السلوك اليومي، هذا رغم أن الإرهاب الراهن لا علاقة له بالإسلام إلا أننا انزلقنا جميعًا إلى أرضهم، ونخوض المعركة وفقًا لشروطهم هم، وذلك هو الخطر الأول»[١٢٦].

■ ■ ■

وسط هذه الأجواء، جاءت الطعنة، التي بدت مفاجئة للمثقفين، رغم عشرات الدلائل التي سبقتها، وخاصة أن محفوظ رفض تخصيص حرس شخصي لحمايته في أعقاب «فتوى» عمر عبد الرحمن قبل سنوات.. قال محفوظ بحسه الساخر: «لو مشى ورائي حارس فإنه هو الذي سيقتلني، لأنني سوف أعذبه بسبب حبي للمشي، وسوف يضطر للمشي معي يوميًا، وبعد فترة سوف يضيق بي ويقتلني»[١٢٧].

نقل محفوظ إلى مستشفى الشرطة، القريب من بيته، وتبين إصابته بطعنة في عضلات الرقبة وتهتك بالأوردة. وتم اجراء جراحة دقيقة له، وعندما أفاق التفت نجيب محفوظ إلى المحيطين به، وقال -حسبما نقل جمال الغيطاني- «المقصود أن تخافوا.. أن تخرس أصواتكم».

بعد يومين نجحت الشرطة في القبض على المجموعة المكلفة بارتكاب هذه الجريمة، وتبين أنهم ينتمون للجناح العسكري في

(١٢٦) المصور، ٢١ أكتوبر ١٩٩٤.

(١٢٧) رجاء النقاش، نجيب محفوظ: صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته.

ط م «الجماعة الإسلامية» المحظورة، وتعرف الشاهد الرئيسي
ا, المضية الدكتور فتحي هاشم، على صورة المتهم الأول محمد
ا ـي، وكشفت التحقيقات أن خطتهم الأصلية لم تكن قتل محفوظ
ا, ا اختطافه داخل سيارة أجرة واحتجازه كرهينة داخل وكرهم
. «الخانكة»، مقابل الإفراج عن عدد من قياداتهم المحتجزين
السجون، إلا أن تأخر المتهمين في إحضار السيارة حال دون تنفيذ
ـلية الاختطاف، وهو ما أدى لتعجل الجاني بطعن نجيب محفوظ.
ا كشفت التحقيقات عن أنهم خططوا لتفجير معرض القاهرة
الدولي للكتاب، المقرر عقده في يناير ١٩٩٥، وكذلك اغتيال نصر
حامد أبو زيد.. كما جاء في نصوص التحقيقات: «هناك كاتب اسمه
نصر أبو زيد يسكن في الهرم عند ترعة، وسيتم قتله بأن يصعد أحد
إلى بيته ويضربه بسكين»... كما تم أيضًا التخطيط لتفجير سينما
هليوبوليس[١٢٨].

قال المتهم إنه أقدم على جريمته بحجة تعرضه للدين الإسلامي في
رواية «أولاد حارتنا».. قال: «لم نقرأ الرواية ولكن تكليفًا صدر إلينا
بقتل مؤلفها بعد قيام الجماعة باغتيال فرج فودة»، وأضاف أنه ليس
نادمًا على ما فعل ولو قدر له الخروج من السجن فسيعيد ارتكاب
المحاولة[١٢٩]. وقد رد محفوظ على هذه الأقوال في اليوم التالي: «لا

(١٢٨) محمود صلاح، أولاد شارعنا: نجيب محفوظ ملف محاولة الاغتيال، أخبار اليوم، ١٩٩٧.
(١٢٩) الأهرام، ٢٦ أكتوبر ١٩٩٤.

يجوز الحكم بالكفر غيابيًّا على الناس دون مناقشتهم، كما لا يجوز إصدار الأحكام من أشخاص غير مؤهلين للفتوى، ولا يفهمون دينهم الفهم الصحيح. ما زلت أكرر أن «أولاد حارتنا» مجرد عمل أدبي يجب النظر إليه بهذا المفهوم، وأنها رواية تنتهي بتأكيد أهمية الإيمان بوجود الذات الإلهية»[١٣٠].

■ ■ ■

في تحقيقات النيابة أعاد محفوظ التأكيد على هدفه من الرواية: ««أولاد حارتنا» مثل «كليلة ودمنة» ترسم عالمًا متصورًا لتوحي بعالم آخر. فنحن بين الحيوانات عايشين في غابة، لكن نحن نعرف والقارئ العادي يعرف إن قصدنا نقد البشرية ونظام الحكم والعلاقات بين الأفراد، وحكمة الحكماء، وسفاهة السفهاء، ولكن ما دام التزمنا أن احنا في الغابة، فلازم يكون أبطالنا من الحيوانات، ولا نحاسب ونحن نعاملهم معاملة الحيوانات، لأننا نعامل المرموز له بالحيوان، وعلى نفس النمط أنا مشيت في «أولاد حارتنا»، بأعرض فيها لمصريين في حارة، وأسلوب حياتهم الظالم بكل ما فيه». ويضيف محفوظ في التحقيق معه: «هؤلاء (يقصد محاولي قتله) لا يقرأون القصص الأدبية بعين أدبية أو إنسانية تريد أن تعرف الحقيقة وصراع الخير والشر، المهم في نظرهم أن العمل يكون خاضعًا

(١٣٠) الأهرام، ٢٧ أكتوبر ١٩٩٤.

م. ا لتعليمات الدين، وحتى في ذلك هم يغالون، لأن الدين نفسه
م. س قصة الخير والشر، وقصة عصيان إبليس على الذات الإلهية،
، ، ابات كلها تدور حول مفاهيم واضحة، ولا يمكن بأي حال من
الأ حوال أن يكون القصد منها التعرض لأي دين من أديان السماء،
أ الإزراء به والقول بأنني كافر أو مرتد فيه افتراء». بعد أن أدلى
محفوظ بأقواله طلب منه رئيس النيابة أن يوقع على أقواله، لكن اليد
المصابة لمحفوظ لم تستطع إمساك القلم، فاضطر وكيل النيابة أن
ا خذ بصمة محفوظ.

، حسبما يحكي أشرف العشماوي أحد وكلاء النيابة الذين تولوا
التحقيق في الحادث فإن محفوظ سأله أثناء التحقيق: همَّ ليه ضربوني
ا حضرة الوكيل؟ يقول العشماوي: «أجبته بما اعتقدت أنه سيريحه
، فلت بأن من حاول قتله فعل ذلك لإصلاح المجتمع. فسألني
بنفس الاهتمام: وما وجهة نظره في ذلك؟ قلت بتحفظ: لأنهم يرون
أن المجتمع لن ينصلح حاله إلا بقتل الكفار. أجبته واعتذرت
مقررًا أن تلك العبارة وردت بأقوال المتهم الذي كنت أستجوبه،
فابتسم لي بمودة طالبًا ألا أعتذر ثم فاجأني سائلًا: أنا أعلم أنهم لم
يقرأوا الرواية، لكن أريد معرفة ما إذا كانوا قد قرأوا غيرها»[131].
طلب نجيب محفوظ من أعضاء النيابة أن يسمحوا له بإهداء

(131) اليوم السابع، 30 أغسطس 2015.

المتهمين بعض كتبه.. وطلب من زوجته إحضار ثلاث روايات من منزله الملاصق للمستشفى.. وكتب هذا الإهداء: «إلى من يخالفني الرأي أهدي سطورًا كتبتها لمصلحة مجتمع لن ينصلح حاله إلا بالثقافة»[١٣٢].

■ ■ ■

بعد الحادث كان أول ما كتبه نجيب محفوظ -حسب الروائي يوسف القعيد- صباح الجمعة الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٩٤ تفويضًا لصحيفة «الأهرام» بحقها منفردة في نشر الرواية. وكان الهدف من هذا التفويض منح «الأهرام» الحق في اللجوء إلى القضاء المستعجل لوقف نشر الرواية التي أعلنت العديد من الصحف نشرها، وبدأ هذا السباق المحموم صحيفتا: «المساء» و«الأهالي». إذ أعلنت الأولى عن بدء نشرها الرواية ابتداء من يوم السبت ٢٩ أكتوبر ١٩٩٤. وقالت في الإعلان إن ذلك النشر إنما يتم بناء على رغبة نجيب محفوظ نفسه وهو ما نفاه محفوظ، وقد نشرت الصحيفة ست حلقات من الرواية قبل أن يتوقف النشر بناء على طلب محفوظ، وتعتبر هذه هي المرة الثانية التي تعلن «المساء» عن نشر الرواية، إذ قامت بنشر حلقة منها بعد حصول محفوظ على جائزة نوبل، وقتها تدخل ثروت أباظة باعتباره رئيسًا لاتحاد الكتاب لوقف النشر.

---

(١٣٢) رجاء النقاش، نجيب محفوظ: صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته.

و«الأهالي» صحيفة الأهالي المصرية التي تصدر عن حزب التجمع
بنشر الرواية في عدد خاص منها. لتصدر الرواية لأول مرة
«أولاد حارتنا» كاملة بعد أيام من الحادث في عدد خاص[١٣٣]، نفد
في الأسواق بعد ساعات أعلن وقتها. وحملت عناوين الصفحة الأولى: «لأول
مرة في مصر.. النص الكامل لرائعة نجيب محفوظ.. أولاد حارتنا..
بعد ٣٥ عامًا من غيابها عن الشعب المصري». ومهدت الصحيفة
لنشر الرواية بمقالات لنقاد وصحفيين بارزين هم محمود أمين
العالم، شكري عياد وفريدة النقاش وجابر عصفور وسلامة أحمد
سلامة والممثل عادل إمام. فضلًا عن رسومات للفنانين عبد الغني
أبو العينين وجودة خليفة.

وعند نشر الرواية في «الأهالي» أصدر كتاب وفنانون بيانًا طالبوا فيه
بعدم نشر الرواية في مصر ضد رغبة نجيب محفوظ نفسه، واعتبروا
أن النشر بهذه الطريقة يمثل اعتداء صريحًا على حقوق المؤلف
الأدبية والقانونية والمادية وأن الدفاع عن حرية التعبير ليس مبررًا
لهذا العدوان. ووقع البيان ١٥ مثقفًا من بينهم أحمد عبد المعطي
حجازي، غالي شكري، جمال الغيطاني، يوسف القعيد، محمد
سلماوي، السيد يس، سعد أردش، تحية حليم، سامي خشبة، عبد
الوهاب مطاوع، فتحي العشري.

(١٣٣) الأحد ٣٠ أكتوبر ١٩٩٤.

وفي ذلك الوقت، أعلن أيضًا عدد من المثقفين والأدباء والكتاب جمع تبرعات بهدف إصدار طبعة شعبية من الرواية، استجابة للنداء الذي وجهه محمود أمين العالم في لقاء المثقفين الذي عقد في مسرح البالون تضامنًا مع محفوظ، حين دعا إلى صدور الرواية فورًا، كرد على المتطرفين. وإذا بمبادرة الكُتّاب إلى طبع الرواية تشكل رفضًا لمصادرة ومنع أي عمل أدبي، مع أن بعضهم اشترط الحصول على موافقة كتابية من نجيب محفوظ، قبل البدء بجمع التبرعات.

كان المزاج الرسمي في مصر، مع نشر الرواية، وخاصة أن صفوت الشريف وزير الإعلام وقتها الذي كان معترضًا من قبل على النشر، زار محفوظ في مستشفى الشرطة حيث يعالج، فسألته زوجة الأديب عن منع رواية «أولاد حارتنا» من النشر. قال لها وللصحافيين الذين كانوا موجودين وقتها في المستشفى: «لا مصادرة لأي فكر في مصر الآن». وهذا ما اعتبر موقفًا رسميًّا جديدًا من «أولاد حارتنا». بل إن صحيفة الأهالي قدمت للتلفزيون المصري إعلانًا عن نشرها «أولاد حارتنا» فأذيع من دون اعتراض. كما اتصل نبيل أباظة رئيس تحرير «كتاب اليوم»، وهي سلسلة شعبية شهرية تصدر عن مؤسسة «أخبار اليوم»، بعدد من النقاد لكي يكتبوا مقدمات للرواية وقال لمن اتصل بهم إن لديه وعدًا من الدكتور محمد سيد طنطاوي مفتي الديار المصرية بكتابة مقدمة لها... وإن الرواية والدراسات ستصدر في ديسمبر ١٩٩٤ في السلسلة الشهيرة. وقد صدر بالفعل الكتاب

الذي حمل عنوان «حكاية أولاد حارتنا» متضمنًا مقالات لمحمود أمين العالم، وسمير سرحان، والشيخ عبد الجليل شلبي الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية الأسبق الذي سبق أن هاجم «أولاد حارتنا» في أعقاب حصول محفوظ على جائزة نوبل، بل اعتبر الرواية بمثابة «الأب الشرعي لرواية آيات شيطانية لسلمان رشدي»[134] معللًا ذلك بأن «الرواية ترجمت إلى العديد من اللغات الحية مثل الإنجليزية والفرنسية والعبرية وليس صعبًا على سلمان رشدي أن يقرأها وأن ينسج على منوالها روايته»، لكنه في مقالته التي تضمنها الكتاب لم يكرر هذا الكلام بل قرأ الرواية باعتبارها «إشارة إلى ما كان يعانيه الناس في ذلك الوقت من كبت وإرهاق وانتزاع أملاكهم منهم في موجة التأميم التي أوذي الناس منها ولم يستطيعوا أن يجأروا بالشكوى. فالرواية تقول لهم لقد أوذي الأنبياء من قبل ولاقوا في سبيل دعواتهم ما لاقوا. فليكن لهم باتباعهم أسوة وعسى أن ينتهي الليل ويأتي النهار».. ورغم ما في قراءته من إشارات ذكية إلا أنه انتقد «إغراق الرواية في الشراب والسكر والمخدرات حتى الأنبياء المصلحون الذين اختارهم لم يبتعدوا عن الغرز ولم يتنزهوا عن الشرب والتحشيش، ولكن هذه خصيصة نجيب، فمعظم رواياته تحوي هذه المظاهر، ويبدو أنه لانغماسه في الحياة الشعبية لاحظ هذه

---

(١٣٤) جريدة مايو، تحقيق محمد وهدان.

الظاهرة وهي لا تزال شائعة في حياتنا المصرية رغم التشدد ورغم قسوة العقوبات».

وكشف الشيخ أنه التقى نجيب محفوظ لمناقشته في الرواية.. وأن المباحث العامة هي التي قدمت الرواية للأزهر، وطلبت أن يصادرها ذلك لأن الأزهريين «لا يقرأون هذا اللون من الأدب القصصي» كما أخبره بذلك نجيب محفوظ. صدرت المقدمات التي كتبت للرواية، ولكن الرواية نفسها لم تصدر، ولم يكتب شيخ الأزهر أي شيء يتعلق بها!

لم يتحمس محفوظ لنشر الرواية، في ذلك الوقت، قال لجمال الغيطاني ويوسف القعيد وهو لم يكن قد تعافى بعد من آثار محاولة الاغتيال عندما علم بمحاولات نشر الرواية: «مش كفاية اللي أنا فيه، هوه شوية؟».. وقال محفوظ في تصريحات للأهرام أنه يخشى الآن بعد إساءة تفسير الرواية: «ألا يتمكن القارئ من قراءتها بموضوعية، وإنما سيقرأها بغرض البحث عن هذا التفسير، ولما كانت الرواية رمزية، فليس من الصعب أن يحملها القارئ التفسير الذي يريده»[١٣٥].

وبرر إصراره على عدم النشر بأن القضية الآن هي محاولة اغتيال كاتب. ونشر الرواية سيجعلها طرفًا في القضية، وربما أصبحت

(١٣٥) الأهرام، ٢٧ أكتوبر ١٩٩٤.

الحكاية كلها هي حكاية الرواية وموقفها من الأديان. وأضاف محفوظ حسبما روى يوسف القعيد: «فالرواية لن تقرأ في هذا السياق سوى قراءة دينية، في حين أن المفروض أن تكون القراءة أدبية فحسب. ولو تم هذا، فسيفتح الباب إلى اعادة النظر في الأدب الروائي كله من خلال الدين فقط. إن المطلوب الآن هو الكفاح بالشرح والتحليل لرفع تهمة الكفر عن الرواية وتهمة الارتداد عن مؤلفها. أما نشرها فيمكن أن يتم بعد هذا»[١٣٦].

في ذلك الوقت - بعد الحادث - زاره محمد الغزالي الذي كتب أول تقرير طالب فيه بمنع الرواية، وكانت الزيارة إعلانًا منه لرفض محاولة الاغتيال. وقد روى يوسف القعيد تفاصيل اللقاء، وقد علق الغزالي على إتاحة الرواية في مصر قائلًا: إن «السموم أيضًا تنتشر خلسة والناس تقبل عليها»، وشدد على أنه ضد الرواية ولكنه أدان محاولة الاغتيال التي «لا يقرها شرع ولا دين». وردًّا على التمهيد للمحاولة ببعض الكتب التحريضية ومنها كتاب الشيخ كشك «كلمتنا في الرد على أولاد حارتنا» قال الغزالي إنه «رجل جاهل». محفوظ أنهى الحوار بالتأكيد على أنه يحترم موقف الغزالي من الرواية: «كل ما هو آراء مرحب به، ولكن المشكلة فيها ليس رأيًا، وإنما في الذين يقتلون»[١٣٧].

---

(١٣٦) مجلة الوسط، ٧ نوفمبر ١٩٩٤.

(١٣٧) يوسف القعيد، المصور، ٢ ديسمبر ١٩٩٤.

لم يكن محفوظ يرى ضررًا في الرأي مهما كان متطرفًا، لم يكن غاضبًا من منتقدي «أولاد حارتنا» بقدر ما أغضبته فتوى القتل التي أطلقها عمر عبد الرحمن أحد أنجب تلاميذ الأب الروحي لجماعات العنف الديني سيد قطب، والذي كان كتابه «معالم في الطريق» المرجعية لكل التيارات الجهادية التي وجدت في العنف أساسًا لها، وكان الكتاب غطاءً شرعيًّا يبرر عملياتها. بدت الطعنة في عنق نجيب محفوظ وكأنها من صديق قديم. ولكن كيف التقى قطب ومحفوظ.. وكيف افترقا؟ وربما استعاد محفوظ -وهو على فراش المرض- علاقته الطويلة بقطب.

في مواجهة سيد قطب

كان محفوظ ينفر بشدة بحكم تكوينه الليبرالي من أي جماعة ترى أنها تمتلك الحقيقة المطلقة. وقد حاول العديد من أصدقائه بعد انتشار أفكار جماعة الإخوان وبزوغ نجم حسن البنا أن يقنعوه بأن «يأخذ فكرة عن الجماعة»، حاول ذلك بقوة الروائي وناشر محفوظ عبد الحميد جودة السحار، بل حدد له موعدًا مع حسن البنا، لكن عميد الرواية رفض اللقاء، مبررًا ذلك بأن جماعة الإخوان في مصر الفتاة مجرد تنظيمات «فاشية وانتهازية في الوقت ذاته». قال له السحار: «تعال قابل البنا وبعدين احكم». ولكن محفوظ لم يكن يطيق هذه السيرة أبدًا»[١٣٨].. معلنًا كراهيته المطلقة للجماعة،

(١٣٨) إبراهيم عبد العزيز، أنا نجيب محفوظ.

قال لغالي شكري: «أما الذين كرهتهم منذ البداية، فهم الإخوان المسلمون، الإخوان في البداية كانت جمعية دينية تضم وفديين وغير وفديين، ولكن عندما وجدناهم بدأوا ينافسون الوفد، عاديناهم، كنا نعتبر أي منافسة للوفد بمثابة إضعاف لقوته الضاربة».

وقد حاول محفوظ أن يقدم صورة بانورامية لمجتمع القاهرة منتصف الأربعينيات، في روايته «القاهرة الجديدة» (١٩٤٥) التي تناول فيها الصراعات الفكرية والإيديولوجية في تلك الفترة، واختار محفوظ الشخصيات الرئيسية في الرواية ليعبر كل منها عن اتجاه فكري.

وكان مأمون رضوان في الرواية ممثلًا لما يمكن تسميته للاتجاه الإسلامي، تحديدًا إلى جماعة الإخوان المسلمين، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يظهر فيها «إخواني» في الرواية العربية.

كان مأمون «شابًا ريفيًّا محافظًا من الكافرين بالبدع الحديثة والثائرين عليها، يحلم باستعادة مجد الخلافة الإسلامية الغابر»، وكان يطلق عليه في الجامعة «المهدي غير المنتظر»، أو «إمام الإسلام في عصرنا هذا».. ويسخر الراوي من اتجاهه الفكري: «قديمًا أدخل عمرو بن العاص الإسلام في مصر بدهائه، وغدًا يخرجه منها مأمون رضوان بثقل دمه». واختتم محفوظ روايته بنبوءة الصراع المستقبلي بين مأمون كممثل لجماعة الإخوان، وعلي طه اليساري، وربما هو نفس الصراع الذي انتهت عليه ثلاثية محفوظ أيضًا بين الأخوين أحمد وعبد المنعم شوكت.

ل! لمت النقاد لقاهرة محفوظ الجديدة وقت صدورها، وهو ما
ا . قف سيد قطب الذي شن ضدهم حملة هجوم شديدة، معتبرًا
أن هذه الرواية لا تقل شأنًا عن روايتي «أهل الكهف» و«شهرزاد»
ا . موق الحكيم، واعتبرها أيضًا، وما سبقها من أعمال لمحفوظ: «نقطة
الـ.. الحقيقية في إبداع رواية قصصية عربية أصيلة، لأول مرة يبدو
الطعم المحلي والعطر القومي في عمل فني له صفة إنسانية، في الوقت
الذي لا يهبط مستواه الفني عن المتوسط من الناحية المطلقة»[139].

■ ■ ■

لم يتغير موقف محفوظ تجاه الجماعة، التي كان يميل إليها صديقه
، ناشره السحار[140]، أو حتى عندما التحق بها سيد قطب وصار
مفكرها الأبرز. كانت بداية التعارف بينهما في لجنة النشر للجامعيين
التي أصبحت فيما بعد «مكتبة مصر»، وقد أنشأها سعيد جودة
السحار بالاشتراك مع أخيه عبد الحميد، ويقول عنها محفوظ:
«أسست لجنة النشر للجامعيين، في زمن كان الجيل كله من الأدباء،
و أقصد الجيل التالي بعد الرواد، يعاني مشكلة النشر، كانت لدينا
جميعًا كتب محبوسة، وحين أنشئت اللجنة، بدأنا ننشر بانتظام».
وكان سيد قطب قد سبق هؤلاء الشباب في عالم الأدب، وكان يقوم
بتشجيعهم، عبر الكتابة عن هذه الأعمال، وكثيرًا ما كان محفوظ

(١٣٩) على هامش النقد: القاهرة الجديدة، مجلة الرسالة (عدد ٧٠٤، ٣٠ ديسمبر ١٩٤٦).
(١٤٠) أنا نجيب محفوظ.

يذكر أن قطب أول ناقد أدبي التفت إلى أعماله وكتب عنها. والحقيقة أن سيد قطب لم يكن أول من كتب عن نجيب محفوظ، لكنه بلا شك أول من لفت إليه الأنظار بقوة[١٤١]، خاصة أن المقالات التي كتبت عن محفوظ قبل قطب كانت في معظمها مقالات صحفية أو كتبت بحكم الصداقة.

كانت المرة الأولى التي كتب فيها قطب عن محفوظ عقب صدور رواية «كفاح طيبة» التي كتب عنها في مجلة «الرسالة» عام ١٩٤٤ «لو كان لي من الأمر شيء لجعلت هذه القصة في يد كل فتى وكل فتاة، ولطبعتها ووزعتها على كل بيت بالمجان، ولأقمت لصاحبها - الذي لا أعرفه - حفلة من حفلات التكريم التي لا عداد لها في مصر، للمستحقين وغير المستحقين». بعد هذه المقالة كتب قطب ثلاث مقالات أخرى في مديح محفوظ عن روايات «خان الخليلي»، و«القاهرة الجديدة»، وأخيرًا «زقاق المدق» ونشرت في مجلة «الفكر الجديد». كما كتب قطب عن محفوظ في رسالة له أرسلها من أميركا إلى توفيق الحكيم (نشرت أيضًا في مجلة «الرسالة» عام ١٩٤٩) مَدح في رسالته تلك يحيى حقي «الذي استلهم أعماق الطبيعة المصرية، وهو يصور الإيمان بكرامات الست أم هاشم، وما يتصل بها من عقائد وأساطير»، كما كتب عن محفوظ «الذي يصور في أعماله سخرية القدر وآمال الناس وأحلامهم».. ويختتم قطب رسالته

(١٤١) رجاء النقاش، في حب نجيب محفوظ.

انا واثق أنه سيكون لنا أدب خالد وأنه ستكون لنا حياة فكرية وإنسانية ملحوظة ذلك يوم نؤمن بأنفسنا، يوم نشعر أن لدينا ما نمليه، يوم نستلهم طبيعتنا الأصلية، يوم نهتدي في ذواتنا إلى النبع العميق».

مع سعادة محفوظ بكتابات قطب، واعتباره أنها أول إشارة حقيقية إلى موهبته الصاعدة، إلا أن هذه الكتابات كانت احتفائية تبشيرية ذات طابع دعائي أكثر من كونها نقدًا حقيقيًّا، لم يتخلص فيه قطب من حديثه عن «الهوية» والبحث عن أدب «قوي واضح السمات متميز المعالم، ذي روح مصرية خالصة من تأثير الشوائب الأجنبية - مع انتفاعه بها - نستطيع أن نقدمه - مع قوميته الخاصة - على المائدة العالمية»، كما أن قطب اعتبر «زقاق المدق»: «قصة الصراع بين الروح والمادة، بين العقائد الدينية والخلقية والاجتماعية والعلمية، بين الفضيلة والرذيلة، بين الغنى والفقر، بين الحب والمال في مضمار الحياة». في كل كتاباته النقدية كان سيد قطب يبحث عن ثنائيات داخل العمل، هذه الثنائيات انتهت به في ما بعد إلى تقسيم العالم إلى معسكرين «مسلمين وكافرين». لم يكن قطب مدركًا بحساسية الناقد أن الأديب ليس مجرد زعيم سياسي أو داعية، إنما مجرد لاعب، يستمتع وهو يكتب ويمنح الآخرين أيضًا متعة اللعب والتأمل معه!

لم تكن علاقة محفوظ وقطب علاقة تلميذ بأستاذه، إذ لم يكن عميد الرواية يُخفي أنه تلميذ لاثنين، الشيخ مصطفى عبد الرازق، وسلامة

موسى، أخذ من الأول كما يقول رجاء النقاش «نظرته المستنيرة إلى التراث العربي والإسلامي»، ومن الثاني «التطلع إلى التجديد الحضاري، والدعوة إلى العدالة الاجتماعية، ورد الاعتبار للجذور القديمة للشخصية المصرية»، لذا يمكن اعتبار علاقته بقطب علاقة احترام لا صداقة أو تلمذة، علاقة «أدبية أكثر من كونها علاقة إنسانية» بتعبير محفوظ نفسه، إذ كان قطب يتردد على ندوة الأوبرا التي كان يقيمها محفوظ كل يوم جمعة.

وكما كتب قطب عن محفوظ، كتب محفوظ أيضًا عن قطب ثلاث مقالات. الأول عندما صدر كتاب قطب «التصوير الفني في القرآن»، المرة الثانية، عندما صدرت رواية قطب «أشواك» عن (دار سعد عام ١٩٤٧) وكتب عنها محفوظ مقالًا نشره سيد قطب نفسه في صحيفة «السوادي» التي كان يعمل بها محررًا ثقافيًا. هذا المقال ينفي عدم اهتمام النقاد بما كتبه قطب، حتى إن البعض كتب أن الرواية لم يكتب عنها أي ناقد، مما أصاب قطب بكراهية للوسط الأدبي والثقافي، ويثبت مقال محفوظ أن «رواية قطب» هي سيرة ذاتية لقصة حبه، مستشهدًا بالإهداء الذي قدم به قطب الرواية، «إلى التي خاضت معي في الأشواك، فدَميتْ ودميتُ، وشقيتْ وشقيتُ، ثم سارت في طريق وسرت في طريق، جريحين بعد المعركة، لا نفسها إلى قرار، ولا نفسي إلى استقرار». لم يثمن محفوظ في مقالته الرواية، رآها «تجربة شخصية، فهي معفاة من ضرورات الخلق في الموضوع والشخوص،

ما ينبغي أن نذكر أن القاص لا يستحق هذا الاسم حقًا حتى يخرج من نطاق ذاته، ويكتب عن الآخرين!

المرة الثالثة التي كتب فيها محفوظ عن قطب، في روايته «المرايا»..
حول قطب إلى شخصية ورقية خيالية، وكعادة محفوظ وظف خبراته بالشخصيات التي عرفها إلى مصدر من مصادر إبداعه، لكنه لا يسرد حيوات هذه الشخصيات كواقع، وإنما يحاول ترميزها وإثقالها بالمعاني. في «المرايا» حمل سيد قطب اسم «عبد الوهاب إسماعيل» راصدًا تحولاته: «إنه اليوم أسطورة، وكالأسطورة تختلف فيه التفاسير، وبالرغم من أنني لم ألق منه إلا كل معاملة كريمة أخوية إلا أنني لم أرتح لسحنته ولا لنظرة عينيه الجاحظتين الحادتين..».
ويضيف محفوظ «وبالرغم من أن عبد الوهاب إسماعيل لم يكن يتكلم في الدين، وبالرغم من تظاهره بالعصرية في أفكاره وملابسه وأخذه بالأساليب الإفرنجية في الطعام وارتياده دور السينما، إلا أن تأثره بالدين وإيمانه بل وتعصبه لم يخف عليَّ. أذكر كاتبًا قبطيًا شابًا أهداه كتابًا له يحوي مقالات في النقد والاجتماع، فحدثني عنه فقال: إنه كاتب مطَّلع حساس وذو أصالة في الأسلوب والتفكير. فسألته ببراءة متى تكتب عنه، فابتسم ابتسامة غامضة وقال: لن أشترك في بناء قلم سيعمل غدًا على تجريح تراثنا الإسلامي بكافة السبل الملتوية.. وأضاف: لا ثقة لي في أتباع الأديان الأخرى»!

■ ■ ■

بدأ سيد قطب مشواره الأدبي بالكتابة الساخرة في المجلة الفكاهيه الساخرة «إشمعنى» التي أصدرها فنان الكاريكاتير المصري رخا، وصدر منها ثلاثة أعداد في نهاية عام ١٩٢٩ وبداية ١٩٣٠ وكان رخا (كما يقول في مذكراته التي صدرت في أخبار اليوم) قد تعرف على قطب عام ١٩٢٨ في مكتب صاحب جريدة «البلاغ» عبدالقادر حمزة الذي لمح في قطب الذكاء والموهبة وجعله مسؤولًا عن صفحه الشعر في «البلاغ الأسبوعي»، فكان يتلقى رسائل القراء من هواة الشعر ويختار منها الأجود فينشره، فإذا لم يجد شيئًا جديرًا بالنشر اختار قصائد من عيون الشعر وقام بنشرها. كتب قطب عدة مقالاته في المجلة الفكاهية كان الأول بعنوان «حماتي» ينم عن كاتب كاريكاتيري ساخر من الطراز الأول... أما المقال الثاني فكان بعنوان «صديقنا الشاعر».. هذا الساخر كتب فيها بعد في صحيفة الأهرام مقالًا في ٧ أكتوبر ١٩٣٧ يدعو فيها إلى العري التام مؤكدًا أن: «نشر الصور العارية ووصف الحالة على الشواطئ فيهما من الإغراء أكثر مما في الأجسام العارية نفسها، الصورة والوصف يتركان المجال واسعًا للخيال، أما الجسم العاري نفسه فالخيال أمامه محدود وما تلبث النفس أن تشبع من النظر إليه. أيها المصلحون الغيورون على الأخلاق، أطلقوا الشواطئ عارية لاعبة فذلك خير ضامن لتهدئة الشهوات الجامحة وخير ضامن للأخلاق».... وقال في المقال نفسه: «ليس في الجسم العاري على (البلاج) فتنة لمن يشاهده ويراه

ل يحاول عينه كل لحظة. وفتن الأجسام هناك، هي المستترة في (الـ ...س) أو (الفستان) أما في (المايوه)، فهي لا تجذب ولا تثير.
وإن أثارت شيئًا فهو الإعجاب الفني البعيد - بقدر ما يستطاع - عن الـ طرة المخوفة المرهوبة».
الفرق بين البدايات والنهايات شاسع وخاصة إذا قارنا بين مواقف «قطب الليبرالية تلك، ومواقفه بعد تحولاته المثيرة، فبعد قيام ثورة يوليو عمل قطب مستشارًا «عماليًا» لعبد المنعم أمين أحد الضباط الأحرار والذي كان منتميًا لجماعة الإخوان، في تلك الفترة كتب «قطب مقالًا يدعو إلى إعدام «خميس والبقري»، وطالب بمنع قيام اتحاد للعمال، كان قد أعلن عن تأسيسه في سبتمبر ٥٢. ولقرب سيد قطب من كثير من قيادات الثورة نصحهم بمنع إذاعة الأغاني في الإذاعة، مطالبًا بإسكات تلك «الأصوات الدنسة» مثل محمد عبد الوهاب، أم كلثوم، فريد الأطرش، محمد فوزي، ليلى مراد، سيد درويش، عبد العزيز محمود، لأن الإذاعة على حد تعبيره قد تفانت في إرضاء الملك لمدة ربع قرن وبات المطلوب تربية جديدة للشعب تظهر رجولته وأن مادحي الملك والمنشدين تحبهم الجماهير كما يحبون المخدرات.. فواجبات الثورة صيانة الضمائر والأخلاق من التميع والشهوات المريضة، واشترط وقتها ألا تذيع الإذاعة سوى الأغنيات الدينية المكتوبة بالعربية الفصحى، وكان أن استيقظ المستمعون ليجدوا أن الإذاعة لا تذيع سوى أغنيات «ولد الهدى»،

و«سلوا قلبي» وحدهما دون أي شيء آخر، مل المصريون فهجروا إذاعتهم إلى إذاعة الشرق الأدنى، وخاصة أن صوتًا جديدًا قد بدأ يظهر وقتها (فيروز اللبنانية) استطاع أن يجذب المستمعين، وكانت إذاعة الشرق الأدنى ذات توجهات استعمارية، ارتبطت بقوة بالاستعمار البريطاني، وكان المصريون يستمعون إلى نشرات الأخبار التي تبثها، ولم يعودوا إلى الاستماع إلى أخبار الإذاعة المصرية... غضب عبد الناصر بشدة من القرار، وعقد اجتماعًا لمجلس قيادة الثورة لمناقشة الأمر، فألغى القرارات السابقة التي ظل العمل بها ١٨ يومًا، ولكن المصريين أيضًا لم يعودوا يأبهون بالإذاعة المصرية، ظلت إذاعة الشرق الأدنى مصدرًا لأخبارهم.. وكانت تعليمات عبد الناصر أن تبدأ الإذاعة في تقديم مسلسل جديد في نفس وقت إذاعة نشرة أخبار «الشرق الأدنى»!

فقد قطب قدرته على الابتسام، عندما مضى في طريق آخر يُكفِّر فيه المجتمع، كما يصف نجيب محفوظ آخر لقاء جمعه بقطب في بيته بحلوان بعد خروجه من السجن وقبل عام من إعدامه «في تلك الزيارة تحدثنا في الأدب ومشاكله، ثم تطرق الحديث إلى الدين والمرأة والحياة، وكانت المرة الأولى التي ألمس فيها بعمق مدى التغيير الكبير الذي طرأ على شخصية سيد قطب وأفكاره.. لقد رأيت أمامي إنسانًا آخر.. حاد الفكر.. متطرف الرأي.. يرى أن المجتمع عاد إلى (الجاهلية الأولى) وأنه مجتمع كافر لا بد من تقويمه بتطبيق شرع الله،

انطلاقا من فكرة (الحاكمية) لا حكم إلا لله.. وسمعت منه آراءه،
دون الدخول معه في جدل أو نقاش.. فماذا يفيد الجدل مع رجل
وصل إلى تلك المرحلة من الاعتقاد المتعصب؟!». يضيف محفوظ
«في تلك الزيارة كان مع قطب مجموعة من أصحاب الذقون، لم
يكن قطب يشبه صديقي القديم الذي عرفته فيه، وأردت أن أكسر
حدة الصمت الثقيل، فقلت دعابة عابرة، وافترضت أن أساريرهم
ستنفرج وسيضحكون، ولكنهم نظروا إليَّ شزرًا، ولم يضحك أحد
حتى سيد نفسه، وعندها غادرت البيت صامتًا، وشعرت بمدى
التحول الذي طرأ عليه». لم يضحك قطب على مزحة محفوظ، فأدرك
محفوظ أنه أمام شخص آخر غير الذي عرفه...
محفوظ وقطب كانا نموذجين مختلفين، كلاهما باحث عن حقيقة
ما، لكن قطب كان صاحب مشوار مليء بالانقلابات والتغيرات
الحادة، كل مرة يصل إلى طريق يجد أنه طريق مسدود، سواء أكان في
أحضان السلطة (أكانت الوفد أو ثورة يوليو التي عمل مستشارًا لها
في فتراتها الأولى).. وليس نهاية بإحساسه أنه يمتلك الحقيقة المطلقة،
التي تجيز له أن يُكفِّر المجتمع كله، بينما ظل نجيب محفوظ يقاوم
السلطات تارة، وكُتَّاب التقارير وصناع الطغاة، وسكاكين المتطرفين
وكل الصعوبات التي كادت تحول بينه وبين الكتابة تارات وتارات.

النشر بالإكراه

فشلت محاولة اغتيال نجيب محفوظ، ونجا من الموت. لكن بعد أسابيع
قليلة على خروجه من المستشفى، وقبل أن يتعافى تمامًا، كانت هناك
مفاجأة في انتظاره، إذ وجد نفسه متهمًا ومطلوبًا في القضية (رقم ١٧٨٧
لعام ١٩٩٥ جنايات المنصورة)، وكان أحد المحامين ويدعى السيد
عبد الرحمن من المنصورة قد أقام دعوى ضد محفوظ يتهمه فيها بازدراء
الأديان، وإضافة اسم جديد إلى أسماء الله الحسنى وهو «الجبلاوي»،
وهي تهم تستوجب الحبس والغرامة، بل والتفريق بينه وبين زوجته
قياسًا على ما حدث لنصر أبو زيد. كانت هذه هي المرة الأولى التي
تصعد فيها «أولاد حارتنا» إلى المحكمة، فرغم كل الجدل الذي أحدثته
لكنه ظل جدلًا مكتوبًا في مقالات أو بيانات رسمية تصدر من مجمع
البحوث الإسلامية، أو اتفاقات شفاهية بعدم النشر داخل مصر.

اعتمد المحامي في دعواه القضائية على ما نشرته صحيفة «الأخبار»
بأن محفوظ عندما أفاق من التخدير سأل زوجته عن موعد إجراء
الجراحة له. فقالت له: لقد تم إجراء الجراحة. فضحك محفوظ
وقال: «إذن الجبلاوي راضي عني». حسب تحقيقات النيابة، لم
يقرأ المحامي «أولاد حارتنا». (مثله مثل من حاول اغتيال محفوظ)
بل قال في التحقيق: «حاشا لله أن أقرأها لما تنطوي عليه من
خروج»!
ترافع عن محفوظ طوال الجلسات المحامي أحمد السيد عوضين الذي
نشر تفاصيل المحاكمة والمرافعة في كتابه «محاكمة أولاد حارتنا».
وبعد خمس جلسات على امتداد الفترة من ٢٣ مايو وحتى ٣٠
نوفمبر ١٩٩٥، قضت المحكمة بعدم قبول الدعوى لانتفاء شرطي
المصلحة والصفة، وألزمت المدعي بالمصروفات. عدم الحكم ببراءة
محفوظ يفسره محاميه بأن «القانون يوجب على المحكمة ألا تتصدى
للحكم في موضوع أية دعوى إلا بعد أن يُقضى في الدفوع الشكلية،
أو بعبارة أخرى أن الحكم لا يعرض للموضوع إلا بالنسبة لدعوى
مقبولة شكلًا، فإذا شاب الشكل عيب يجعل الدعوى غير مقبولة،
توقف القضاء عند ذلك وحكم بعدم قبول الدعوى لثبوت ذلك
النقص الشكلي في شروط قبولها، وعلى رأسها انتفاء شرط المصلحة
بالنسبة للمدعي!».
وفي نفس التوقيت طلب المفكر الإسلامي خالد محمد خالد أن

بكتب مقدمة للرواية. وبالفعل التقى بمحفوظ وسأله عدة أسئلة عن الرواية وأجابه محفوظ عن ظروف نشر الرواية، وكيف فهمها الأزهر. قال محفوظ: «الأزهر قرأها باعتبارها تاريخًا وليس كونها عملًا فنيًا». وأوضح:

عندما أسأل نفسي الآن «أولاد حارتنا» كيف كتبتها ولماذا؟، الحقيقة أنني كنت في ظروف سنة ١٩٥٩ قد بدأت أشعر بشيء من الخيبة بالنسبة لثورة يوليو ١٩٥٢، فهي جاءت وحققت أعمالًا عظيمة، ولكن بدأنا نسمع اليوم قُبض على فلان، اليوم يعذبون فلانًا، وفيه ناس بتستفيد فوائد كبيرة جدًا إلى أن أصبحوا أكثر من الإقطاعيين، وأشياء من هذا النوع، وبدأ الواحد بعد الفرحة الأولى يرمش شوية، فصورت حارة مصرية تمامًا، فريق فتوات تريد أن تنهبه، وفريق آخر طيب يريد أن يحافظ على وصية (الوقف).. وهذه كلها حاجات مصرية، ومن الرؤية السياسية في الوقت نفسه كنت أفكر في مظلة من تاريخ الإنسانية، ففكرت في الوصية الكبرى، وفي هؤلاء الناس الذين حاولوا تحقيقها للإنسانية، وكأنني أريد أن أقول من خلال هذا لرجال الثورة في الآخر: أنتم مع أي فريق، فريق الفتوات، أم مع فريق الرسل، وهذا هو الذي كان في ذهني عندما كتبت، هل

هذا طلع بالظبط أم أن هناك أشياء أخرى طلعت معاه؟ هذه هي الحكاية كلها، والأمر الذي لا شك فيه أنني في حياتي لم يأت إليَّ شك في الله، وإذا كنت قد بدأت أفهم الدين فهمًا خاصًّا في وقت المراهقة، فإنني فهمت الإسلام على حقيقته تمامًا بعد ذلك. وأضاف محفوظ: إنك حين تكتب عملًا أدبيًّا فإنك قد تكون لك فكرة وتكون للقارئ فكرة أخرى، وللناقد فكرة ثالثة، والله أعلم أيها الصحيح، لكن تلك هي سمة الفن فهو يشع بالمعاني ولا يتوقف القارئ عن اكتشاف معانٍ جديدة فيه كلما قرأت، لكن الكتب الفكرية كتب ذات معنى واحد محدد. والبعض نظر إلى أولاد حارتنا ككتاب فكري، وهكذا ضاعت معانيها، لأنها لم تُقرأ كرواية ولم تفهم إلا بمعنى واحد محدد[١٤٢].

وفي إحدى جلسات الحرافيش تطرق الأمر إلى «أولاد حارتنا»، فقال محفوظ:

«رواية «أولاد حارتنا» عمل حرمته الظروف من النقد»، موضحًا: «هذا عمل سياسي في المقام الأول، عمل يقدم رؤية سياسية، والمقصودون بالعمل فهموا معناه، وعرفوا من المقصود بالفتوات،

(١٤٢) نجيب محفوظ، أستاذتي إعداد وتقديم: إبراهيم عبد العزيز، دار ميريت، ٢٠٠٢.

لذلك أرجح أنهم كانوا وراء تحويل الأمر إلى الناحية الدينية لكي أقع في شر أعمالي»[١٤٣].

وهكذا تتواصل تفسيرات محفوظ المتعددة، المتقاطعة أحيانًا، والمتعارضة أحيانًا أخرى على مدى فترات زمنية مختلفة. بعد نجاته من محاولة الاغتيال، كان تفسير محفوظ للرواية سياسيًا بحتًا، على العكس من المرات السابقة، التي كان يراوح فيها بين تفسيرات «دينية» طوال سنوات الستينيات، وبين خليط ما بين الديني والسياسي في السبعينيات والثمانينيات. وهذا التحول لم يكن مقصورًا على محفوظ نفسه، بل امتد أيضًا إلى عدد من النقاد الذين اختلف تفسيرهم النقدي للرواية، ومن بين هؤلاء محمود أمين العالم الذي رأى الرواية بعد صدورها:

«ليست كما يقال تأريخًا للبشرية، وليست تأريخًا خاصًا لمصر، وإنما هي ببساطة -فيما أعتقد توكيد أن جوهر الدين هو العدالة، هو الأمن هو الكرامة، هو الحرية، هو المحبة، هو الخير، هو التقدم للإنسان. وهي توكيد كذلك أن هذا الجوهر الإنساني للدين يجعل من العلم امتدادًا واستمرارًا لرسالة الأديان، بل هو وسيلة لتحقيق أنبل أهدافها»[١٤٤].

حادث الاغتيال قدم تفسيرًا مختلفًا، إذ اعتبر أن جوهر الرواية:

---

(١٤٣) أخبار الأدب، ٢ ديسمبر ٢٠٠١.

(١٤٤) ١ يوليو ١٩٦٥، الهلال.

هو النقد القيمي الفكري الرمزي للسلطة الناصرية، للتناقض بين شعاراتها ومبادئها وبين بعض ممارساتها، وخاصة تلك المتعلقة بالديمقراطية السياسية. إلا أن الرواية في الوقت نفسه تسعى لتقديم رؤية تبشيرية تزيل بها هذا التعارض بين المثال والواقع، بين السلطة والمجتمع، بين السياسي والأخلاقي، بين النظري والعملي، بين الموضوعي والذاتي في مصر بشكل عام[١٤٥].

ثلاثون عامًا مسافة زمنية كافية لكي يقدم فيها محمود أمين العالم وجهتي نظر متعارضتين لرواية واحدة، الأمر ذاته حدث في مواقف بعض رجال السلطة الذين وافقوا على نشر الرواية بعد محاولة الاغتيال، ورفضوا ذلك بعد نوبل، وهو ما جرى أيضًا في بعض مواقف تيارات الإسلام السياسي.

في ديسمبر ٢٠٠٥، وفي أعقاب الانتخابات البرلمانية التي انتهت بنجاح ٨٨ عضوًا ينتمون لجماعة الإخوان في الدخول إلى البرلمان، ذهب عضو «مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان» عبد المنعم أبو الفتوح إلى نجيب محفوظ ليهنئه بعيد ميلاده، كانت - كما قال أبو الفتوح - الزيارة بـ «مبادرة فردية» منه، لأنه يحمل تقديرًا خاصًا لنجيب محفوظ الذي كتب ضد الاستبداد حينما كان أعضاء الجماعة تحت

(١٤٥) «حكاية أولاد حارتنا»، كتاب اليوم، أخبار اليوم، ١٩٩٤.

مقاصل التعذيب في الخمسينيات والستينيات، كما أنه يريد أن يرسل رسالة عبر الزيارة بأنَّ أدباءَ مصر محلُّ تقديرٍ واحترام، وأنه لا معنى لما يقوم به بعضُ الكتابِ من تفزيعٍ للمثقفين والأدباءِ من الإخوان المسلمين بعد وصولهم بهذا العددِ للبرلمانِ المصري. كانت «أولاد حارتنا» حاضرة في الزيارة، قال أبو الفتوح أنه لا يمانع في نشر الرواية، بل إنه يلوم محفوظ الذي وضع شرطًا بموافقة الأزهر قبل نشرها. محفوظ استمع.. وقال: «إنه ضد موافقة جهات دينية على نشر الإبداع، ولكن «أولاد حارتنا» حالة خاصة[١٤١]».. حالة خاصة جدًّا!! . زيارة أبو الفتوح فتحت عليه بابًا من الهجوم داخل الجماعة، في إطار الصراع بين قياداتها، تفجرت أزمة بينه وبين جماعة الإخوان التي أعلنت أنها لا توافقه على ما قال، الحملة الشرسة على أبو الفتوح عبرت عن تيار قوي ما زال يرى أن «أولاد حارتنا» رواية كافرة وملحدة وكاتبها يستحق القتل، واضطر أبو الفتوح إلى نشر تصحيح قال فيه «إنه لا يتفق أو يوافق على بعض ما ورد في الرواية».

■ ■ ■

بعد أيام من هذه الزيارة، أعلنت دار الهلال أنها تجهز للقارئ في سلسلة روايات الهلال في منتصف يناير «مفاجأة كبرى.. وأهم حدث أدبي في العام الجديد».

(١٤١) أخبار الأدب، ١٨ ديسمبر ٢٠٠٥.

ورغم حرص الدار على أن يكون الأمر سرًّا ومفاجئًا للجميع بمن فيهم محفوظ نفسه، إلا أن مجدي الدقاق رئيس تحرير مجلة الهلال في ذلك الوقت خرج في أحد البرامج التلفزيونية ليعلن أن المفاجأة هي «أولاد حارتنا»، مؤكدًا أنه دفع بها إلى المطبعة وجهز غلافها واستخدم اللوحات التي نشرتها الأهرام أثناء النشر الأول للرواية في نهاية الخمسينيات. قال الدقاق: إنه لم يحصل على موافقة أي جهة أمنية: «أنا أستفيد فقط من المناخ الديمقراطي الموجود في مصر. وأرفض الحصول على أي ضوء أخضر أو أحمر من أية جهة سياسية أو دينية أو حزبية. لا توجد لديَّ مرجعية دينية أو سياسية أعود إليها عند نشر الإبداع، وليس من حق أحد أن يحتكر حق الإبداع والنشر»[147].. وأعتبر أن «أولاد حارتنا» لم تعد ملكًا خاصًّا لنجيب محفوظ. لذا من غير المقبول أن تظل الرواية ممنوعة في مصر تحت أية حجة أو سبب. إبداع نجيب محفوظ مثل أم كلثوم ليس ملكًا له وحده وإنما ملك للجميع[148].

محفوظ من جانبه طالب باحترام حقوقه، وأرسل إنذارًا إلى دار الهلال لوقف طبع الرواية، وكانت هذه من المرات القليلة التي لجأ فيها إلى القضاء، بحكم تركيبته الشخصية، وسلوكه الهادئ اختار دائمًا أن يواجه العواصف بطريقته الخاصة. وخاصة أن توقيت

---

(١٤٧) و(١٤٨) أخبار الأدب، ١٥ يناير ٢٠٠٦.

الإعلان عن النشر بدا كأنه مناورة سياسية أو محاولة بحث عن «بطولة» على حساب نجيب محفوظ أكثر من كونها محاولة للدفاع عن حرية الإبداع، وخاصة أن الدقاق كان قد نشر في يناير ٢٠٠٥ رواية «خريف الجنرال» للروائي حمدي البطران، وقام بحذف مقاطع اشتم فيها مساسًا بالنظام الحاكم في مصر. كان موقفه من «أولاد حارتنا» مجرد فرقعة صحفية، بالونة اختبار لموقف جماعة الإخوان بعد وصولهم إلى البرلمان من الإبداع واستفزازهم للتحرك ضد نشر الرواية سواء إظهار وجههم الحقيقي أمام المجتمع الدولي، أو إحراجهم أمام المثقفين وخاصة بعد زيارة عبد المنعم أبو الفتوح عضو مكتب الإرشاد لمحفوظ وتأكيده على عدم الاعتراض على نشر الرواية.

لم تنشر الرواية وقتها، لكن المحاولة طرحت أسئلة شائكة حول حرية الإبداع والنشر وبين الحقوق المالية والأدبية للكاتب. هل يمكن أن نعتبر نشر رواية أصبحت جزءًا من تاريخ الإنسانية ضد رغبة مؤلفها «اعتداء» جديدًا عليه وعلى ناشره الأصلي؟

احترم الجميع رغبة محفوظ في عدم نشر الرواية، إذ لم يكن راغبًا إلى اخر لحظة في حياته في طباعتها لخشيته من ردود الفعل على أسرته التي لطالما أبقاها بعيدًا عن الأضواء. لذا اشترط موافقة الأزهر، وأوضح موقفه في تحقيقات النيابة معه بعد حادث محاولة اغتياله:

أولاد حارتنا، رواية إسلامية إيمانية مظلومة، وهذا ما

جعلني لا أوافق على نشرها في مصر إلا بعد موافقة الأزهر عليها، أي بعد اتفاق الأزهر معي في فهمي لها، ولماذا أشترط ذلك؟ لأني لست ضد الدين، ولا ضد الأزهر، ولو كنت ضده، ولو كانت الرواية ضده، لدخلت في تحدّ للأزهر، ولسعيت لنشر الرواية رغمًا عن الأزهر، لكنني لست كذلك، فأنا لست ضد الأزهر، ولا ضد الدين، فأنا أزهري المولد والمنشأ، إنني أزهري مدني!(١٤٩)

ورغم اشتراط محفوظ موافقة الأزهر قبل نشر الرواية داخل مصر، إلا أنه رفض عرضًا تقدم به الشيخ عبد الظاهر عبد الرازق مدير إدارة البحوث والتأليف والنشر بأن يتقدم محفوظ نفسه بطلب لفحص الرواية، على أن يتم فحص الرواية من جديد دون النظر لقرارات المجمع السابقة بمنع الرواية. وقال مستشار شيخ الأزهر لشؤون الإفتاء علي أبو الحسن أنه لا مانع من نشر الرواية بشرط «إذا قام محفوظ بحذف الجمل والعبارات التي تسيء إلى زوجات الرسول والصحابة والرموز الإسلامية»(١٥٠). ومن جانبه رفض محفوظ بإصرار هذا العرض، واعتبر ذلك «سابقة خطيرة ضد الإبداع وحريته».

الموقف المتشدد ضد الرواية من جانب مجمع البحوث الإسلامية،

---

(١٤٩) روز اليوسف، ١٣ فبراير ٢٠٠٦.

(١٥٠) المصري اليوم، ١٩ يناير ٢٠٠٦.

قابله موقف أكثر فهمًا لطبيعة الإبداع، من جانب دار الإفتاء، حيث صرح الشيخ علي جمعة مفتي الجمهورية في لقاء له في معرض القاهرة الدولي للكتاب: «إن الأزهر لم يصدر قرارًا بمصادرة أولاد حارتنا التي يجب أن نتعامل معها كعمل فني لا يجوز أن نطبق عليها القواعد التي نطبقها على الكتاب الفكري» [١٥١].

ورغم هذا التصريح، أصر محفوظ على التمسك بالشرطين اللذين وضعهما لنشر الرواية في مصر، وأعاد تأكيد الأمر على ناشره الجديد «دار الشروق»، أن تسبق النشر موافقة «الأزهر»، وأن يكتب الدكتور أحمد كمال أبو المجد مقدمة للرواية. كان محفوظ يريد أن يحصل على جواز مرور لروايته ممهورًا بتوقيع من مفكرين لهم مصداقية عند جمهور الجماعات الإسلامية، خصوصًا إذا كانوا من غير المحسوبين على النظرة المتطرفة لموقع الدين في المجتمعات الحديثة، وهو الأمر الذي جرى بعد رحيله عندما كتب أحمد كمال أبو المجد مقدمة للرواية لتصدر في مصر في طبعة شرعية لأول مرة. وإن بدت المقدمة «الإسلامية» وكأنها صك براءة للرواية من تهمة المساس بالذات الإلهية والأنبياء، وهو ما كان يرفضه كثير من المثقفين.

(١٥١) أخبار الأدب، ٥ فبراير ٢٠٠٦.

٣٠ أغسطس ٢٠٠٦

«حسن الختام والموت في هدوء» هكذا كان يتمنى نجيب محفوظ.
وعندما سأله محمد سلماوي: ماذا تقصد بحسن الختام؟ أجاب:
«كان لي أخوان، مات أكبرهما بالسرطان، وكان يتعذب في أيامه الأخيرة، بينما أخي الثاني شرب شايًا وأسند رأسه إلى كتفي ومات في أقل من ثانية. أتمنى أن يكون موتي هكذا هادئًا»[١٥٢].

لكن محفوظ تعذب بالمرض في أيامه الأخيرة. بعد أن تعثرت قدمه وسقط في صالة منزله، دخل في غيبوبة، عندما أفاق منها قال «نفسي أروح»، لم يتمكن الأطباء من السيطرة على الحالة التي أخذت في التدهور على مدى ما يقارب الشهر ونصف.

(١٥٢) نجيب محفوظ، وطني مصر: حوارات مع محمد سلماوي، دار الشروق، ١٩٩٧.

رحل نجيب محفوظ، مساء التاسع والعشرين من أغسطس ٢٠٠٦، وتم تأجيل إعلان خبر الوفاة لحين إبلاغ رئاسة الجمهورية. وقبل الإعلان الرسمي كان رجال من أمن الرئاسة قد اتجهوا إلى المستشفى ليصبح جثمان محفوظ تحت «الرعاية» الكاملة لخبراء المفرقعات في رئاسة الجمهورية، منذ تلك اللحظة أصبحوا مسؤولين عن كافة تفاصيل الجنازة، ومسؤولين أيضًا عن تفتيش أفراد العائلة والأصدقاء تفتيشًا دقيقًا، حرصًا على سلامة الرئيس الذي سيشارك في تشييع أديب مصر. وبعد كل هذه الإجراءات كان لا بد من تمرير الجثمان في أجهزة كشف المفرقعات، وحراسته بعد ذلك ومنع أي أحد من الاقتراب منه حتى موعد الجنازة. لم يحلم محفوظ بجنازة شعبية، كانت مفاجأة لعائلته، ما دفع زوجته أن تخبر الأصدقاء المقربين أنه تمنى أن تخرج جنازته من مسجد «سيدنا الحسين» الحي الذي ولد وتربى فيه وارتبط به، ولكن هذا الحلم أيضًا لم يتحقق. إذ كان النعش الذي حُمل إلى مسجد الحسين فارغًا، بلا جثمان، بينما نقل جثمان محفوظ مباشرة إلى مسجد آل رشدان حيث الرئيس والجنرالات في الانتظار. لم يتحمل الرئيس السير في الجنازة سوى ثلاث دقائق فقط من أجل التصوير أمام الكاميرات، انسحب مع مرافقيه، وحراسه تاركين الجثمان.

■ ■ ■

يمكن اعتبار الجنازات الشعبية ترمومترًا دالًا لعلاقة السلطة

بالجماهير. كانت جنازة سعد زغلول- حسب وصف محفوظ لها- الأكبر والأعظم، رفعت فيها الجماهير النعش على أكتافها من ميدان الأوبرا وحتى مدافن الإمام. وكان الحزن شاملًا كل الفئات والطبقات والأحزاب.. فسعد هو «الأب الروحي للأمة كلها»(١٥٣).

وهو الأمر ذاته الذي حدث مع النحاس باشا، الذي فُرض عليه حصار شديد، ومنع من الظهور في كافة وسائل الإعلام، أو الإشارة إلى أي من أخباره فيها من عام ١٩٥٤ إلى يوم وفاته عام ١٩٦٥، ورغم أن السلطة الناصرية حذرت من «التجمع» وقامت بتهديد المشيعين بحجة أن الشعب مولع بالجنازات، فقد شارك في التشييع أعداد غفيرة للغاية واعتبرت الجنازة يومها رد اعتبار شعبيًّا للوفد وزعيمه. ولم تكن جنازة الفريق عبد المنعم رياض جنازة تقليدية عادية أيضًا، نحن أمام قائد عسكري استشهد برصاص العدو، وكان في الصفوف الأولى يتفقد قواته، لذا خرجت جموع المصريين بعفوية للمشاركة، حتى إن طاقم الحراسة الخاص بعبدالناصر اختفى تمامًا وسط جموع المشيعين هذه، ليحيط هؤلاء الناس بالرئيس وتتشابك أيديهم لتصبح طاقم حراسة بديلًا للرئيس.

الأمر ذاته حدث مع عبد الناصر نفسه الذي سار في جنازته أربعة ملايين مصري في القاهرة وحدها وأقيمت له جنازات شعبية في كل

(١٥٣) رجاء النقاش، صفحات من مذكرات نجيب محفوظ.

المحافظات، بل في عدد من الدول العربية. وحدث الأمر ذاته في جنازات عبد الحليم حافظ، وأم كلثوم وطه حسين، وهي الجنازات التي سار فيها الملايين، خرج الناس لوداعهم احتفالًا بقدرة الإنسان على الخلق والإبداع. أما محمد عبد الوهاب فقد كان حظه أنه مات في عهد مبارك، مثله مثل سعاد حسني، ومحفوظ، كانت جنازاتهم نموذجًا للجنازات الرسمية الباردة التي رعتها السلطة، وحرمت فيها الجماهير من المشاركة. لم تفكر السلطة للحظة في أن تكون مشاركة الجماهير في جنازة محفوظ رسالة ضد العنف والتطرف. لم تسمح بذلك خوفًا من الجمهور الذي حرم طوال عصر مبارك من أن يعبر عن فرحه أو حزنه، إلا ما كان تحت رعاية السلطة نفسها.

■ ■ ■

ولم تغب «أولاد حارتنا» - أيضًا- في مشهد الوداع الأخير، كان مشهدًا مثيرًا، فيه مكر الروائي الذي اصطف رجال السلطة، وشيوخها للصلاة عليه. هل كانت جنازة محفوظ مناسبة لإعلان المصالحة بين المؤسسة الدينية وبين محفوظ؟

سؤال طرحه مراسل صحفي على شيخ الأزهر سيد طنطاوي ومفتي الجمهورية علي جمعة ووزير الأوقاف حمدي زقزوق بعد أن انتهوا من صلاة الجنازة الأولى في مسجد الحسين. أغضب السؤال «حرافيش محفوظ»، قالوا: «إنه ليس من اللائق طرحه في مثل هذا التوقيت. آثر شيخ الأزهر الصمت، وأجاب المفتي باقتضاب: «هذا

محض اختلاق»، معتبرًا: «إن هذا يوم حزين لأننا نودع قمة من قممنا الأدبية، أحب مصر، والإنسانية»، أما وزير الأوقاف فألقى كلمة قصيرة وصف فيها محفوظ بأنه «هرم رابع، وضع الأدب العربي في مصاف الآداب العالمية».

في الوقت ذاته كما يحكي جمال الغيطاني «اندفع شاب معترضًا على الصلاة لأن محفوظ كافر»[١٥٤].

كانت جنازة محفوظ أكبر من مجرد «لقاء» كل الأطراف المتخاصمة معًا لوداع رجل تسامح مع الجميع واعتبر نفسه في الوقت ذاته خصمًا للجميع. في جنازة محفوظ حضرت السلطة بكاملها، والمؤسسة الدينية الرسمية، وممثلون لجماعة الإخوان رغم ترددهم في اتخاذ موقف إيجابي من نشر «أولاد حارتنا»، وسارعت الجماعة الإسلامية إلى إصدار بيان نعت فيه محفوظ وأقرت أن محاولة اغتياله لم تكن خطأ عامًّا في الجماعة، ورغم أن الجماعة عددت مناقب محفوظ في بيانها إلا أنها حمدت له «أنه رفض نشر أولاد حارتنا وطبعها إلا إذا وافق عليها الأزهر، وهذه والله نعتبرها رجوعًا منه عن القصة ونفضًا ليده منها وتوبة إلى الله من وزرها». بدا الأمر وكأن الجماعة تعتذر عن جريمتها القديمة في حق محفوظ، ولكن اعتذارها لم يكن كاملًا إذ افترض توبة محفوظ عن روايته.

---

(١٥٤) جمال الغيطاني، الأخبار، ٣٠ أغسطس ٢٠١٥.

لم يعلن محفوظ توبته عن الرواية كما تصورت الجماعة، كما لم يكن نعشه ملغمًا بالقنابل كما خافت السلطة. كان يسخر من الجميع، في إبداعه كما في مشهد الوداع الأخير. الذي لم يخلُ من طرفة؛ عن الرواية أيضًا. إذ تخيل البعض «محفوظ» وهو يوزع نسخًا من «أولاد حارتنا» على أبطالها الحقيقيين في السماوات، ويبتسم لكل منهم قائلًا: «اقرأ ما كتبته عنك»[١٥٥].

بعد أن انتهت الجنازة، تحول الهجوم من محفوظ إلى الشيوخ الذين قاموا بصلاة الجنازة عليه، فقد أصدرت «جماعة أنصار الشورى والسلام» في الكويت بيانًا بعنوان «اتقوا الله» هاجمت فيه شيخي الأزهر والمفتي لصلاتهما على محفوظ، والدعاء له بالرحمة: «كيف بالأمس تمنعون روايته ثم تصلون عليه اليوم وتدعون له بالرحمة والمغفرة؟»[١٥٦].

---

(١٥٥) وائل عبد الفتاح، الأخبار اللبنانية، ١٥ سبتمبر ٢٠٠٦.

(١٥٦) جابر عصفور، نجيب محفوظ القيمة والرمز.

الأرض الخراب

اللص المجهول الذي سطا على فيلا أمير الشعراء في اليوم الذي بدأ فيه نجيب محفوظ نشر «أولاد حارتنا» لم يعد مجهولًا، فقد سطا بعد أيام على فيلا أم كلثوم، وتمكن البوليس من القبض عليه، وحكى في التحقيقات أنه ارتكب ٥٨ جريمة. ولكنه تمكن من الهرب قبل محاكمته!

من جانبه لم يتوقف نجيب محفوظ طويلًا أمام الصخب والضجيج الذي أحدثته «أولاد حارتنا». فقد انشغل بذلك اللص الغامض، الذي أصبح حديث مصر كلها. حتى إن الكاتب يحيى حقي سأله: ماذا تقرأ هذه الأيام وما يشغلك؟ فأجابه: لا شغل ولا تفكير إلا في محمود أمين سليمان. يصف حقي المشهد:

كنت في هذه الفترة إذا دخلت عليه مكتبه - وكنا جارين في مصلحة الفنون ونخرج معًا - يذرعه جيئة وذهابًا، فكأني أوقظه من غيبوبة أو أرده من عالم مجهول إلى عالمنا، لو انطلق مدفع بجواره لما أحس به، يداه معقودتان وراء ظهره، رأسه مرتفع مائل للوراء، وأفهم من صوته أن ريقه جاف، لو نقرت على جسده لرن رنين قوس المنجد، بين الحين والحين يرفع يده إلى جبهته ويمسحها، كأنه يزيل عرقًا أو يهدئ حرارتها، يخيل للنظرة الأولى أن وجهه صارم متجهم مأزوم، ولكنه في الحقيقة وجه رجل مستغرق في تفكير عميق مستحوذ عليه[١٥٧].

■ ■ ■

نشر محفوظ «اللص والكلاب» بعد عام وثمانية أشهر من نشر أولاد حارتنا، تحديدًا في ١١ أغسطس ١٩٦١، وقتها كانت مصر تبني السد العالي، الثورة المصرية تدخل عهدًا جديدًا بإعلان ما سُمي بـ«القرارات الاشتراكية»، لا شيء معلن يعكر صفاء الوحدة المصرية السورية (التي ستنهار بعد شهر واحد من ذلك التاريخ). وكانت هناك بعثة ألمانية تزور مصر لبحث إقامة «محطة ذرية» في وادي حوف، والسلطة تبشر المواطنين بتخصيص ٣ ملايين جنيه لتحويل

(١٥٧) يحيى حقي، عطر الأحباب، ١٩٧١.

مدينة القناطر الخيرية إلى مدينة سياحية متكاملة، تضم أول مدينة عائمة للملاهي في الشرق. أغنيات «ثوار» لأم كلثوم، «بالأحضان» لعبدالحليم حافظ، «الجيل الصاعد» لعبد الوهاب والمجموعة، التي غنيت في العيد التاسع للثورة ستتحول إلى أفلام سينمائية قصيرة، كما يبدأ يوسف شاهين في الإعداد لفيلمه الجديد «الأرض» عن رواية عبدالرحمن الشرقاوي. الحدث الدولي الأبرز، الذي ركزت عليه معظم الصحف المصرية يتعلق بـ«صعود روسيا إلى القمر» ما هدد ببوادر حرب عالمية «ثالثة» حول الفضاء. والرئيس الأمريكي كينيدي يقول: «نتوقع مزيدًا من الانتصارات السوفيتية ولكننا لن نسمح لأعدائنا بالسيطرة على الفضاء»، وأمريكا تطالب في الجمعية العامة للأمم المتحدة بضمان استخدام الفضاء في الأغراض السلمية.

وسط هذه الأخبار أعلنت «الأهرام» في صفحتها الأولى بدء نشر «اللص والكلاب».. «قصة جديدة طويلة مسلسلة» تنشرها أسبوعيًا في ملحقها الأدبي، وبرسومات الفنان عبد المنعم القصاص.

وفي الملحق، يكتب محمد حسنين هيكل مقالته الأسبوعية «بصراحة» تحت عنوان: «٦ أسئلة والرد عليها». يبدو المقال كأنه امتداد لمقالات هيكل الست التي عرفت باسم «أزمة المثقفين» ونشرها على امتداد شهري يونيو ويوليو. يطرح هيكل في مقاله هذا السؤال: هل انتهت الإجراءات الثورية، بكل هذه التغييرات الجذرية التي صاحبت احتفالات العيد التاسع للثورة؟ ويجيب: في تصوري أن

الخطوط الرئيسية للتغيير الثوري قد تحددت معالمها، ولقد قال جمال عبدالناصر في خطابه يوم ٢٦ يوليو الأخير في الإسكندرية ما نصه: «لقد تمت الإجراءات الثورية المحتمة وأخذت طريقها إلى التنفيذ».

وكان هيكل قد نشر مقالاته الست «أزمة المثقفين» داعيًا لحشد المثقفين في ركاب الثورة، بعد أن «عجزوا - بسبب انتماءاتهم الطبقية وتطلعاتهم الاجتماعية، عن الالتحام بالجماهير قبل أن يقوم الجيش بحركته، كما عجزوا عن التجاوب مع النظام الجديد الذي جاءت به الحركة فحقق ما عجز المثقفون عن تحقيقه، وملأ الفراغ الذي تركوه، وتبنى مطالب الجماهير، وقاد النضال الشعبي». كانت المقالات بداية نقاش وجدل حول هذه القضية التي بدأ الكتابة فيها لطفي الخولي بعد الإفراج عنه، وشارك فيها آخرون من ممثلي النظام، ممن بقي من المثقفين خارج السجون.

■ ■ ■

أثناء أزمة «أولاد حارتنا» سأل أحد الصحفيين نجيب محفوظ: متى تكتب قصتك القادمة؟

فأجاب: عندما أحال إلى المعاش بإذن الله!

كانت إجابته تحمل ملامح سخرية حادة بعد أن فقد وظيفته كرئيس لجهاز الرقابة، وانتقاله للعمل في جهاز السينما التابع لمؤسسة الفنون وربما أراحه العمل الجديد، خفف عنه أعباء كثيرة، وتناقضات بين رؤيته للفن «الصادم» الهادف إلى التغيير وعمله في جهاز الرقابة.

فضلًا عن شعوره أنه يخضع للمراقبة من قبل السلطة بعد «أولاد حارتنا»، في تلك الأيام لم يتوقف محفوظ عن التفكير في «الحل» أو «الخلاص».

في تلك الأيام كتب الناقد أحمد رشدي صالح عن «القصة والرواية في زمن الاشتراكية»[١٥٨] وتساءل: كتاب القصة والرواية يدخلون عصرًا جديدًا هو عصر الاشتراكية. إنهم يعيشون أحداثًا هائلة يتأثر بها قلب الأديب، ويتأثر بها ذوقه واتجاهه وتتضاعف أمامه فرص النشر. فكيف تخاطب القصة والرواية هذا العصر الجديد وكيف تعبر عنه؟

وأضاف صالح: ماذا لو أن كاتبًا موهوبًا مثل نجيب محفوظ عاش تجربة بناء السد العالي، وعاد إلى القاهرة ليكتب ثلاثية أو رباعية عن هذه التجربة الهائلة - التي تنقل فيها الجبال ذات الأعمار الطويلة، إلى كثبان هشة أو مسطحات يغمرها الماء، والتي يبدو من خلالها نهر النيل، وحشًا هائلًا جامحًا، ثم يكون بعد انشاء السد كائنًا وديعًا مستأنسًا.. والتي تشتبك أثناءها عواطف آلاف وآلاف من الفلاحين والعمال والمهندسين والمقاولين، والأطفال والنساء... الخ.. فيما يشبه عملية نسج خيوط المستقبل، لنتصور أن هذا قد حدث فعلًا، ونرى أي شيء تكون النتيجة؟ أغلب الظن أن تكون

(١٥٨) مجلة الإذاعة، ١١ نوفمبر ١٩٦١.

روايات نجيب محفوظ أو الشرقاوي، في مستوى الآداب الاشتراكية العالمية. وضرب صالح مثالًا لما يقصد بروايات الكاتب الأمريكي هوارد فاست صاحب روايات «حرب تحرير الزنوج»، و«المواطن توم بين»!

مجلة الإذاعة سألت نجيب محفوظ في العدد ذاته.. كيف يختار أفكار روايته؟

أجاب:

إنني أعيش الرواية قبل أن أكتبها.. فهي تبدأ بفكرة ما أو بموقف أو شخصية أو زمان ومكان معين.. ولا أستطيع أن أحدد كيف تبدأ الفكرة.. فأنا دائمًا أفكر والتفكير جزء من حياتي. وعندما أشعر أنني ذائب تمامًا في فكرة معينة حتى أصبحت جزءًا منها وهي جزءًا مني، عندما أشعر بذلك أجد نفسي في حالة التماع وبريق يخطف البصر.. في حالة انصهار تهز أعماقي. عندئذ.. يتركز اهتمامي في هذا الالتماع والانصهار.. وأفرح وتتحول أعماقي إلى طفل صغير مليء بالحيوية والنشاط، وأعلم أني عثرت على نقطة بداية لعمل فني جديد.. وتمر الأيام وأنا متعلق بالتفكير في ذلك المثير الجديد الذي خلصني من التفكير غير المنتظم.. وتتضح لي جوانب التفكير المنظم، وتبرز مواقف، وتتبلور الشخصيات وتتحدد الفكرة رويدًا

رويدًا.. ويجري الحوار.. ويمضي العمل الفني في النمو..
وتتم هذه العمليات البطيئة التلقائية بالاستعانة بالحياة
الراهنة، وبالحياة الماضية وبالذكريات التي نامت في
سكون النسيان. ثم أجد نفسي قد حصلت بعد فترة على
فكرة خصبة غنية، وإن تكن بلا شكل بل أشتاتًا متفرقة
هنا وهناك.. وأفكارًا مختلطة لا ينقصها إلا البناء.. أي
الكتابة.. وهنا يبدأ العمل المنظم، الواعي لدرجة لا
يستهان بها، ثم أضع خطة عامة تلم هذه الأشتات في
صورة ذات معنى. والخطة العامة لا تهتم بكل التفاصيل..
بل ترسم الخطوط العريضة التي يسير عليها العمل.
وأخيرًا تبدأ عملية الكتابة المحدد لها وقت منظم. وفي أثناء
الكتابة قد تتغير الخطة كلها وتولد الرواية.. كمخلوق
شبه جديد على الخطة العامة المرسومة لها من قبل.

■ ■ ■

لم يكتب محفوظ ثلاثية جديدة عن السد العالي، كما طالبه أحمد
رشدي صالح بذلك، كان مشغولًا بحكاية «السفاح».. أو «اللص
الغامض» الذي تخصص في سرقة «أموال الأغنياء».. ثم أُلقي
القبض عليه أثناء محاولته سرقة فيلا أم كلثوم في نهاية عام ١٩٥٩،
واعترف في التحقيقات أنه على علاقة حب مع إحدى خادمات
أم كلثوم، وأنه دخل الفيلا لرؤيتها لا أكثر. في مارس عام ١٩٦٠

صدرت صحيفة «الأخبار» وهي تحمل على صدر صفحتها الأولى خبرًا مثيرًا يقول عنوانه: «سارق فيلا أم كلثوم تحول فجأة إلى سفاح»! وكان ذلك الخبر بداية لقصة أكثر إثارة، توالت فصولها خلال الشهور التالية، وأصبح الموضوع المفضل للصحافة المصرية. كانت الصحف تتبع خطوات اللص الذي لم يعد مجهول الاسم، إنه محمود أمين سليمان، الذي رغب الجميع في معرفة كل تفاصيل حياته، فراحت الصحف تفتش في علاقاته، وتاريخه، وعائلته، وزواجه الفاشل، أصبح لقبه الذي اشتهر به هو «السفاح» أسهل وأكثر وقعًا من اسمه الطويل، ثم إنه لم يعد لصًا يسرق بيوت المشاهير وإنما صار قاتلًا أيضًا، «بحثًا عن العدالة» كما قال. تعاملت الصحافة مع قضية السفاح، باعتبارها قضية رأي عام. وعلى مدى ثلاثة شهور تقريبًا تتبعت الصحف حياة ذلك الشخص الذي تحول كما كتبت صحيفة المساء: «في خيال بعض الناس إلى أسطورة شعبية.. إلى نوع من أبو زيد الهلالي وعنتر بن شداد.. ولكن ذلك لم يكن إعجابًا «بمضمون جرائمه وإنما بشكلها»، بذكائه الخارق وجرأته المذهلة وقدرته العجيبة على التصرف في أدق المواقف وأكثرها صعوبة وحرصًا».

ولكن من هو السفاح الذي كان يطلق الرصاص يمينًا ويسارًا بنفس البساطة التي يشعل بها إنسان سيجارته (حسب تعبير بكر درويش صاحب كتاب «السفاح»)؟

قرأ محمود أمين سليمان روايات أرسين لوبين وتمنى أن يكون مثله، كان لصًّا من طراز نادر، كان أبرع من يدخل المنازل من النوافذ والشرفات دون أن يشعر به أحد، وكان بارعًا في فتح الشيش والقفز داخل المساكن كالقطط، كان صاحب ألف حيلة وحيلة في الهرب من رجال الشرطة.. عندما كان يُلقي القبض عليه كان يلجأ إلى الطريقة التي لا تخيب، وهي ابتلاع الدبابيس وشفرات الحلاقة وبعدها ينتقل إلى أحد المستشفيات وهناك يهرب كالأشباح دون أن يشعر به أحد.. وبعد هروبه لم يكن يلجأ إلى الاختباء والاختفاء بل كان يمارس حياة عادية ويعيش وسط الناس.. مرة يفتتح دارًا للنشر، وأخرى يمتلك محلًا لبيع وإصلاح الساعات، وثالثة يدير محلًا للبقالة، بل إنه استعان مرة في أعماله بعد هروبه من السجن بأحد رجال الشرطة ممن يعملون في السجن الذي هرب منه! كان يتمنى أن يكون مثل روبن هود أو أرسين لوبين، لا يسرق إلا الأثرياء فقط، وإن كان يختلف عنهما كما يقول «بكر درويش» (محرر الحوادث في صحيفة المساء في الستينيات) «أنه كان يحتفظ بما يسرقه لنفسه لا للفقراء».

الشاعر أحمد فؤاد نجم خصص فصلًا في مذكراته «الفاجومي» للحديث عن سليمان، حيث التقيا في السجن، وركز أكثر للحديث عنه أثناء مطاردة الشرطة له بعد هروبه:

كنا نتابع أخباره بإعجاب وحماس وكأننا في ملعب

كورة، حتى السجانة ما كانوش بيقدروا يخفوا إعجابهم وتعاطفهم مع محمود في غيبة الضباط.. مرة سألت الشاويش عبد الغفار (أقسى سجان قابلته في مصلحة السجون): انت صحيح يا عم عبد الغفار كنت بتدعي للسفاح إمبارح في صلاة العصر؟ قال لي: إنت يا واد بتهددني.. أيوه كنت بادعي له وحافضل ادعي له.. ماله محمود؟ دا واد حنين وجدع.. وربنا بحق جاه النبي يخبيه من ولاد الكلب الظلمة دول.. وينصره عليهم. وضحك أحمد فوزي حرامي القطط اللي هي الشنط الحريمي وقال لعبد الغفار: يعني لو ربنا نصر محمود عليهم.. الحرامية حيحكموا مصر يا عم عبد الغفار؟ ولأول مرة أشوف عبد الغفار بيضحك وهو بيقول: ما هم حاكمينها يا حمار!

بدأت رحلة سليمان مع المعاناة منذ الطفولة، عندما ترك والده قريته أبو تشت التابعة لمحافظة قنا في جنوب مصر، وسافر للعمل في لبنان، الطفل الصغير متمرد دائمًا على الأسرة والمدرسة، يسرق أموال والده ليصرف على متعته الشخصية، ثم يسرق من الجيران حتى ألقي القبض عليه ليسجن في لبنان خمس سنوات، ويضطر الأب المستسلم والمسالم إلى أن يترك لبنان إلى الإسكندرية عام ١٩٥٣.. الابن استطاع الهرب من سجنه، والاختفاء، بل الزواج

أربع مرات متتالية وكأنه شهريار العصر الحديث، اضطر بعد كل هذه المغامرات إلى ترك لبنان عائدًا إلى الإسكندرية، معلنًا أمام أسرته ندمه وتوبته ويفتتح هناك دار نشر باسم «دار الفكر للنشر».. ثم يتزوج حميدة أحمد إبراهيم التي اشتهرت باسم «بيلا»، ويطلقها سريعًا، ثم استأنف سيرته الأولى وتعددت جرائمه في الإسكندرية، وبالتالي تعدد القبض عليه وهروبه. وكان يدافع عنه في كل مرة صديقه المحامي بدر الدين أيوب.. وتمضي الشهور، وفجأة يجد «فتاة عمره» نوال عبد الرؤوف أو حسناء الإسكندرية، ويتزوجها وينجب منها ابنته إيمان، وينتقل إلى القاهرة ليفتتح «بقالة إيمان»، ويشعر محمود لأول مرة بمثل هذه السعادة، فلديه زوجة جميلة تحبه ويحبها، وابنة، وصديق محام يستطيع أن ينقذه من كل ورطاته.. كما أن لديه أموالًا.. لكن وكما جاءت السعادة، فجأة، تنقلب، فجأة، إلى تعاسة لا حدود لها ولا مقارنة إلا بالجحيم عندما يكتشف أن زوجته تخونه!، ومع من؟، مع صديقه، وفوق ذلك؛ وإذ هي تعترف بكل شيء، يكتشف أنها تخونه ليس فقط مع صديقه، وإنما مع آخرين أكثر، وتزيده من الجحيم المستعر وتخبره بأن أخته على علاقة بصديق آخر له.. عندها لم ير أمامه إلا الانتقام. الانتقام من الجميع، إلا أنه لم يستطع الوصول إلى زوجته الخائنة التي كانت تجيد الهرب، كلما استطاع الوصول إليها، ثم إن المباحث خصصت قوة لحمايتها.. ومن أجل الإيقاع به.

رغم اهتمام كل الصحف بأخبار سليمان، إلا أن «الأخبار» كانت الأكثر متابعة لأخباره وتفاصيل حياته، حتى إنها اتفقت مع زوجته على نشر مذكراتها، وكان الصحفي صبري غنيم قد أقنعها بأنه سيتزوجها بعد القبض على السفاح وطلاقها منه على أن تتحدث عن حياتها، وصدرت بالفعل المذكرات[١٥٩].

كل يوم تقريبًا كانت الصحف تنشر قصصًا صحفية مثيرة عن «السفاح» بعضها حقيقي والكثير منها مجرد شائعات، أو للدعاية الإعلامية لأصحابها، رجال المباحث يعتقدون أن السفاح مختفٍ في منزل سيدة تغار عليه، وتخاف عليه وتحبه وتساعده، وتمده بالمعلومات. الفنانتان مريم فخر الدين وتحية كاريوكا يتلقيان رسائل تهديد من السفاح، وكانت أغرب الشائعات التي تخص سليمان أنه عرض على جمال عبد الناصر في مكالمة تلفونية إحضار رقبة الرئيس العراقي «عبد الكريم قاسم»، الذي كان وقتها على خلاف محتدم مع عبد الناصر.

في ٦ أبريل ١٩٦٠ نشرت «الأخبار» في صفحتها الأولى بيانًا من حكمدار القاهرة يتوعد فيه كل من يساعد السفاح أو يؤويه، ويعرض مكافأة ألف جنيه لمن يساعد في القبض عليه، فبدأ سليمان رحلة هروب من القاهرة إلى الصعيد، أفلت من الكمائن المنصوبة

(١٥٩) صبري غنيم، المصري اليوم، ٢٤سبتمبر ٢٠٠٩..

له، حتى وصل إلى البدرشين، وهناك استوقف إحدى سيارات النقل وحاول إقناع سائقها بأن يصحبه معه إلى الواسطى، شك فيه السائق ومع أقرب كمين مروري تظاهر أنه سيعطي الضابط رخصة القيادة وأخبر العسكري أن السفاح معه في السيارة، لكن سليمان أسرع بالهرب بالسيارة بعد أن أطلق النار على العسكري وقتله، بعد ساعات وجدت الشرطة السيارة وفيها ملابسه التي تشممتها الكلاب البوليسية المدربة وقادت قوات الشرطة إلى مغارة في الجبال المحيطة بمنطقة حلوان حيث اختبأ بداخلها. لتبدأ عندها مرحلة قصيرة، ولكنها شديدة الإثارة والتشويق والدرامية، فكما نقلت الأهرام حدثت مناقشة مطولة بين اللص وحكمدار القاهرة وقتها:

الضابط: سلم نفسك يا محمود.

اللص: إذا كنتم عايزين تموتوني أنا مستعد أخلص على نفسي. طلقة واحدة، الحكاية تخلص..

لكن السفاح لم ينتحر، عاد للمراوغة، طلب في البداية أن يسلم نفسه بشرط أن يأتي له البوليس بزوجته سبب مأساته.. ثم طلب بعد ذلك أن يأتوا له بالكاتب الصحفي رئيس تحرير الأهرام محمد حسنين هيكل، طلب أيضًا أن يأتوا له بورق أبيض لأنه يريد أن يكتب مذكراته. أكثر من ساعة ونصف في حوار مع رجال الشرطة، التي أدركت مراوغاته فبدأت مهاجمة المغارة التي كان يختبئ فيها، كتبت الأهرام أن سليمان تلقى ١٧ رصاصة لقي مصرعه على إثرها، بينما

كتب محرر المساء أن سليمان أطلق الرصاص على رأسه من مسدسه ليموت منتحرًا. «ليلة مات محمود برصاص البوليس بات السجن كله حزين.. مساجينه وشاويشيه وعساكر غفر الليل وغرق عنبر (ب) في الحزن والصمت والإحباط» كما يقول نجم[١٦٠].
بعد مقتله، فتشت الشرطة آخر شقة أقام فيها اللص في شارع محمد علي، لتجد رسالة موجهة إلى الكاتب محمد حسنين هيكل، الذي نشر نصها في الصفحة الأولى من الأهرام، في الرسالة يطلب سليمان من هيكل أن ينشر له «الأهرام» سيرته الذاتية، في حلقات، بل كتب عناوين الحلقات: «محمود أمين يتكلم بعد صمت ويخص الأهرام بهذه الرسالة» وشرح لهيكل بأسلوب روائي مليء بالأخطاء اللغوية في ثلاث كراسات مدرسية دوافعه للسرقة، وتفاصيل خيانة زوجته له، وغضبه من المجتمع الظالم.. ونفى عن نفسه أن يكون «سفاحًا، بل مجرد إنسان منكوب بخيانة زوجته، والظروف التي أحاطت بزواجه منها، وحاول تحليل شخصيتها، وشرح ظروفه البائسة.. أما ضحاياه فقتلهم بطريق الخطأ». ودافع عن نفسه باعتباره ضحية المجتمع: «لا بد أن أكتب، علَّ وعسى أن أفيد المجتمع المريض الذي يحاربني بقوة، ولست أدري من أين أبدأ. ولكن الأفضل لي وللمجتمع أن يفهم هذه الواقعة بالذات، لأنها هي التي غيرت

(١٦٠) أحمد فؤاد نجم، الفاجومي، السيرة الذاتية الكاملة، دار الأحمدي، ١٩٩٣.

مجرى حياتي... ثم يفرد صفحات للحديث عن زوجته «نوال» التي انتشلها من ماضٍ ملوث، وعندما فكر في الزواج منها بعد تطليقه زوجته «بيلا» تصور أنها ستكون خادمة له، فأحبها.. ولكن كانت الخيانة مصيره».

ولم تخلُ المذكرات من عبارات أراد سليمان أن تبدو وكأنها عبارات حكيم خبر الحياة، فكتب: «إذا أظلمت الحياة أمامك اسخط على المجتمع لأنه المسؤول، ودع الرحمة جانبًا»، و«الرحمة فوق العدل والقوة فوق العدل»... وغيرها.

في اليوم التالي لمقتل سليمان، كان جمال عبد الناصر يقوم بزيارة إلى باكستان، وصدرت صحيفة «الأخبار» بعنوان رئيسي عريض «مقتل السفاح»، وتحته عنوان آخر «عبد الناصر في باكستان» دون وجود تمييز واضح بين الخبرين فظهرا وكأنهما عنوان «مانشيت» واحد!، يقرأ هكذا: مقتل السفاح عبد الناصر في باكستان[١٦١]. وقيل إن السلطة اتخذت من هذا العنوان ذريعة، مع أسباب أخرى لتبرير تأميمها للصحافة في ٢٤ مايو ١٩٦٠. ولكن المؤكد أن السلطة أزعجها كثيرًا تخصيص الصحافة مساحة كبيرة لنشر المواد الخاصة بالجريمة، كانت ترى أن هذه المادة يمكن لأعداء النظام استغلالها لإحراج النظام، كما أنها تقدم صورة محرجة للمجتمع الجديد

(١٦١) الأخبار، ١٠ أبريل، ١٩٦٠.

الناهض. رغبة السلطة في الهيمنة، والضبط الاجتماعي لم يمنع تسريب أخبار عن ضبط ١٠٥٥ مومسًا في القاهرة وحدها، وصل دخل بعضهن الشهري ٢٠٦ جنيهات[١٦٢].

بعد مصرع السفاح، تقدم أكثر من منتج سينمائي لتحويل قصة حياته إلى فيلم، تقدم فريد شوقي ومديحة يسري، ولكن مدير الرقابة محمد علي ناصف رفض التصريح بإنتاج هذا الفيلم، وكان رأيه أن هذا السفاح «مثل شاذ من المجتمع، مجرم آبق لا يحق أن نمجد حياته أو نعرضها للناس»[١٦٣].

انتهت قصة السفاح صحفيًّا، لم تنشغل الصحافة بقصص أخرى، لأنها انشغلت بقضية تأميمها. وعلى البعد كان هناك «عقل» يتتبع، ويربط الحوادث والدوافع.. ويتابع الرسائل.. وينشغل بها.. نجيب محفوظ الذي بدأ على الفور في كتابة حكاية الكلاب.. مع «اللص»، لأن «أكثرية شعبنا لا تخاف اللصوص ولا تكرههم.. ولكنهم بالفطرة يكرهون الكلاب».. كما قال سعيد مهران لنور في رواية محفوظ التي حقق بها حلم «السفاح» الذي تمنى أن يكتب قصته مسلسلة في صحيفة الأهرام!

■ ■ ■

(١٦٢) تقرير للمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية عن «البغاء في القاهرة».

(١٦٣) الكواكب، نوفمبر ١٩٦٢، نقلًا عن «موسوعة نجيب محفوظ والسينما»، إعداد مدكور ثابت، أكاديمية الفنون.

بدأ غرام نجيب محفوظ بالقصص البوليسية في سن العاشرة، والتي كان الكثير منها مترجمًا إلى العربية. في طفولته وصباه انشغل بالأسئلة عن هذا العالم حولنا: ما الذي يحدث فيه؟ ما الدور الذي يمكن أن يلعبه فيه؟ وجد الإجابة:

لم تهدني غريزتي أيامها إلا إلى الروايات البوليسية. شيء غريب لماذا نميل إلى الضحك على هذه الفترة من حياتنا؟ حيث يتخيل الإنسان نفسه في أحد وضعين إما متحديًا للقانون وإما مدافعًا عنه ولا وسط بين الموقفين؟ إن البطل هو حلم الصغار.. لا يحس بروعة البطولة وقدسيتها مثل الصغار. وأنا صغير كنت أتمنى أن أكون بطلًا.. أما الآن فأمنيتي أن أكتب بطلًا على الورق.. وهذه هي بطولتي المتواضعة[١٦٤].

هذا الغرام بالقصص البوليسية، جعل محفوظ يدخل السينما كسيناريست من أجل هذا الهدف. كان أول أفلامه: «المنتقم» (١٩٤٧) عن قصة «خُط الصعيد»، وكان فيلمه الثاني «ريا وسكينة» عن قصة السفاحتين السكندريتين الشهيرتين، وقد شغلت جرائمهما مصر كلها، ثم فيلما: «جعلوني مجرمًا».. و«الوحش»، وغيرهما من أفلامه الأولى التي يبدو فيها ولعه بقصص الجريمة، لذا لم يكن غريبًا

(١٦٤) صباح الخير، ١١ أغسطس ١٩٦٦.

أن يهتم محفوظ بشخصية محمود أمين سليمان، وينشغل به.. فقد وجد في شخصيته تجسيدًا لكل الأسئلة التي يحاول أن يبحث عن إجابتها في تلك الفترة... يقول محفوظ:

أذكر أن أحد رواد ندوة «كازينو أوبرا» قال لي إنك ستكتب عن هذا الرجل يا نجيب. كانت قد حدثت لي «هوسة» به، والدوامة التي في نفسي أحست أن هذا الرجل، هو الفرصة التي تتجسد عبرها الانفعالات والأفكار التي كنت أفكر فيها بيني وبين نفسي، دون أن أعرف كيف سأعبر عنها.. العلاقة بين الإنسان والسلطة، وخالقه، ومجتمعه. لقد اهتممت بقصة محمود أمين سليمان ودفعني هذا الاهتمام إلى أن أكتب عنه، وأول ما يلفت النظر هو كيف أكتب عنه، لقد وجدت فيه شيئًا حميمًا وكأنه جزء من نفسي، ولما كتبت عنه فعلًا لم أكتب قصة محمود أمين سليمان، ولكن قصة فلسفية وجودية عبرت عن أشياء في داخلي كانت تصرخ طلبًا للتعبير عنها. ومنذ أن بدأت كتابة القصة لم يعد لمحمود سليمان وجود، وإنما الموجود هو سعيد مهران، رجل يخرج من السجن وكأنه يخرج من رحم أمه، يبحث عن العقيدة ويبحث عن الانتماء ويواجه كل ما في العالم من شر وخير، ويموت في الأرض الخراب، هذا شخص جديد غير محمود سليمان.

والفرق بين سعيد مهران ومحمود سليمان يعطيك مثلًا على الفرق بين الواقع الفني والواقع الحقيقي[165].

أصبح سعيد مهران مع محفوظ، شخصية «روائية»، بعيدة عن أصلها الواقعي، ولم تصبح الرواية مجرد جريمة قتل، وخيانة، بل أصبحت رواية أسئلة فلسفية. قال محفوظ: «أحسست أن هذا الرجل يمثل فرصة تتجسد عبرها الانفعالات والأفكار، التي كنت أفكر فيها دون أن أعرف طرق التعبير عنها، العلاقة بين الإنسان والسلطة ومجتمعه»[166]. هذه الأفكار التي كانت تشغله وجد أن شخصية سعيد مهران يمكن أن تعبر عنها.. لذا كانت «اللص والكلاب» هي روايته البوليسية التي عبر فيها عن البطولة. كما كان نموذجًا معبرًا عنه: «أنا سعيد مهران».. هكذا اعترف محفوظ في حواره مع شارلوت الشبراوي محررة مجلة «باريس ريفيو»[167]. مضيفًا في الحوار:

> **كنت في ذلك الوقت أعاني من إحساس ضاغط ومستمر بأنني مطارد، وكنت على قناعة بأن حياتنا في ظل النظام البوليسي في تلك المرحلة كانت بلا معنى. وهكذا حينما كتبت القصة، كتبت معها قصتي أنا. وإذا بقصة جريمة**

---

(١٦٥) غالي شكري، من الجمالية إلى نوبل، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩١.

(١٦٦) جمال الغيطاني، نجيب محفوظ يتذكر.

(١٦٧) بيت حافل بالمجانين، حوارات باريس ريفيو، ت: أحمد شافعي، هيئة الكتاب، ٢٠١٥

بسيطة تصبح تأملًا فلسفيًّا! فقد حمَّلت شخصية الرواية الرئيسية «سعيد مهران» كل حيرتي، وهواجسي. جعلته يمر بتجربة البحث عن إجابات لدى الشيخ، ولدى «الساقطة»، ولدى المثالي الذي خان أفكاره من أجل المال والشهرة. وهكذا ترين أن الكاتب ليس مجرد صحفي. فهو يضفر مع القصة شكوكه، وأسئلته، وقيمه. هذا هو الفن.

كانت «اللص والكلاب» أولى روايات نجيب محفوظ الناقدة للنظام بشدة وعمق، أو «رصاصاته» ضد أخطاء ثورة يوليو، كتبها مباشرة بلا رمز أو تورية كما فعل في «أولاد حارتنا» التي أراد من خلالها أن يوجه رسالة لضباط يوليو: أمامكم طريقان أما أن تكونوا «فتوات» أو «أنبياء»، ولكن كان واضحًا أنهم اختاروا «الفتونة». في «اللص والكلاب» كان محفوظ يعزف لحنًا حزينًا، يرثي فيه أحلام الثورة بعد تسع سنوات، فرغم الحديث الذي يزين صفحات الصحف عن الانتصارات الكبرى، والزحف الاشتراكي المقدس، لا يزال أبناء الحارة مطحونين بلا كرامة، وبلا عدل، وبلا حرية، تسحقهم الكلاب.

في الرواية وسع محفوظ من أفق الشخصيات لتعبر عن الشوق والتوق الإنساني للعدالة. لم يعد سعيد مهران هو ذلك اللص أو السفاح، بل تحول إلى ثائر صاحب قضية على أوضاع المجتمع الظالم: أمه ألقيت في عرض الطريق بعد أن رفض طبيب القصر

العيني الشهير علاجها، تخونه زوجته، وتنكره ابنته، ويتنكر له أستاذه رؤوف علوان الذي يريد أن يقتله كما يقتل الماضي. لكن في النهاية تطيش الرصاصات التي كان يرغب من خلالها في «اجتثاث الخيانة»، ويموت في النهاية «بلا معنى» وسط المقابر.

عندما صدرت الرواية، أثارت جدلًا نقديًّا كبيرًا، وتحير النقاد في تصنيفها، اعتبرها لويس عوض «قصة كلاسيكية القالب رومانسية المضمون»، فيما نسبها آخرون إلى الاتجاه الوجودي، فأزمة سعيد مهران وجودية من وجهة نظر أنور المعداوي، وغالي شكري وإبراهيم فتحي.

ولكن كثيرًا من النقاد اعتبر الرواية ليست منفصلة عن «أولاد حارتنا». ومن بينهم غالي شكري الذي أشار إلى أننا «نستطيع أن نتلقف معظم الأفكار الواردة في «أولاد حارتنا» حول الوقف والبيت الكبير والجبلاوي والنظار والفتوات وأخيرًا عرفة والحنش، في بقية الأعمال التالية ابتداء من «اللص والكلاب» وحتى «ميرامار»، ولكننا حين نتلقف هذه الأفكار الرئيسية سوف نشهد ما طرأ عليها من تغيير كبير يحول دون التعرف على الأصل البعيد»[١٦٨].

لم تكن «اللص والكلاب» سوى إعادة كتابة لـ«الرواية الممنوعة»، لم

(١٦٨) من الجمالية إلى نوبل.

يكن سعيد مهران سوى فرد من «أولاد» الحارة، يبحث مثل أقرانه عن العدالة مستخدمًا نبوته الخاص، لكنه يفشل أيضًا.

■ ■ ■

تعلم نجيب محفوظ من أستاذه سلامة موسى، أنه لا يمكن لأي رقابة أن تمنع الأفكار. كان موسى قد أصدر في الثلاثينيات كتابه «الاشتراكية» وتمت مصادرته ومنعه، حتى إن محفوظ نفسه لم يستطع أن يقرأ الكتاب في دار الكتب، إذ كانت استعارته ممنوعة. لم يطلب محفوظ الكتاب من أستاذه فيما بعد عندما التقاه وتصادقا، وقد فسر محفوظ الأمر في حوار خاص معه: «لأن سلامة موسى عبر في مجلة «المجلة الجديدة» عن الأفكار الموجودة في الكتاب ولكن بأسلوب آخر»[١٦٩].

ولأن الرواية عند نجيب محفوظ هي رحلة بحث، سؤال مفتوح، فقد حاول أن يختبر الأسئلة الممنوعة في «أولاد حارتنا» في رواياته الأخرى، أعاد كتابتها مرات ومرات بأسلوب آخر، في «اللص والكلاب»، وفي «الطريق»، وفي «الشحاذ»، وفي «الحرافيش»، وفي قصته القصيرة «زعبلاوي». والمفارقة أيضًا أنه يعتبر «أولاد حارتنا» إعادة كتابة للثلاثية، بل هما «رواية واحدة»[١٧٠]. ربما لهذا لم يصر على نشرها عندما طالبه الكثيرون بذلك بعد نوبل أو بعد محاولة اغتياله،

(١٦٩) أخبار الأدب، ٢٦ أغسطس ٢٠٠٧.
(١٧٠) أخبار الأدب، ٣ ديسمبر ٢٠٠٠.

كان يبدو في موقفه أنه يسخر من الجميع: «ابحثوا عن نفس الأفكار بصيغ أخرى في أعمالي».

■ ■ ■

وهكذا لم يتوقف الجدل حول الرواية في أي وقت من الأوقات، كانت محورًا رئيسيًّا في كل لقاءات نجيب محفوظ مع ضيوفه؛ العرب والأجانب، وفي حواراته الصحفية لا بد من سؤال عن الرواية «المحرمة».. تنشر أو لا تنشر؟ فضلًا عن أسئلة أخرى عن «تأويل» الرواية ومقاصد محفوظ منها.

في عام ٢٠٠٣ عاد المفكر نصر أبو زيد من منفاه الهولندي إلى مصر ليسوي أوراق تقاعده من الجامعة بعد أن بلغ الستين، وطلب من بعض أصدقائه في زيارة أخرى له لقاء نجيب محفوظ، كان نصر قد تردَّد على ندوة محفوظ في «مقهى ريش»، لكنَّهما لم يتبادلا حديثًا منفردًا. في اللقاء الذي جرى في ديسمبر ٢٠٠٣ كان نصر مهمومًا بـ«أولاد حارتنا».. وانصبت أسئلته كلها حول هذه الرواية «الإشكالية». سأله في البداية عن رواية «الحرافيش»... هل كانت صيغة أخرى من «أولاد حارتنا»؟ نفى محفوظ ذلك، قائلًا: «إنَّهما روايتان منفصلتان». سأل أبو زيد: «لماذا حدثت ضجة عقب نشر «أولاد حارتنا» ولم تحدث الضجة نفسها عندما كتب توفيق الحكيم روايته «أهل الكهف»؟». فأجاب محفوظ: «قد يكون اختلاف الزمن هو السبب، أو قد يكون الحكيم نجح في شرح فكرته أفضل منِّي».

وتحسَّر محفوظ على الجو الليبرالي في العشرينيات والثلاثينيات، عكس ما هو سائد هذه الأيام. بدت أسئلة أبو زيد كأنَّها تنبع من رغبته في معرفة أسرار أزمة «أولاد حارتنا». هل كان في صدد كتابة شيء عن المصادرة حينها أم عن نجيب محفوظ؟ المهم أنَّ محفوظ استفاض يومها في الحديث عن الرواية. وحكى - بطريقته الساخرة - عن لقاء جمعه بأحد شيوخ الأزهر: «جاء لزيارتي في مقهى «علي بابا» قبل جائزة «نوبل»، وتناقشنا طويلًا في رواية «أولاد حارتنا»، وبعدما اقتنع الشيخ بتفسيري للرواية، أخرج من جيبه كراسًا وقال: «أنا كاتب مسرحية عايزك تقرأها وتقولي رأيك». ثم تحدث أبو زيد باستفاضة عن أزمته مع الجامعة، وكان محفوظ ينصت باهتمام، ويقطع الحوار أحيانًا بـ«قفشة» من قفشاته الساخرة[١٧١]. بعد زيارته القصيرة، عاد أبو زيد مرة أخرى إلى منفاه، فقد كانت حياته - أيضًا- مهددة باعتباره ضحية من ضحايا حرية البحث والتفكير في مجتمع لم ينضج بعد، ومع رحيل محفوظ، كتب أبو زيد عدة مقالات في وداع محفوظ، عاد فيها إلى «أولاد حارتنا» معتبرًا إياها التعبير الأدبي عن تيار عميق الجذور في الفكر العربي المصري الحديث، وهو تيار يمتد إلى «محمد عبده» رائد الإصلاح الديني الحديث الذي اعتبر أن «القصص الديني «تمثيلات» لحقائق كبرى وراءها». أوضح أبو

(١٧١) أخبار الأدب ٢٨ ديسمبر، ٢٠٠٣.

زيد: «تعالج الرواية القصص الديني، معالجة فنية أدبية، تستقطر دلالاته الاجتماعية الإنسانية، حيث يصبح الأنبياء هم المدافعون عن حقوق «المستضعفين» و«المُسْتَغَلّين» في «تكية» الوجود بالمعنى الكوني، يستخدم المبدع مفهوم «الفتوة» تمثيلًا للقوة، التي قد تقف إلى جانب الحق فيعتدل ميزان الوجود، وقد تقف إلى جانب «الظلم» فيهتز الميزان ويعم الخراب»[١٧٢].

---

(١٧٢) الأدب مقاومة فكرية، المصري اليوم، ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦.

الوصايا المنبوذة

نصيحتان تلقاهما نجيب محفوظ في بداية حياته الأدبية؛ الأولى أثناء التحقيق معه بعد صدور روايته «القاهرة الجديدة».. قال له المحقق: «لماذا تكتب عن فضائح الباشاوات وتعرض نفسك لمشكلات؛ اكتب عن الحب أفضل وأكثر أمنًا».

وكانت الثانية من إبراهيم عبد القادر المازني في اللقاء الوحيد الذي جمعه به، قال له المازني: «إن الذي تكتبه هو الأدب الواقعي، وإن هذا النوع من الأدب يسبب لصاحبه مشاكل كثيرة، والفكرة الشائعة عن الروايات أنها اعترافات شخصية، إذا كنت سوف تستمر في كتابة الأدب الواقعي فسوف تجلب لنفسك المتاعب والمنغصات دون أن تدري». لم يستجب محفوظ للنصيحتين، فلم يكتب عن الحب،

وطاردته المتاعب والمنغصات منذ أن بدأ الكتابة.
عندما تسلم؛ من ناشره، عددًا من نسخ روايته الأولى «عبث الأقدار» (١٩٣٩) حمل واحدة منها إلى بيت الشيخ مصطفى عبدالرازق، أستاذه في قسم الفلسفة بجامعة فؤاد الأول، وهناك وجد مجموعة من شيوخ الأزهر ضيوفًا على الشيخ، عندما أمسكوا بالرواية هاجوا بسبب عنوانها، ارتبك محفوظ إزاء الهجوم ولكن الشيخ تدارك الموقف مدافعًا عن تلميذه.
وعندما أنهى روايته الثانية «رادوبيس» (١٩٤٣) رفضت الرقابة نشرها باعتبارها «عملًا مهيجًا» لأن الشعب يثور فيها على الملك الذي كان منصرفًا إلى نزواته الشخصية، وطلب الرقيب تغيير خاتمة الرواية. فأوضح محفوظ له أنها مجرد حكاية تاريخية، ومن الصعب تغيير نهايتها لأن في ذلك تشويهًا للتاريخ. فسمحت الرقابة بنشرها، خاصة أن الحكايات عن علاقات الملك (فاروق الأول) النسائية لم تكن قد انتشرت بشكل كبير بعد.
بعد صدور روايته «القاهرة الجديدة» (١٩٤٥) أحيل إلى التحقيق لأنه انتقد فيها الحكومة، وقُرنت الرواية باعتبارها مجرد مقالات تنتقد رجال الحكم. في التحقيق سأله المحقق؛ أحمد حسين - شقيق الدكتور طه حسين -: «ماذا تقصد؟ فأجاب: إنها وقائع خيالية لا أقصد أشخاصًا معينين، هذه رواية مثل التي علمها لنا أخوك طه حسين». وبعد سنوات قليلة وافق محفوظ على تغيير عنوان الرواية

إلى «فضيحة في القاهرة» استجابة لطلب إحسان عبد القدوس الذي أراد نشرها في سلسلة «الكتاب الذهبي»، وخشي أن يُفهم من العنوان القديم أن الرواية تنتقد مجتمع الثورة (٢٣ يوليو ١٩٥٢) الجديد.

وعندما تقدم بروايته «السراب» (١٩٤٨) للحصول على جائزة مجمع اللغة العربية، رفضها المجمع لأسباب «أخلاقية»، وقال له أحد الأعضاء: «أفهم ما كتبته بوضوح، ولكن بيتنا هنا لن تقبل ذلك. إننا مؤسسة رسمية، وإذا شجعنا هذا الأدب فإن هذا يعني أننا نعترف رسميًّا به، ونحن لا نستطيع أن نتحمل هذه المسؤولية».

ولم تكن تلك هي المشكلة الوحيدة التي سببتها له الرواية، إذ اعتقد أحد رواد مقهى كان يتردد عليه محفوظ وكانت بينهما معرفة أنه يقصده بشخصية بطل الرواية (كامل رؤبة لاظ) العاجز جنسيًّا، فحمل مسدسًا وقرر قتله، فامتنع محفوظ عامًا كاملًا عن المرور بجوار المقهى، ولإنهاء المشكلة اتصل بحامل المسدس الثائر ليشرح له الاختلافات الشاسعة بينه وبين الشخصية الموجودة في الرواية، وطلب منه أن يتأكد من ذلك بقراءة الرواية.

ومر صدور «بداية ونهاية» (١٩٤٩) بهدوء، ولكن بعد قيام الثورة التقى به أنور السادات في مكتب إحسان عبد القدوس. قال له السادات: «أنا زعلان منك». فقال نجيب: «ليه لا سمح الله؟». فرد السادات معاتبًا: «كيف تجعل الضابط في «بداية ونهاية» ينتحر؟ أنت

لا تعرف أن الضابط هو نحن؟».
كما مر نشر «الثلاثية» بهدوء باستثناء بعض المقالات النقدية التي اعتبرته كاتبًا بورجوازيًا، ولكن محفوظ سيعود في الستينيات ليكتب أجرأ أعماله، رواية تفضح الديكتاتورية، وتنتقد تأميم المجال العام، في تلك المرحلة: «استحوذ الخوف على الناظر ورجاله، فبثوا العيون في الأركان، وفتشوا المساكن والدكاكين، وفرضوا أقسى العقوبات على أتفه الهفوات، وانهالوا بالعصي للنظرة أو النكتة أو الضحكة، حتى باتت الحارة في جو قاتم من الخوف والحقد والإرهاب»؛ كما يكتب محفوظ في «أولاد حارتنا».
غضبت أطراف نافذة في السلطة الناصرية من «ميرامار»، و«ثرثرة فوق النيل» ومن بعض القصص القصيرة الأخرى حتى إن المشير عبد الحكيم عامر أقدم على اعتقاله لولا تدخل عبد الناصر نفسه في اللحظات الأخيرة.
وفي أوائل السبعينيات تعرضت روايتاه: «الكرنك»، و«الحب تحت المطر» لمقص الرقيب الباتر، وطالهما الحذف حد التشويه.

■ ■ ■

مع كل رواية عاصفة، وأزمة، وسط كل العواصف كان محفوظ يحمي نفسه، روايته حيادية، تبدو وكأنها لا تتهم، أو توجِّه، رواية يتحمل أبطالها عبء ما يقولون ويفعلون لا كاتبها، الكاتب هنا مجرد شاهد، حكيم غير متورط، أو إله يراقب ويسخر، ربما لهذا مرت

العواصف. ولكن كانت «أولاد حارتنا» استثناءً.
هي رواية مركزية في عالم محفوظ، ما قبلها كان واقعيًا صرفًا، وما بعدها كان محاولات دائمة للتجريب، والابتعاد عن الواقعية الكلاسيكية. وحملت الرواية ما يمكن وصفه بالانتقال من مجتمع الشفاهية إلى الكتابية، حيث يستجيب الراوي لوصية عرفة أحد أبناء الحارة البررة: «أنت من القلة التي تعرف الكتابة، فلماذا لا تكتب حكايات حارتنا؟، إنها تُروى بغير نظام، وتخضع لأهواء الرواة وتحزباتهم، ومن المفيد أن تُسجل بأمانة في وحدة متكاملة ليحسن الانتفاع بها».
سجل الراوي/ محفوظ الحكايات الشفهية المتوارثة ليحكي عن حلمه، بالعدل، وسيادة العلم، حلمه وحلم البشرية كلها بأن تمضي الحياة في الحديقة والناي والغناء، وأن تشهد الحارة مصرع الطغيان، ومشرق النور. كانت الرواية أمثولة لعلاقتنا بالسلطة الجاثمة على أنفاس البشر، سواء أكانت هذه السلطة سياسية أو دينية أو مجتمعية، ومن هنا انزعج الجميع من قدرة رواية على تعريتهم وفضحهم.
وصارت الرواية «خطيئة» محفوظ لدى الجميع.
وفي كل الوقائع، كانت «أولاد حارتنا» حالة خاصة، بحسب وصف محفوظ نفسه، لم تعد مجرد رواية طرح فيها أسئلته حول العدل والحرية، بل صارت تمثيلًا لحكايتنا مع السلطة، والرقابة، حكاية المجتمع نفسه وتوقه للتفكير خارج الخطوط الحمراء،

صارت الكتاب/ الرمز لمعركة ثقافية واجتماعية وسياسية، لم تنتهِ بعد، بل تتخذ كل فترة شكلًا جديدًا ومثيرًا. وكأن محفوظ وهو يكتب، كان يحقق - دون أن يدري أو يتعمد ذلك - الحلم القديم لكمال عبد الجواد (قرينه/ صورته في الثلاثية بنظر غالبية نقاده)..

كان كمال: «يحلم أن يؤلف كتابًا، هذه هي الحقيقة، أي كتاب؟، لن يكون شعرًا، إذا كانت كراسة أسراره تحوي شعرًا، فمرجع ذلك إلى أن عايدة تحيل النثر شعرًا لا إلى شاعرية أصيلة فيه، فالكتاب سيكون نثرًا، وسيكون مجلدًا ضخمًا في حجم القرآن الكريم وشكله، وستحدق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذلك، ولكن عم يكتب؟ ألم يحوِ القرآن كل شيء؟ لا ينبغي أن ييأس، ليجدن موضوعه يومًا ما، حسبه الآن أنه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه، أليس كتاب يهز الأرض خيرًا من وظيفة وإن هزت الأرض؟! كل المتعلمين يعرفون سقراط، ولكن من منهم يعرف القضاة الذين حاكموه؟!».

عاش محفوظ، عصور سلاطين، وملوك، ورؤساء، عاصر ثورات وانقلابات، وحروبًا وطواعين، ومآسي.. عايش التقلبات السياسية والمنعطفات الحاسمة، الثورات والأنظمة والحروب، من النكسة إلى الاستنزاف وأكتوبر، من ثورة ١٩، إلى يوليو، وكامب ديفيد، ومن نوبل إلى الخنجر الغادر الذي استقر في رقبته. استطاع أن يصمد في وجه التقلبات والعواصف والتغيرات التي أصابت المجتمع

والثقافة، واستطاع أن يصمد في وجه الحقد الأصولي. واستطاع طوال سنوات عمره التي قاربت قرنًا من الزمان، وحتى بعد رحيله، أيضًا، أن يحافظ على تأثيره وفاعليته؛ ليصبح رمزًا عابرًا للزمان.

تبدلت الموضة وانقلبت المعايير الجمالية، وتغيرت الأسماء، وانسحب كُتَّاب كبار إلى متحف «التاريخ»، فيما ظل هو في مكانه، يثير الاهتمام والإعجاب والجدل الصاخب. قاوم الشيخوخة تارة والسلطات تارة أخرى، وكتاب التقارير وصناع الطغاة، وسكاكين المتطرفين وكل الصعوبات التي كادت تحول بينه وبين الكتابة تارات وتارات.

كانت الاتهامات تزعجه، ولكنه كان يقابلها بضحكة صافية ترتفع بين الحين والآخر. عندما طلب منه أحد الصحفيين أن يتخيل بروفة لحساب الآخرة، وينصب لنفسه ميزانًا أيهما أثقل في ميزانه: الحسنات أم السيئات؟ ضحك محفوظ طويلًا قبل أن يجيب: «أنا لم أقتل في حياتي، ولم أسرق ولم أرتكب إثمًا كبيرًا. كل آثامي صغيرة وخفيفة على الميزان. وإذا كانت الحسنة بعشرة أمثالها فالميزان قطعًا في صفي».

وهكذا ظلت «أولاد حارتنا» في دائرة الضوء، منذ أن نشرت مسلسلة في «الأهرام» في صيف العام ١٩٥٩ وحتى بعد رحيل محفوظ، عندما صدرت لأول مرة في مصر بمقدمة كأنها صك براءة لاهوتية لعمل فني خيالي.

ملحق
وثائقي

«الرجوع إلى ميتوزيلا» لبرناردشو[١٧٣]

في البداية، ميتوزيلا بطريق، يقال إنه عمَّر طويلًا حتى نيف على التسعمائة بنصف قرن أو يزيد، فالرجوع إليه هو الرجوع بالإنسان إلى الحياة الطويلة، والحكمة في ذلك هي ما تدور عليه القصة بما سيعلمه القارئ بعد حين، والمؤلف يرمي إلى تأريخ التطور الخالق Creative Evolution، فبدأ بقصة أدم وحواء، واستغل تلك الأمنية الأبدية محجر الفلاسفة الذي يغلب الناس على غائلة الموت، والقصة فوق ذلك معرض تُمثَّل فيه نقائص الحياة المتمدينة، وخاصة الجانب السياسي منها.

نحن في ناحية من جنة عدن، يجلس فيها آدم وحواء، وعلى مقربة منهما تسكن حية مختفية الراس، وأيل مكسور الرقبة، وقد جذب الأيل أنظار أدم وحواء بسكونه المستمر ومنظره المقبض، مما أثار في نفس الرجل الخوف أن تزل قدمه مرة فتندك رقبته وينقطع حبل حياته، وتحس حواء ببعض ما يجد، ويشفق كل منهما أن يهجره رفيقه تلك الهجرة الأبدية، ويتركه لوحدة ليس فيها أنيس، ولكن حواء تعجب من خوف أدم هذا، لأنه يتردد دائمًا بين الضجر من الخلود والخوف من الموت! ويهم ادم بالأيل ويذهب به بعيدًا ليرمي به في

---

(١٧٣) نشر المقال في مجلة «المعرفة» (ابريل/ مايو) ١٩٣٤ التي اسسها وراس تحريرها عبد العزيز الإسلامبولي ثمة إشارة إلى جزء ثان من المقال في العدد التالي. ولكن أجمعت الآراء على أن هذا العدد من المجلة هو الأخير. على الرغم من أن الناقد عبد المحسن طه بدر يشير في كتابه «الرؤية والأداة» إلى اطلاعه على الجزء الثاني من المقال.. ويشير أيضًا إلى جزء ثالث منه

النهر، وفي أثناء غيابه تتحرك الحية وتتحدث إلى حواء بلغتها، لأن طول إصغائها إلى حوارها مع أدم أفضى بها إلى تعلم اللغة التي يتكلمان، وهي تحدثها لما ترى من شدة خوفها من الموت، وتكلمها عن دواء الموت وهو الميلاد وبعث الحياة من جديد، وتضرب لها مثلًا بنفسها، فهي تلد حيات جددًا، وهذا ما فعلته ليليت عندما ألمتها فكرة الموت فولدت أدم وحواء، والخلق ليس محالًا، فقط يجب أن ترغب وتتخيل ثم تريد فتخلق، ولم لا؟ ألم تكن حواء عاجزة عن تسلق الأشجار؟ ألم ترغب وتتخيل وتريد فخلقت من العضلات والاستعدادات ما مكنها من تسلق الأشجار؟ هكذا الخلق ممارسة واجتهاد.. ولا يجوز لحواء أن تتردد إذا كانت تريد أن تتغلب على الموت ورعبه. وإذا ما رجع أدم هرعت إليه حواء، وأفضت إليه بكل ما دار بينها وبين الحية، ويُسر الرجل لذلك، إلا أن خوفًا يداخله أن يق من سوف يلد من أحياء، ولكنه يجد في نفسه اطمئنانًا غريبًا، ويخيل إليه أن صوتًا يوحي إليه بأنه لن يصيبه أذى ممن سيلد. ويُصرح لحواء بأنه نفس الصوت الذي يبغِّضه في فكرة قتلها، وهنا تقول له حواء «إن الصوت يهمس لي بقتلك، ومع ذلك فلا أرغب أن تموت قبلي، ولا حاجة لي بصوت يأمرني بذلك. فيقول أدم «كلا.. ذلك ب من غير صوت ما، لأن هنالك شيئًا يربطنا ببعضنا.. شيء ليس له كلمة......»

الحية «الحب.. الحب.. الحب».

أدم «إنها لكلمة قصيرة لمثل هذا الشيء الطويل؟».

الحية «الحب قد يكون كلمة طويلة لشيء قصير.. ولكنه إذا كان قصيرًا كان حلوًا».

ادم: «إنك تحيرينني، كان اضطرابي القديم ثقيلًا، ولكنه كان بسيطًا، وهذه البدائع التي تَعدين قد تقلب كياني قبل أن تمنحني هدية الموت. كنت أنوء بحمل المخلوق الخالد، ولكن لم أكُ مهتاج العقل. وإذا كنت لم أعلم أني أحب حواء، فلم أكن أعرف كذلك أنها يمكن أن تزهد في حبي وتحب أدم أخر، أو أن ترغب في موتي.. هل تعرفين اسمًا لهذه الحالة؟».

الحية: «الغيرة.. الغيرة.. الغيرة».

ادم: «كيف لا أثابر على الهم ما دام المستقبل أضحى غير مؤكد؟ إن أي شيء خير من الشك. فالحياة أصبحت غير يقينية، والحب غير يقيني، فهل لديك كلمة لهذا الشقاء الجديد؟».

الحية: «الخوف.. الخوف.. الخوف». فيقول أدم: «هل عندك علاج له؟». فتقول: «نعم.. الأمل.. الأمل.... الأمل». فيسأل: «وما الأمل؟». فتقول: «ما دمت لا تعرف المستقبل فإنك لا تعرف أنه لن يكون أسعد من الماضي.. هذا هو الأمل».

ادم: «إنه لا يعزيني أن الخوف عندي أقوى من الأمل، ينبغي أن أظفر باليقين.. هبيه لي أو أقتلك إذا ما ظفرت بك نائمة». فتقول حواء: «حيتي الجميلة! كلا! كيف تفكر في مثل هذا الأمر المروع؟». فتقول الحية (لآدم): «قيد المستقبل بإرادتك وانذر نذرًا».

فيسأل ادم: «وما النذر؟» فتجيب الحية: «اختر يومًا لموتك، واعزم أن تموت في ذلك اليوم، فلا يبقى الموت غير يقيني، ودع حواء تنذر أن تحبك حتى تموت، فلا يبقى الحب بين مخالب الشك».

ادم: «هذا جميل». فتستدرك حواء: «ولكنه سوف يقضي على الأمل!». فيقول (ادم): مغضبًا: «صه.. يا امرأة.. إن الأمل شرير

والسعادة شريرة.. اليقين هو السعادة».

الحية: «وما الشر؟». فيجيبها آدم: «كل ما أخاف أن أفعل شرير. أصغي إليَّ يا حواء، وأصغي أيتها الحية واشهدا نذري: سأعيش الف دورة فلكية».

الحية: «الف سنة؟ الف سنة؟»، فيردد آدم: «نعم سأعيش الفًا ولن ابقى سنة بعد ذلك، ولسوف اموت وافوز بالراحة، ولسوف احب حواء كل هذا الزمن دون سواها»، فتقول حواء: «وإذا وفى آدم بنذره فلن احب رجلًا سواه».

وتهتف الحية إنهما اخترعا الزواج، ثم تنتحي بحواء ناحية لتفضي إليها بسر هذا الزواج، وتهمس في أذنها بكلام فيتهلل وجهها فرحًا، ثم يعتريه الامتعاض فتخفيه بين يديها.

تقضت قرون، وقد هبط آدم من عدن وعاش مع حواء، وها هو ذا يحفر وها هي ذي تغزل، ولم يظلا كما كانا حافظين لثوب الفتوة جديدًا، وإنما خضعا لسلطان الزمان الذي سلبهما رونق الشباب ومكن منهما الكبر. ولأول مرة يظهر بجانبهما أدمي جديد هو قابيل. وهو متلفع برداء الحرب مزهو بغرور المحاربين، ولا يكلفنا أي جهد أن نلحظ ما بين الأب والابن من سوء تفاهم وغضب ظاهر، وذنب الابن أنه قتل أخاه هابيل، ولكنه يعتذر عن نفسه بأن أخاه هو الذي اخترع النار والقتل، وأنه قضى عليه بما كان يقضي به على غيره، وهو على كل حال لا يبتئس لذلك بل يفخر به، لأن حياته في نظره أحفل بمعاني العظمة من حياة أبيه. وماذا في حياة ادم غير الحفر؟ وهو يستطيع أن يفخر بالحفر إن جاز له أن يفخر بأنه خلق رجلًا! أما هو فيستطيع أن يزهو لأنه القاتل الأول، وحياة القاتل حياة قوة وحرية!

ولا يروق حواء حديث ابنها، وتخشى على أدم أن يتأثر به، فتنحي على ابنها باللوم ان يفخر بما لا يستحق الفخر او الثناء، وتنكر عليه أن يزعم لنفسه ما ليس لها من الحرية والقوة،فهو أسير امراته، يساق إلى مقاتلة الحيوان بوحي صامت منها، لأنه يذوق السعادة في تلك الساعة التي ترمي بصيده تحت قدميها مزهوًا امامها بقوته وجبروته، وهو بعد هذا وذاك ليس إلا مخربًا، ولو أنه ذاق العذاب مثلها والجهد في سبيل الإنتاج والبناء،ما استقام منطقه بمثل هذا التفكير الطائش. ولكن الفتى لا يهتز لكلام امه وما يزال يصر على إيثار اسلوب حياته والزراية بحياة أبيه. فإذا نظر أبوه إلى الأرض وأقر بأنها اصل الحياة تطلع هو إلى السماء وقال إن الأرض أصل الأمراض كذلك. وتشتد ثورته على الأرض وما فيها من طعام وتناسل، ويتساءل: إذا كان هذا هو كل ما للإنسان، فما الفرق بينه وبين الدب؟ ويشتد سخط الأب ويتغالى الابن في كبريائه حتى تهدد حالتهما بالخطر، مما يدعو حواء إلى التدخل فيما بينهما لتهدئ من ثائرتهما وتلطف من حرارتهما، حتى إذا راتهما جنحا إلى السكون اعترفت لهما بأنها غير راضية عن حياة ادم، وغير راضية عن حياة قابيل، تلك تضجرها بما فيها من لون واحد وحركة واحدة، وهذه تنفرها بما فيها من وحشية وخراب، وإنما الذي يعزيها ويهون عليها هو الأمل في المستقبل، وقد بدأت تتلمس بوادر حسنة تبشر بالسعادة وهي التي تتحقق على أيدي بعض ابنائها، فمنهم من يسرح بنظره بين الكواكب،يطلق عليها الأسماء ويلاحظ حركاتها، ومنهم من صنع لها هذا المغزل العجيب، ومنهم من يهيم في الغابة صانخًا إلى «الصوت» يستلهمه امورًا يهدي بها إخوانه.. وهؤلاء

هم آملها في المستقبل الذين يبنون ويبتكرون من غير أن تسحرهم السكينة ولا تغرر بهم حمية القتال. الظاهر أن قابيل لا يفهم هذا الكلام فيأخذ عدده ويخرج، ويستأنف ادم الحفر وتجلس هي تغزل وهي تقول:

«الإنسان لا يحتاج دائمًا أن يعيش بالخبز فقط، يوجد شيء أخر لا ندري إلى الآن ما هو؛ ولكنا سنكشف عنه في يوم من الايام، هنالك لا يبقى محل للحفر او الغزل أو النزاع او القتال».

● ● ●

نحن الآن بعد الحرب الكبرى، في غرفة ببيت فرانكلين برنابار وهو رجل من رجال الدين سابقًا - واخيه كونراد برناباس وهو عال بيولوجي، والأخوان من الرجال الموهوبين الذين يعيشون للإنسانية، وهما متفقان على أن الحياة البشرية قصيرة بحيث لا تحقق للإنسار ما يطلب من الحكمة والعرفان؛ ولقد هجر فرانكلين الكنيسة لما رأى أن بينه وبين الحكمة مائة وخمسين عامًا. أما كونراد فيتمنى لو يعمر تسعمائة وستين عامًا كالبطريق ميتوزيلا ليبلغ مرتبة العلم الحقيقي

وبينما نستمع لحوارهما يدخل القس هاسلام وتتبعه ابنة خطيبت فرانكلين سافي، ولا يكاد يستقر بهما المقام حتى يدخل شخص ثالث هو مستر بيرج وهو من الشخصيات السياسية البارزة. وحسبك دلالة على سمو قدره أنه تراس الوزارة البريطانية أثناء الحرب؛ وانه الآن زعيم المعارضة وهو لم يحضر لخالص الزيارة ولكنه يرمي إلى غرض سياسي؛ ذلك انه علم أن مستر فرانكلين ينوي القيام برحلة، فهل تكون الرحلة لغرض سياسي؟ وإذا كان الامر كذلك فهل يكون الأستاذ ممن يزكونه أم ممن يناهضونه؟ لأن الحالة حرجة والشعب

غير راض عن الوزارة القائمة التي لا تمثل احدًا فيه، ولكن فرانكلين لا ينوي القيام بدعاية سياسية مطلقًا وهو لم يفكر في السياسة ابدًا، لانها - على ما هي عليه - لا تستطيع أن تجذبه إليها، وهو يصرح لستر بيرج عن رأيه في أساليبهم وانتخاباتهم التي يراها مهازل مضحكة لا تغني شيئًا.

وأثناء الحديث تدخل الخادم معلنة قدوم مستر لابن، وهو رئيس بيرج القديم ورئيس الوزارة قبل الحرب، وبين الرجلين منافسة حادة وخصومة مكتومة واحتقار متبادل. ويتحدث الجميع في السياسة، وهل في ادمغة رجال السياسة موضوع عدا السياسة؟ كأنما الدنيا لم تخلق إلا لتكون ميدانًا لانتخاباتهم، وكأنما الناس لا يوجدون إلا لتزكيتهم وتسليمهم مقاليد الحكم: واخيرًا تضيق سافي بالحديث وتسخط عليه، وتقترح على ابيها وعمها أن يبلغا السياسيين إنجيلهما الجديد.

ويراع الرجلان ظنًا منهما ان الشقيقين ينويان تكوين حزب سياسي جديد يزحم عليهما الميدان، ولكن كونراد يؤكد لهما أن فكرة كهذه لا يمكن أن تخالطهما نفسًا، فما عسى أن يكون هذا الإنجيل إذن؟ هنا يقول فرانكلين: «برنامجنا هو ان تمتد نهاية الحياة الإنسانية إلى ثلاثمائة عام»، وتقول سافي: «إن نداءنا في الانتخابات هو الرجوع إلى ميتوزيلا»، ولكن ما شأن ذلك والسياسة؟ هنالك يأخذ فرانكلين في شرح كتابه او إنجيله قائلًا: إن رجال السياسة يموتون ولما يبلغوا سن الرشد، يموتون وقبس من النور يوشك أن يشرق على نفوسهم المظلمة، فيجب أن تمتد بهم الحياة ليبلغوا الحكمة ويفيدوا من تجارب القرون! ولما يسمع مستر لابن هذا الكلام يوافق عليه، ولكنه لا يرى فائدة عملية من الخوض فيه، فقد

نستطيع أن نمسك الطيور بأيدينا لو تنطبق السماء على الأرض،
ويسائل كونراد: هل اهتدى إلى إكسير الحياة؟ هل يقدم لهما طعامًا
أو يسقيهما شرابًا؟ فيأسف العالم لأنه يحدثهما في العلم فيقبلان
عليه بأفواه مفتوحة وعيون مغمضة، ولكن لابن لا يثق بالعلم كثيرًا
ويستشهد بخطأ العلماء المتكرر، وربما كانت ثقته بالشعر أعظم،
ويجد من فرانكلين موافقة على كلامه، ويضرب هذا مثلًا على صدق
الشعر بأسطورة عدن، ثم يقول «حسنًا، أنت تذكر أنه في جنة عدن
لم يكن آدم وحواء خاضعين للموت، وأن الموت الطبيعي - كما نسميه
الآن - لم يكن جزءًا من الحياة وإنما هو اختراع متأخر عليها
ومنفصل تمامًا منها»، ولما يعترض لابن بأن الموت غير الطبيعي كان
موجودًا يستطرد فرانكلين قائلًا: «نعم، كان آدم وحواء معلقين بين
قدرين مخيفين: انقراض النوع من الموت غير الطبيعي، والأمل في
حياة أبدية، ولما لم يطيقا واحدًا منهما قررا أن يكتفيا بحياة قصيرة
أمدها ألف عام ومن ثم يعهدان بعملهما إلى زوج جديد، فاخترعا
الميلاد الطبيعي والموت الطبيعي اللذين هما من الظاهر استمرار
الحياة من غير أن يرزح مخلوق تحت وطأة الخلود».

فالحياة خالدة ولو فني الأفراد، ونحن صورها المتكررة، وهي
تسير في سبيل القوة والعرفان غير المحدودين، واللذين يجب أن يظلا
غير محدودين ليسوغا لنا الحياة. ويسأل لابن عن أصل الخطيئة،
فيجيبه فرانكلين قائلًا: إن آدم كان يعيش في عدن آمنًا من الموت
فكانت بيته الأبدي، وكان لذلك يوجه جل عنايته إلى المحافظة عليها
والاهتمام بشأنها، فلما اخترع الموت الطبيعي وأضحى مستأجرًا
للبيت لا صاحبه فترت عنايته به، وتجرأ على ضرب حواء بعد أن

كان يشفق أن يصيبها بسوء فيبقى وحيدًا لا انيس له، ولما جاء أبناؤه ساروا على سنته وزادوا عليها، فكان القتل وكان الصراع وكان الشقاء.. هذه هي قصة عدن ولك أن تسميها التطور الخالق إن كنت من المغرمين بالأسماء العلمية، وليس التطور ظاهرة عارضة مخلفة قوة، نحن تجربة في يدها فإن بشرنا بنجاح أبقتنا، وإن رأت أننا تجربة فاشلة قضت علينا وابتدعت غيرنا.. وكم من مخلوقات انقرضت ولم تترك إلا آثارها على الأحجار القديمة.

كل هذا طيب ولكن كيف السبيل إلى العيش ثلاثمائة عام؟ هل هنالك إكسير أو نحوه؟ الحق انه لا يوجد إكسير ولا غيره، وكل ما في الأمر - كما يقول فرانكلين - اننا نستطيع أن نبث في عقول الناس انه لا يوجد شيء يمنع من ذلك - طول العمر - إلا إرادتهم أن يموتوا قبل أن يشارف عملهم التمام، وإلا جهلهم بالعمل العظيم المتروك لهم أمر القيام به.

ويخيب أمل لابن وبيرج، لأن عقليتهما لا تقتنع إلا بالأمور المادية، أما الرغبة والاقتناع النفسي فأمر آخر! أليس كلنا نرغب أن نعمر ثلاثمائة عام، ومع ذلك لا يتاح لنا أن نتجاوز العمر المحدود؟ ولكن كونراد لا يرى ذلك وهو يقول مدللًا: «كل يود لو يحصل على مليون جنيه، فلماذا لا يحصل عليها؟ لأن الذي يتمنى أن يكون مليونيرًا لا يحرص على توفير ستة بنسات ولو هدده الموت جوعًا وانتصب «حملقًا في وجهه، والذين يرغبون أن يخلدوا لا يحاولون أن يقلعوا عن شرب البيرة أو تدخين التبغ، وهم يعتقدون أن الممتنع عن السكرات والتدخين يعيش أجلًا أطول، مثل هذه الرغبة لم تتجاوز «سبة الإرادة، انظر إليهم كما يعتقدون أنه يجب عليهم أن يفعلوا».

لكن لابن عسير عليه أن يفهم هذا الكلام، وهو يائس من أن يطول عمره، وبيرج يعد بأن يجعل من هذه المسألة أساسًا لمعركة انتخابية. وهاسلام لا يصدق شيئًا من هذا، حتى خطيبته سافي تشك فيه شكًا قويًا لما ترى انه من المحتمل ان تعمر الخادم وترجع إلى ميتوزيلا. أما الشقيقان فلا يخالطهما شك في الموضوع لكن هل يعمر أحد منهما أم لا؟ هذا ما لا يعلمه أحد.

●●●

نحن في عام ٢١٦٠ م في انجلترا أيضًا، وفي غرفة رئيس الوزارة وهو يجمع في هيئته ما بين مستر بيرج ومستر لابن، ونحن نحس تقدمًا في الحضارة الميكانيكية: فالوزير يتحدث إلى وزيرة الصحة بالتلفون وهي على بعد أميال عديدة، ويستطيع أن يراها ويرى المكان الذي تحل فيه كأنها على بعد أشبار منه، ويأخذنا عجب شديد أن نرى أزمة المصالح الحكومية في أيدي الأجانب، فوزيرة الصحة زنجية من أفريقية، ورئيس السكرتيرين الدائم من الصين «كونفوشيوس»: وسبب ذلك - كما يقول كونفوشيوس - أن الإنجليز بعد حرب طاحنة اقتنعوا بأنهم ليسوا أهلًا لحكم أنفسهم فسلموا أمورهم للغرباء، وانتظمت بذلك آلة الحكومة وتفرغت للتفكير في السياسة العليا. يدخل على الرئيس موظف إنجليزي كبير الشبه بكونراد بارناباس، يبدو عليه الاضطراب وتصدر عنه حركات عنيفة. وكان الرئيس قد أرسله بدلًا منه ليقابل مخترعًا أمريكيًا اخترع آلة للتنفس تحت الماء، ورأت الحكومة أن تعرض على الأمريكي شريطًا سينمائيًا يمثل العظماء الذين ماتوا غرقًا. وشاهد بارناباس من هؤلاء العظماء المنكوبين: الأسقف ستيكيت والوزير ديكنسن والجنرال

بالبيوي، وتحقق منهم بعين فاحصة، ولشد ما كانت دهشته عظيمة عندما تبين له ان هؤلاء الأشخاص ورئيس اساقفة يورك الحالي شخص واحد بعينه، نعم ليس الذي بينهم مشابهة قوية، وإنما هي ذاتية واحدة، ويدهش لحديث الموظف رئيس الوزراء ورئيس السكرتيرين وتزيد دهشتهم عندما يدخل عليهم رئيس أساقفة يورك وهو كبير الشبه جدًا بالقس هاسلام خطيب سافي الذي عرفناه من قرنين، ولا يستقر به المقام حتى يحمل عليه بارناباس متهمًا إياه بالسرقة، لانه ما زال يقبض من مال الدولة من بعد فوات السن القانونية للعمل، وهي حوالي الاربعين، ويرى الأسقف نفسه مطالبًا بتبديد الغيوم التي تكتنف الامر، فيقص عليهم قصة يدعي بطولتها فتكاد تصعقهم من شدة ما تدهشهم.. يقول إنه تزوج في عام ١٩٢٤ من ابنة فرانكلين الذي ينحدر بارناباس الحالي من أسرته، وإنه قرأ كتابًا لعم زوجه يبشر فيه للإنسان بحياة طولها ثلاثمائة عام، لأن حياته الطبيعية لا تؤهله للقيام بواجبه نحو المدينة، وإنه لم يستطع ان يصدق هذه الدعوى الخارقة، وعاش مع زوجه وتقضت الأيام سراعًا ووضح فعلها على وجه زوجه التي مضى من عمرها فجره وضحاه وطلع أصيله، وهو باقٍ على حال شبابه حتى لاحظت عليه ذلك امراته وضاحكته قائلة إنه سيعمر ثلاثمائة عام، ومضت الأيام وماتت زوجه ولم يتغير منه شيء، فوقع في نفسه أنه سيعمر حقًا، وكان كلما عاش عمرًا وعرفت له شخصية تخلص منها وتقمص شخصية جديدة، وكانت السبيل إلى ذلك ان يذهب إلى شاطئ البحر ويترك ملابسه ويرحل إلى بلد شاحط فيظن الناس انه غرق، وبهذه الطريقة كان أسقفًا مرات، وتقلد منصب الرئاسة مرة وتراس

الجيش مرة، وهو الآن بالغ من العمر قرنين ونصف قرن!! فإذا انتهى هاسلام من حكايته، استسلم كل من الحاضرين لعواطف شتى: فبارناباس لا يصدق، وبيرج لابن يشك شكًا قويًا، وكونفوشيوس يفكر ويفكر لعله يهتدي إلى نور اليقين وسط هذا الظلام الحالك. وبينما هم على تلك الحال من التكذيب والشك تدخل وزيرة لمقابلة رئيس الوزراء في أمر من أمور الدولة، وهي امرأة مهيبة - رغم حداثة تكسوها - ولا تكاد تلتقي عيناها بعيني الأسقف هاسلام حتى تعتريها دهشة،وتعتريه دهشة مثلها، ويصرح لها بأنه يتذكر أنه رآها في مكان وزمان تأبى الذاكرة أن تدله عليهما، وكل ما يذكره أنها كانت تفتح له بابًا وتنحني له، وتعجب الوزيرة لأنها هي الأخرى يخيل إليها أنها كانت تستقبله حقًا وتفتح له بابا كذلك، ولكن أين ومتى؟ ويسأل كونفوشيوس الأسقف: هل يعرف أحدًا غيره امتد به العمر إلى هذا الحد؟ ولكن الآخر لا يدري من هذا الأمر شيئًا، وقد أخفاه عن العالمين لعلمه أن الناس كالحيوانات يؤذون من ليس على شاكلتهم: وهنا تتذكر الوزيرة الأسقف وتعترف له بأنها خادم خطيبه سافي التي كانت تستقبله في بيت بارناباس عام ١٩٢٤!!: وتقص عليه كيف أنها قرأت كتاب بارناباس وكيف تأثرت به تأثرًا لا يتاح إلا للجاهلات؛ وقد تزوجت ولاقت حياة عسيرة شاقة لم تذق فيها حلاوة الحياة ولا الراحة ثم مات زوجها، ويدهشها أن تبقى بعده - وبعد فوات تلك الأعوام - محافظة على شبابها وميعة صباها؛ ثم وقفت على ما هنالك من أنها ستعمر كما قرأت في كتاب بارناباس، وقد راعها الأمر لأنها لم تحتمل الحياة وهي قصيرة، فكيف تصبر عليها

ثلاثمائة عام؟ ولكن عزاها وشدد عزيمتها تقدم مطّرد ساير الحياة السياسية والاجتماعية مما جعلها تحيا لنفسها حتى تبوأت مقعدًا في الوزارة، ويلقي ببرج لابن عليها نظرات قلقة، وقد اذهلته الحقيقة ويتجرأ فيسألها: لم لا تتزوج؟ وتجيبه بأنها تزوجت من زمن فنانًا في الثمانين وعاشرته زمنًا، ومات الرجل ولما يبدع إبداعًا حقًا، مات في اللحظة التي تفتحت له فيها أبواب السماء !فيسألها ثانيًا: لم لا تتزوج مرة أخرى وهي في هذه السن؟ ألانها لا ترضى أن تعبث بطفولة واحد مثله في الثمانين، وهل تراه يرضى وهو في هذه السن أن يتزوج من فتاة في الثانية عشرة؟ ويدور بين الأسقف والوزيرة حديث رائع عن الحياة الإنجليزية يتناولانها فيه بالنقد المر، فالإنجليز يجزعون أمام الأعمال الهامة ويتركونها للزنوج والصينيين، ولعله لا يكون بعيدًا أن يأتي يوم يصبح الإنجليز فيه خدمًا في بلادهم! ويلاحظان أن العقول الصفراء والسوداء والسمراء هي التي تبتدع الآن وتبتكر كما كانت تفعل قديمًا العقول الاسكوتلاندية والألمانية واليهودية والإيطالية، وحسب الإنجليز الآن ان يلعبوا الجولف وغيره من الألعاب الصبيانية: وطبيعي أن ينجذب كل من الأسقف والوزيرة إلى بعضهما، ويهمان بالخروج وفي نية كل منهما أن يتزوج من صاحبه، ويحدس برناباس هذه النية فيعترضهما، ولكنهما يخرجان رغمًا منه؛ ويقترح هو أن يقتلا،ولو دعا الأمر إلى سن تشريع تحرم فيه الحياة على المعمرين.. أليس من الممكن أن يلدا أطفالًا مثلهما وأن ينتشر هذا النسل فيضحون هم أطفالًا بجانبهم؟.. أليس من المحتمل أن تمتد قاماتهم بحيث تناسب أعمارهم فيمسون بجانبهم أقزامًا؟

ويستمع كونفوشيوس إلى حديث برناباس ولكنه لا يقتنع به

ولا يرى فيه وجهًا للحق، فيحتد بارناباس ويخرج غاضبًا، ويقبل الصيني على رئيس الوزراء محدثًا قائلًا: إن الإنجليز يستطيعون أن يبلغوا الحكمة لو بلغوا سن الرشد ولا سبيل إلى ذلك ما داموا يموتون أطفالًا؛ ويسخر من ادعائهم أنهم وجدوا ليكونوا السادة، وليسيطروا على قيادة الشعوب، ويشبهه بادعاء الطفل الغرير وتيهه على اللعبة الخشبية التي يعبث بها، ويتساءل الرجل: هل يوجد يا ترى أناس آخرون على شاكلة الأسقف والوزيرة؟ من يدري؟ بل من يدري أنهما ليسا من هؤلاء المعمرين؟

وبينما هما يتحدثان تدعو وزيرة الصحة الزنجية رئيس الوزراء لنزهة يهبط فيها بالباراشوت في خليج فنشجورد، فيتردد على غير عادته إذا دعته هذه المرأة. كانت الحياة قصيرة زائلة وكان يستعين بها، ولا يعدل بساعة متعة شيئًا في الوجود، ولكنه قد يعمر مع المعمرين، وقد تطول حياته فكيف يجازف بكنز ثمين؟ وهب أنه نجا من الباراشوت: أفليس محتملًا أن يصيبه روماتيزم من برودة البحر؟ وكيف يحتمل الروماتيزم ثلاثمائة عام؟.. كلا.. كلا.. خير من كل هذا أن يرفض الدعوة، وقد كان واستهان هذه المرة بغضب المرأة الزنجية. ويُسر كونفوشيوس لهذه النهاية أن تغلبت فيه روح الحكمة على غريزة اللهو والرياضة وإن أصبح جبانًا حساسًا حكيمًا!! ولا يحفل بيرج لابن بهذه الأوصاف، فليكن جبانًا أو غير جبان، أمر واحد يهمه ويكترث له وهو السلام ما دام من الجائز أن يعيش ثلاثمائة عام!

اتجاهي الجديد ومستقبل الرواية[١٧٤]

في مؤتمر الأدباء في موسكو وقف الروائي الفرنسي الن روب جرييه يعلن أن «الرواية» قد استهلكت كل الموضوعات، وانه لم يعد هناك من جديد للروائي إلا الشكل. وبذلك يقدم جرييه تبريرًا للشكل الجديد أو الطريقة الجديدة التي يتبعها في رواياته والتي يسميها بعض النقاد بالمدرسة الشيئية. فجرييه يصف الأشياء العادية وصفًا مسهبًا، وكأنه عالم طبيعة وقع على حفرية نادرة، فأجرى عليها دراسة وصفية شاملة. إنه يصف مثلًا أكرة باب أو نافذة في عدد كبير من الصفحات في دقة وإسهاب تبعث على الملل، بل وعلى أكثر من الملل، لدرجة أن كثرة التفاصيل غير الهامة تحير القارئ في المعنى الذي يرمي إليه الكاتب.

وجرييه في وصفه المسهب هذا، وفي اهتمامه بالأشياء اهتمام الدهشة والفضول، يريد أن ينفي الفة الإنسان للأشياء التي يراها ويستعملها في حياته اليومية، وأن يخلق نوعًا من الغربة بين الطبيعة والكون وبين الإنسان، بل بين أكثر مظاهر الطبيعة قربًا إلى الإنسان، وهي الأدوات التي يستعملها، والأماكن التي يزاول العيش فيها. إنه يريد القول بتفرد الإنسان في الكون، وبانقطاع أي صلة حقيقية له بما هو خارج نفسه، وهو يوغل في إنكار كل شيء لدرجة أنه يتهم

(١٧٤) نشر في مجلة الكاتب. فبراير ١٩٦٤.

كاتبًا مثل جان بول سارتر بالإيمان!

وهذا الإغراب في الشكل الذي انتشر بين كُتّاب الرواية الحديثة جاء نتيجة للافتقار إلى الموضوعات، وإلى الاتهامات النقدية التي وجهت للرواية كفن، بأنها انتهت كشكل أدبي لأنها طرقت كل الموضوعات، ولم يبق أمامها من موضوع جديد لتطرقه.

والواقع أن «الرواية» طرقت جميع الميادين التي يمكن أن يتصورها الإنسان، تناولت الفرد والمجتمع والأسرة، وتناولت الشوارع والمدن، بل والقارات، فدوس باسوس مثلًا طاف في قصصه بأكثر من قارة، بل إنها تخطت القارات والأرض ككل لتصعد إلى الكواكب. وما من عاطفة بشرية إلا وكانت موضوعًا مكررًا للرواية لفترات طويلة.

والذين ينظرون إلى «الرواية» من هذه الناحية يحكمون عليها بأنها استنفدت أغراضها، مما أوقع الكثير من الروائيين المعاصرين في أزمة، إذ أحسوا بأن كل ما يفكرون فيه قد فُكِّر فيه من قبل، وكل ما يريدون التعبير عنه قد سبق التعبير عنه!

وهذا ما جعل هؤلاء الروائيين يركزون في الشكل، وبدأت الرواية عندهم تتجه نفس الاتجاه الذي اتجهت إليه الفنون التشكيلية، وتتحول إلى شكل صرف يصبح «الموضوع» فيه شيئًا دخيلًا.

ولكن إذا أخذنا هذه الآراء كحجة ندفن بها الرواية، يجب أن ندفن بها أيضًا الأدب كله بل وجميع الفنون الأخرى. فأي موضوع للفن بصفة عامة قد سبق أن طرقه الفن. وكل موضوع بالنسبة للفنون جميعًا استُهلك أكثر من مرة. إلا أن المسألة ليست بهذه البساطة. فالمستهلك يتجدد، كما تتجدد الحياة نفسها، والجديد دائمًا ليس هو الموضوع الذي لم يطرق من قبل، وإنما هو الفنان. والفنان هو إنسا[ن]

وعصر وحضارة. وكل جيل يعطي وجهة نظره في موضوعات ثابتة في جميع الأزمان.

وحين نتكلم عن التشابه والاختلاف يجدر بنا أن نتصور هذا الموقف: إذا نظرنا لبني الإنسان من طائرة على ارتفاع ما من الأرض، وجدنا أن جميع الناس متشابهون. ولكن إذا اقتربنا منهم فوجئنا بأوجه الاختلاف. والإنسان ككائن عضوي لا تختلف أفراده، ففي كل إنسان نسبة من المعادن ونسبة من التراكيب لا تتغير أو تختلف في إنسان عن آخر، ورغم كل هذا فلكل إنسان ذاتيته وتميزه. والمسألة في الفن ليست مسألة جديدة أو قديمة. بل في الوظيفة التي يؤديها، في تعميق الحياة وإثرائها بالتجربة، وما يؤديه هذا الثراء في الفهم والتجارب من تطور في الحياة البشرية بوجه عام. واعتقد أن الحكم على الفن لا يكون بمدى ما فيه من جدة، بل بما يحققه من متعة وفائدة. وهذا المعيار هو الذي مر به التراث الفني للإنسانية كلها، وعلى اساسه اختزلت اعمال ادبية وفنية كثيرة، وكتب لأعمال أخرى البقاء والاستمرار.

وبالنسبة لعاطفة الحب مثلاً.. ما الجديد فيها؟ هذا بصرف النظر عن علاقتها بالرواية، أو كموضوع من موضوعاتها. هذه العاطفة إذا حكمنا عليها بمعيار الجدة، ينبغي علينا أن نقتلها وننتهي منها!

والموضوع ليس له القدر نفسه من الاهمية، حين ننظر إليه من الناحية الجمالية والفنية والنقدية. فمتابعة الحوادث في أي صحيفة يومية تكشف عن عشرات القصص. سنجد حادثة عطيل في حي شعبي. وسنجد حوادث كثيرة مطابقة لما حدث لهاملت أو للملك لير.

ولكن هذه الحوادث لا ترتفع لمرتبة الفن بمجرد سردها على

الناس. فالفن هو طريقة تناول الموضوع او معالجته.

وعلى هذا الاساس لا يقوم اي خطر على «الرواية» كشكل من الاشكال الفنية، بل ستظل شكلًا محبيًا ما عاشت في نفس الإنسان الرغبة في الأدب والحاجة إليه، وما بقيت وسيلة القراءة ممكنة وميسرة وغير منسوخة. ولقد كان أندريه جيد يقول: «نحن نكتب على امل أن نجد قارئًا لم يقرأ الأعمال السابقة علينا».

وازمة الرواية–مع ذلك- ليست ازمة عامة. ففي بلاد اخرى كثيرة كالاتحاد السوفيتي والهند والصين، لا يشكو روائي شكوى كهذه الشكوى التي نجدها في فرنسا وانجلترا وإيطاليا. فتلك البلاد لا تخلو مفاهيمها الحالية لحظة واحدة من الازمة. والافتقار إلى الموضوع ترجمة لكلمة أخرى وراءها. وهي «أن ليس لدينا مضمون وليست لدينا قيم نؤمن بها». وإذا خلا الإنسان من القيم اصبحت كل الموضوعات الصالحة للمعالجة لا شيء.. فحين لا تصبح للإنسان قيمة تفقد الحياة معناها وتصبح شيئًا تافهًا لا يستحق التناول وأزمة أوروبا هي انها لم تعد تؤمن بشيء، لم تعد تؤمن بالحياة، ولا بشيء وراء الحياة أو قبل الحياة، وبدون الإيمان بشيء ما تصبح الكتابة شيئًا في الفراغ. وحين توجد النزعة الادبية لدى إنسان في هذا المناخ العدمي تغرق نفسها في الشكل وتعتبره ملاذها الوحيد ومن هنا تعود قضية الفن للفن بمعناه الصحيح، والذي لم ينطبق على الفن الاوروبي في أي عصر من العصور، كما ينطبق عليه الآن. وليس في الأدب وحده، بل في الموسيقى والفنون التشكيلية ايضًا.

وظاهرة أخرى تلفت الأنظار في فن «الرواية» الحديثة هي النزعة الميتافيزيقية، ومن أن «الرواية» لم تخلُ يومًا من موضوعات الفلسفة.

إلا أن الاتجاه الحديث في الرواية يجعل للفلسفة الميتافيزيقية مكانًا واسعًا فيها.

وهذه الظاهرة أيضًا دليل آخر على أزمة الحضارة الأوروبية. ففي فترات الاستقرار والازدهار الصناعي الذي عاشته أوروبا قبل ان تمزقها التناقضات الحديثة، سيطر عليها العلم التجريبي، فازدهرت أو تجاهلت القيم الروحية. وكما يتعرض جسم الإنسان لأزمة بيولوجية أو نفسية تتعرض الحضارة للازمة. وكما يستيقظ الإنسان على أزمته ليبحث عن ملاذه في القيم الروحية فالحضارة تفعل هذا أيضًا. وعندما يفلس الانسان وعندما تفلس الحضارة تتذكر الله. كانت أوروبا تؤمن بالعلم ثم فقدت الإيمان به، ومن هنا بدأت تتجه للميتافيزيقا. وإذا كان لكاتب أن يتحدث عن تجاربه في مجال الحديث عن قضية عامة، كمستقبل الرواية، فإني أستميح لنفسي أن أضرب مثلًا برواية «أولاد حارتنا» لأنها في الواقع كانت صدى للتفكير في أزمة العصر الحديث.

في هذه الرواية ظن العلم أنه في غنى عن الجبلاوي فقتله، وهذه النهاية توصله إلى الخواء، وإلى الإحساس بمرارة الحياة، وهي النتيجة التي وصل إليها البير كامي حين اعتقد أن الحياة لا معنى لها، وأن العبث هو المعنى الوحيد.

ومن الناحية الموضوعية فإن إنكار المعاني العليا في الحياة إذا كان يجد أدلة وبراهين، فاحتمالات وجودها ليست أضعف من احتمالات إنكارها. وهذا الإنكار غير المقطوع بصحته خطأ أخلاقي، يصل بالإنسان إلى أقصى درجات اليأس. وحين كان الإنسان يؤمن بالمجتمع ظهرت الرواية الواقعية والرواية الطبيعية، فلما بدأت فترة

الشك في المجتمع والعقل عادت جميع الأسئلة القديمة التي غمرها النجاح في النسيان تلح في طلب الإجابة عليها.

وقد يقال - فيما يختص بمستقبل الرواية - أن الطابع الجديد للعصر هو طرح الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها، وان الجدل العقلي هو الصفة الغالبة للتفكير المعاصر، وبالتالي فإن الشكل الأدبي المناسب لأزمة العصر هو المسرح، باعتبار أن المسرح هو الشكل الفني الذي يرتكز أساسًا على الجدل والحوار وصراع الأفكار.

وبهذا يرى القائلون بانتهاء عصر «الرواية» أن الموقف الميتافيزيقي السائد لا يجد مجاله في التعبير عن نفسه في إطار الرواية، بل يجده في المسرح. وهذا صحيح إلى حدٍّ ما، فالرواية قد تضمر قليلا بالنسبة إلى النشاط الذي قد لحق المسرح. والأزمة الحالية ليست أبدية فالتقدم يسير في طريقه، وما يبدو الآن من بوادر الأزمة في المجتمعات الأوروبية قد يكون نهاية حضارة وليس نهاية الإنسانية

ومع ذلك فالرواية لم تقف مكتوفة اليدين بإزاء الموقف الجديد، إنها تغير أسلوبها في العلاج، وتكتشف «فنية» جديدة لها. وهو الذي يفسر المحاولات الجديدة في الرواية المعاصرة. وعندما كانت الرواية تهتم بالحياة في حد ذاتها كان الأسلوب الروائي التقليدي أنسب شيء لها، وكانت الشخصية الإنسانية تظهر بكل تفاصيلها. أما حين تتحول الحياة إلى مشكلة لا يصبح الإنسان شخصًا معينًا، بل مجرد إنسان. ليس هو شخصًا بالذات يتميز عن سائر الناس بتفاصيله الخاصة وذاتيته.. ولهذا تختفي التفاصيل، ويختفي السرد، وتتصدر المناقشة كل العناصر الأخرى، ومثلًا رواية «أولاد حارتنا» مع أنها تروي تاريخ الإنسانية كلها، تُعتبر من حيث الحجم أقل من جزء

من اجزاء رواية كثلاثية بين القصرين. وعندما يكون الإنسان امام مصيره وجهًا لوجه تفقد التفاصيل قيمتها، وهذا هو الفرق بين عرفة بطل اولاد حارتنا وكمال احمد عبد الجواد (بطل الثلاثية). ولكن إذا حاولت الرواية تجديد نفسها بالطريقة التي سار عليها جريبه فمن المؤكد انها ستنتهي، فمن الغريب أن جريبه لا يؤمن أيضًا حتى بالعلم.

ومستقبل الرواية في ظل ظروف العصر قد يكون مشكلة بالنسبة لكُتّاب القيم المنهارة، وقد يكون البحث عن تكنيك جديد شيئًا هامًا بالنسبة لهم. ولكن من خلال تجاربي في الرواية لم اشعر بمشكلة التكنيك بهذه الحدة، بل إني أحلها بمنتهى البساطة. فالمضمون الذي افكر فيه وما وراءه من انفعال هو الذي يحدد لي الشكل دون عناء، ودون اكتراث بقدمه أو جدته. التكنيك بالنسبة لي مناسب او غير مناسب!

حين كنتُ مشغولًا بالحياة ودلالتها كان انسب اسلوب لي هو الأسلوب الواقعي الذي قدمت به أعمالي لسنوات طويلة. كانت التفاصيل سواء في البيئة أو الأشخاص أو الاحداث على قدر كبير من الأهمية، وهو اسلوب يعكس الحياة في جملتها، وقد تنبثق منه الأفكار بطريقة غير مباشرة.

اما حين بدأت الأفكار، والإحساس بها يشغلني، لم تعد البيئة هنا، ولا الأشخاص ولا الأحداث مطلوبة لذاتها. الشخصية صارت أقرب إلى الرمز او النموذج، والبيئة لم تعد تعرض بتفاصيلها، بل صارت اشبه بالديكور الحديث، والأحداث يعتمد في اختيارها على بلورة الأفكار الرئيسية.

والخطورة هنا أن تفرض الفكرة نفسها على الواقع فلا تتلاءم معه، أو تضطر لأن تخلق له واقعًا خاصًا، ولكن حين تنبع الفكرة من الواقع ونتيجة لمعايشة خصبة له، لا يوجد التناقض بينها وبين الواقع حين تحاول التجسد في شكل من أشكاله. على أن هناك صعوبة يواجهها الكاتب، إذ ينبغي أن تأتي الأحداث والأشخاص والجو العام للعمل الفني بصورة طبيعية بعيدة عن افتعال الصنعة والتدبير المسبق. وهو ما يبعد هذا المنهج في التعبير عن الأدب الفكري.

والفرق الأساسي في اعتقادي بين هذه الطريقة وبين الأدب الفكري المعروف، كما عند كافكا مثلًا، هو أن كافكا خلق عالمًا له أبعاد خاصة غير عالمنا، عالم مختلف يصبح أن الإنسان فيه توجه له تهمة لا يعرفها، وفي موضوع غير معروف. عالم تستساغ فيه مثل هذه الأحداث، ومثل هذه الطريقة. فالأفكار هنا خلقت لها عالمًا يناسبها.

وفي مسرحية شهرزاد لتوفيق الحكيم مثل آخر على خلق واقع خاص مختلف عن الواقع المألوف ليخدم الفكرة. فليس مألوفًا في الحياة العادية أن يسلك الملك شهريار سلوكه المعروف في المسرحية إن لهذه الأعمال واقعها الخاص ولا ينبغي أن يقارن بالواقع العادي وفي محاولاتي الأخيرة تنبع أفكاري من الواقع، لأنه هو الذي يوحي بها، وبالتالي فإنها تعود إليه دون أن يكون هناك فرض أو تناقض.

وليست هذه المحاولات شيئًا جديدًا على الأدب، فكثير من الكتاب، في العصور الأدبية المختلفة، تحولوا من الطبيعة إلى التعبيرية، مثل ستراندبرج وتوماس مان وأونيل وهيمنجواي.

والرواية كشكل فني مرنة جدًا، وتستطيع أن تهضم جميع الأشكال الفنية السابقة عليها كالمسرح والشعر والملحمة، فكما قد

تقوم على الاسترسال، من الممكن أيضا أن تقوم على الشكل الدرامي الأميل إلى التركيز، وإلى إعطاء الصدارة للحوار. وهي تستطيع أن تناقش الفكر كما تستطيع التعبير عن الحياة. بل إنها تستطيع أن تعرض مناقشات طويلة وعويصة مما يعتبر إدخاله في المسرح مغامرة من المغامرات، مثل المناقشات التي دارت في رواية «الجبل السحري» لتوماس مان، أو كالمناقشات التي عرضها بروست في «الزمن المفقود» وهي مناقشات طويلة وخاصة في الفلسفة والفن، من الممكن أن تُجتزأ من الرواية لتصدر في كتب منفردة.

وبالتالي فإني لا أعتقد أن تجاربي الجديدة في الرواية لها صلة بالأزمة الأوروبية، هذه أزمة خاصة جدًا، وما زال مجال الرواية متسعًا أمام الروائيين في كثير من دول العالم التي تملك فلسفة حياة وعقيدة إنسانية.

وللرواية أخيرًا ميزة كبرى تمتاز بها عن سائر الأشكال الأدبية، فهي تخاطب الإنسان كفرد واعٍ مفكر دون أن تعتمد على أي سحر. بينما الأشكال الجماعية تتطلب من المتلقي الوجود في حالة سلبية تامة كالسينما والتلفزيون والإذاعة والمسرح إلى حد ما. والمتلقي في السينما لا يبذل جهدًا خَلقيًا، بينما هو مع الرواية يلعب دورًا خلاقًا ويشترك مع المؤلف في تحويل الكلمات إلى وقائع وأحداث وانفعالات.

وهناك قضية كانت تلح عليَّ دائمًا، وهي قضية الالتزام، لأن الالتزام ينقذ الفن من الانتحار في القوالب الشكلية، وهو الأمر الذي تتجه إليه الرواية الأوروبية الحديثة. ومع أنه من الصعب جدًا تصور وجود كاتب غير ملتزم أو حتى وجود مواطن غير ملتزم. إلا أن الالتزام بمعناه الاصطلاحي هو التزام بموقف تقدمي من الحياة.

ولكني اعتقد ان اساس الفن الوحيد هو الصدق، فالكاتب الاشتراكي
ليس من الضروري أن يكون ملتزمًا بالاشتراكية لتلحقه صفتها. بل
يكفي ان يكون اشتراكيًا لتظهر آثار اشتراكيته فيما يعمل وهو ملتزم
بالالتزام الأساسي والوحيد في الفن، وهو الصدق. وهذا الأساس
يخرج الفن المفتعل من نطاق الفن. ولعله أفيد للأدب وللمجتمع ان
يوجد كاتب رجعي مخلص من أن يوجد كاتب اشتراكي مفتعل. لأن
الرجعي المخلص سيثير تفكير القارئ والناقد، ويخلق مجالًا للصراع
تزداد الأفكار من خلاله وضوحًا، اما الاشتراكي المفتعل فيسقط
افتعاله على الاشتراكية ويسيء إليها.

أشواك[١٧٥]

كأن هذه القصة قصيدة غنائية طويلة، غنائية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، فهي من ناحية تجربة ذاتية، وهي من ناحية أخرى تصف شعورًا عميقًا في حال عالية جدًا من التوهج والحساسية والانفعال، حال يستحيل فيه الجسم ذوبًا من العاطفة، وتنقلب الروح أتونًا تنصهر فيه المشاعر والأفكار والأوهام، هي قصة قلبين ألف بينهما الحب حتى بلغ بهما ليلة الخطوبة السعيدة، وفي تلك الليلة وحينما أمسك بيدها ليلبسها الخاتم أحس بها ترتعش متقلصة في يده، ونظر فإذا دمعة تند من عينيها ويخلو بها وجلًا مستخبرًا فتبوح له بكل شيء مطمئنة إلى رجولته واثقة من حنانه، وتختم قصتها قائلة: «وهذه الدمعة التي رأيتها لم يكن منها بد، كنت أشيع بها عهدًا عزيزًا، كان اللحن الموسيقي من حولي هو لحن الجنازة أشيع به نعشه (تعني حبيبها الأول) للمرة الأخيرة.. والآن لقد انتهى!». كلا لم ينته، ولكن بدأت صفحة جديدة من الإيثار والحب تتلوها صفحات من الغيرة والشك، ثم صفحات من الغفران والسعادة تعقبها أخريات من الوساوس والآلام، ولا يزالان في صراع مخيف، يحاولان نسيان الماضي والإخلاص للحاضر والمستقبل، حتى يقتلهما الصراع فيمد الماضي يده السوداء حائلًا بينهما في قسوة ووحشية، وإذا بصاحبنا

(١٧٥) نشر المقال في جريدة السوادي، ١٩٤٧

يعود كما كان قلبا خاثبًا في دنيا قفراء، وتمر الايام وهو لا يألو أن يقتلع من قلبه أحلام ماضيه فلا يجد إلى ذلك سبيلًا، لقد ثبتت منه في القلب مودة وفي النفس صورة، لا يحس إلا بتلك ولا يرى إلا هذه. ثم توغل الأيام في سيرها، وإذا به يلتقي يومًا بفتاته تجر بيدها طفلًا، فيقبل عليها وقد نسي نفسه، وتستقبله بابتسامة الأسى البعيد، وتسأله عن حاله، وتقدم له طفلها، وكم راعه أن وجدها قد سمته باسمه، وإن كان الاسم هو كل ما ظفر به حبه..

وكان توفيق الكاتب باهرًا رائعًا، والتوفيق في مثل هذه القصة يتعلق قبل كل شيء بتصوير العواطف، فهي ليست كالقصة الموضوعية يتشعب فيها مجال التعبير لتعدد مقوماتها من الموضوع والشخوص والقيم الفنية المتنوعة، ولكنها تتركز في العاطفة الاساسية التي يتبلور فيها والباعث والموضوع والقصة جميعًا.

وقد كان توفيق الكاتب باهرًا رائعًا كما قلت، استوفى الغاية من الدقة والحساسية والعمق والصدق وتسجيل الخلجات حتى ادقها وابعدها إيغالًا في مسارب النفس، فاستطاع أن يحرك القلوب ويدمجها في مأساته، تعيش فيها، وتشارك في حبها ونفورها، ولذاتها وآلامها، وذلك كله في بيان سلس جميل مشرق يستأثر النفس بشاعريتها ويبهرها بدقته، ويستهويها بطابعه القصصي.

ولم يشأ الكاتب أن يسوق وصفًا مباشرًا لبطليه، ولكن شخصيتيهما تبلوران وتتميزان في مجريات تصوير العاطفة التي تربطهما وانسياق الحوادث فيما بينهما.. ومن ذلك يتبين أن فتاة من أولئك الفتيان الذين يهاجرون من الريف في طلب العلم ثم تستبقيهم أسباب الحياة في القاهرة فيعيشون على شاطئ الحياة

بها محافظين على طهر منشئهم الأول، ولا يستجيبون لدواعيها إلا بمقدار لا يخدش الفضيلة بحال من الأحوال، يتخذون زيها ويقطنون مساكنها ويخالطون اناسها، حتى إذا عركتهم تجربة من تجاربها تكشف ظاهرهم المكتسب عن طبعهم الأصيل ونزعت بهم الأفئدة إلى تقاليدهم الأولى في حدة لا تعرف الاعتدال وغضب لا يبالي بالرحمة، فلم تخلُ عاطفته قط من صراع ونضال، وإذا أضفنا إلى ذلك ما جبل عليه من حساسية شديدة جعلت من نفسه فريسة سهلة للوساوس والشكوك، وما طبع عليه من كبرياء، واعتزاز بالنفس دفعاه في اكثر من حال إلى أن يقف من فتاته موقف المعلم والمرشد، وإلى أن ينظر إليها من علٍ وهو لا يدري، إذا أضفنا هذا كله أمكننا ان نفهم البواعث التي كانت حرية بأن تقضي على حبه في أية لحظة من اللحظات. وكأنه لم يفطن دائمًا لشدة شكه وكبريائه، ولكن جاء على لسان أهل خطيبته ما يؤكد هذا الخلل. فأم الفتاة تقول له وقد نفد صبرها: «... ولو كانت جارية يعذبها سيدها ما احتملت أكثر من هذا، كل يوم عتاب، وكل يوم مناقشة، وكل يوم تانيب. واخوها يقول عنه -في إبان الخلاف- بأنه لم يكن في الحقيقة جادًا في مشروعه، وانه كذلك كثير الشكوك والمخاوف إلى درجة لا تطاق. وفي هذا الوصف وذاك ما يدل على حقيقته بلا ريب، ولكن فتانا كان مخلصًا لطبيعته ومنطقه فلم يدر انه بات لا يطاق، وود حبه وهو يبكيه بدموع غزار.

أما الفتاة فهي أنوثة مكتملة، مطمئنة إلى فتنتها معتزة بسحرها، وقد جربتها في رجلين أحبتهما وفي كثير ممن لم تحب، وكان اعتزازها بانوثتها لا يقل عن اعتزازه بنفسه، فنشب الصراع بين

قوتين جبارتين، وكأنهما أثرا معًا في النهاية عذاب القطيعة والحرمان على ذل النفس والإذعان، ولم تكن تريد رجلًا فحسب، ولكنها رامت رجلًا يعبدها ويعتز بها، ويرى في أنوثتها ما ترى هي على الأقل، ولما قضت الظروف بأن تبديها أمامه عارية- على حد تعبيرها- وأن يطلع من ماضيها على ما عسى أن يبدد أحلامه وأوهامه، جفلت منه، وأبت أن تكون له، وداست قلبها ومستقبلها، ورضيت بالقبوع في بيتها تنتظر «أي رجل» غيره، قد لا يحوز رجولته وسجاياه ولكنها لن تقف منه موقف الإذلال أبدًا، وفي هذا الكفاية لتلك النفس الحساسة العزيزة. انظر إليه كيف يقول عنها في موقف من مواقف الصراع:

«... فكانت تخشى أن تتودد كما يريد، فيحمل ذلك منها على ذلة الاعتراف، ومهانة الانكشاف، وكانت تقيس مكانها عنده باحتماله لتدللها...». وفي مرة أخرى تقول له: «تحسبوني طفلة، تغتصبونها وتوبخونها ثم ترضونها بقطعة من الشيكولاتة!». أجل لم تكن فتاة تروم بعلًا فحسب، وقد قابلها حبيبها الأول بعد فسخ خطبتها - وكان طلبه سبب هذا الفسخ- فأبت أن تسلم عليه وردته ردًا جميلًا وهي الخطيئة المهجورة، وقد انصرم عام أو نحوه فرجع مستغفرًا وراغبًا وكان في أسوأ حال، خطيبته مهجورة لا ترجمها الألسنة والتخرصات، ولكن هل رحبت به؟ هل انتهزت الفرصة لتظفر برجلها وتقطع ألسنة السوء؟ كلا، وعلى العكس من ذلك راحت تقول له: «اسمع يا أخي، إنني لا أصلح لك، إن حياتنا لن تستقيم، إنني عارية أمامك، ولن أقف عارية أمام إنسان...».

وأعود فأقول إن توفيق الكاتب كان باهرًا رائعًا، ولكن ينبغي أن نذكر إلى هذا أن القصة تجربة شخصية، فهي معفاة من ضرورات

الخلق في الموضوع والشخوص، كما ينبغي أن نذكر أن القاص لا يستحق هذا الاسم حقًا حتى يخرج عن نطاق ذاته، ويكتب عن الآخرين، ولكن ليس من شك أن من حقه أن يعالج تجربته الشخصية ولو مرة واحدة، ومن حقه كذلك إذا فعل فأحسن وأجاد أن يشهد لفنه بما هو أهله من السمو والبراعة.

تقارير مجمع البحوث الإسلامية ضد «أولاد حارتنا»

التقرير الأول

١- القصة تقع في خمسمائة واثنتين وخمسين صفحة من القطع الكبير. وهي من القصص الرمزية التي تتناول تاريخ البشرية ابتداء من ادم وما وقع له ولابنيه، وبعثة الرسل: موسى وعيسى ومحمد إلى وقتنا هذا، وما يظهر كل يوم من جديد في التقدم العلمي.

٢- وقد رمز الكاتب إلى كل حادثة مشهورة وشخصية معروفة، وأضفى عليها من التصوير ما يحدد معالمها ويدل عليها، وإن لم تكن في الإطار التاريخي لها. فرمز للإله «بالجبلاوي»، والجنة «بحديقة القصر»، وادم «بأدهم»، وإبليس «بادريس»، وموسى «بجبل»، وعيسى «برفاعة»، ومحمد «بقاسم»... إلى آخر الرموز التي استخدمها في تصوير الأحداث.

٣- وقد أخطأ التوفيق الكاتب في تناوله للإله والرسل.

أ- فبالنسبة للإله:

جسَّد الإله ونعته بصفات مقذعة سواء على لسان إبليس أو قدري الابن العاصي من ولدَيْ ادم أو الفتوات، وفي بعض الاحيان على لسان الرسل، والبعض الآخر عند تصويره

هو لبعض المواقف. وصفه على لسان إبليس بأنه قاطع طريق في القديم، وعربيد أثيم في المستقبل، ووصف تقاليد أسرته بالسخف والجبن المهين، وأنه يغير ويبدل في كتابه كيف شاء له الغضب والفشل. ووصفه على لسان قدري ابن أدم بأنه لعنة من لعنات الدهر، وأنه البلطجي الأكبر. ووصفه على لسان أحد الفتوات بأنه ميت أو في حكم الميت. ووصفه على لسان ناظر الوقف بأنه قعيد حجرته، ولا يفتح بابه إلا عندما تُحْمَل إليه حوائجه. ووصفه على لسان احد تلاميذ عيسى بأنه عاجز وانه لو كان في قوَّته الأولى لسارت الأمور كما يشاء. ووصفه على لسان عرفه رَمْز العلم بأنه نائم غير دارٍ بجريمته. ثم يختم قصة الرسالات بموت الجبلاوي. يراجَع في ذلك الصفحات التالية من الكتاب: ٢٣، ٢٥، ٢٩، ٥١، ٥٥، ٥٦، ٦٥، ٦٦، ٧١، ٨٦، ٩٥، ٢٣٠، ٢٣٧، ٢٧٤، ٢٨٩، ٤١٠، ٤٨٤، ٤٩٢، ٤٩٧، ٤٩٩.

ب- بالنسبة للرسل:

صوَّرهم جميعًا في صورة من يرتاد «الغُرَز» ويتعاطى المخدرات، وهذا أخف ما وُصفوا به فيما كتب. عيسى: وصفه على لسان احد الفتوات بأنه خنثى. يقول بطيخة أحد الفتوات ص ٢٧٥: فتوات الحارة تجتمع من أجل مخلوق لا هو ذكر ولا هو أنثى. ويصوره على لسان نفسه وتلاميذه بأنه سكير حشاش: ففي ص ٢٨٨ يقول رفاعة «عيسى»: الخمر توقظ العفاريت، ولكنها تنعش من تخلُّص

من عفريته. وفي ص ٢٩١: وتساءل كريم، وهو أحد أعوان رفاعة: هل أُعدُّ المجمرة؟ فقال رفاعة بحزم: نحن في حاجة إلى وعينا. وينسب إلى رفاعة الزواج من عاهر وإن لم يَقْربها، مع أن عيسى لم يتزوج بنص القران. وقد ناقض الكاتب نفسه حين جعل بعض اتباعه يتجنبون الزواج حبًا في محاكاته. وجعل ولادة عيسى عن زواج، وذلك خلاف ما نص عليه القران. ويتنافى ختام حديثه عن عيسى مع ما جاء به القران من انه لم يُقْتَل، ولكنه جعل نهايته القتل كما جاء في الصفحات من ٢٩٢ إلى ٢٩٥.

ج- بالنسبة لمحمد المرموز إليه بقاسم:

١- وصفه بارتياد القهاوي وتعاطي الجوزة والشراب، وانه مولع بالنساء يترصدهن بالخلاء عند المغيب كما جاء في الصفحات ٣١٨، ٣٢٢، ٣٣٨. وفي ص ٣٤١ عند الحديث عن زواجه من قمر «خديجة»: اقترب منها بجلبابه الحريري، وجسده ينفث حرارة ممزوجة بسطول حتى وقف أمامها ينظر من عَلٍ... إلخ.

٢- ومن الألفاظ المقذعة الخارجة التي جاء بها الكاتب على لسان أحد البلطجية في النَّيْل من قاسم: عرف ابنُ الزانية كيف يفسد بيننا.

٣- بل من أفحش الفحش ما سرده من تعليل لزواج قاسم المتعدد ص ٤٤٣، إذ يقول: لم يتغير من شأنه شيء، اللهم إلا أنه توسع في حياته الزوجية كأنما جرى فيها مجراه في تجديد الوقف وتنميته. ثم يقوم بسرد التعليل عن زواجه

فيقول: «إنه يبحث عن شيء افتقده منذ فقد زوجته الأولى قمر»، أو «إنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعًا»، أو «إذا كانت الحارة أُعْجِبَتْ به لأخلاقه مرة فقد أُعْجِبَتْ به لحيويته مرات»، و«إن حُبُّ النسوان في حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون، ومنزلته تَعْدِل في درجاتها الفتونة في زمانها أو تزيد». وينتهي الكاتب من قصته إلى أن التقدم العلمي وتطوره بهذه الصورة إرهاص بانقراض الرسالات وانقضاء أثرها، وأن ذلك أثر من آثار شيخوخة الإله ثم موته.

هذه جوانب المؤاخذة في القصة، ولا يخفف من وقعها الانتقال من الأحداث الطبيعية وشخصياتها إلى أحداث دالة وشخصيات رامزة، فإن ذلك كله لا يخفي الوجه الحقيقي لكل حادثة ولكل شخصية. كما لا يخفف من وقع هذه المؤاخذات أن ما قدمه الكاتب من حيث هو- بعيدًا عن المعتقدات والمقدسات - عمل فني ممتاز، وقد كان في مقدور الكاتب أن يخرج عمله الفني بعيدًا عن هذا السقوط. لهذا أُوصِي بعدم نشر القصة مطبوعة أو مسموعة أو مرئية.

والله الموفق.

١٢-٥ -١٩٦٨

التقرير الثاني

بعد فحص رواية «أولاد حارتنا» للاستاذ نجيب محفوظ نجدها قصة رمزية واضحة الرمز تشير إلى قصة الحياة والبشر، إلا انها مع وضوح رموزها تحتوي على خلط شديد، ولا تنتظم على سياق تاريخي أو خط رمزي مستقيم. وقد رمز فيها لفترات متعددة: فترة بدء الخلق حتى بعثة موسى عليه السلام، وفترة بعثة موسى إلى بعثة عيسى عليه السلام، ثم بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم فترة التخلف والصراع على العالم الإسلامي... وهكذا. وقد جسد في رمزه باسم «الجبلاوي» صورة الإله ونعته بصفات مقذعة سواء على لسان إبليس «إدريس» أو قدري «قابيل» الابن العاصي من وَلَدَيْ آدم «أدهم» أو الفتوات، وفي بعض الأحيان على لسان الرسل أنفسهم، أو في تصوير بعض المواقف وقد وصفه مثلًا على لسان إبليس بانه قاطع طريق في القديم، وعربيد اثيم في المستقبل. ووصف تقاليد أسرته بالسخف والجبن المهين وانه يغير ويبدل في كتابه كيف شاء له الغضب والفشل. ووصفه على لسان قدري «قابيل» ابن ادم بانه لعنة من لعنات الدهر، وانه البلطجي الاكبر. ووصفه على لسان أحد الفتوات بانه ميت أو في حكم الميت. ووصفه على لسان ناظر الوقف بانه قعيد حجرته، ولا يفتح بابه إلا عندما تحمل إليه حوانجه. ووصفه على لسان عرفة «العلم الحديث» بأنه نائم غير

دار بجريمته. ثم تنتهي القصة بموت الجبلاوي «الله» على يد عرفة «العلم الحديث». وأما بالنسبة للرسل فقد صورهم في صورة من يرتاد «الغُرَز» ويتعاطى المخدرات، ووصف جبل «موسى» على لسان أحد الفتوات بأسلوب التحقير بأنه خنثى: لا هو ذكر ولا هو انثى، وعلى لسان نفسه ولسان تلاميذه بانه سكير حشاش. كما نسب إلى رفاعه «عيسى» الزواج من عاهر، وإن لم يَقْرُبْها. ثم ذكر بعد ذلك ان بعض اتباعه تجنبوا الزواج حبًا في محاكاته.

وجعل ولادة عيسى ناشئة عن زواج. وانهى حياة عيسى بالقتل. اما بالنسبة لقاسم «محمد» فقد وصفه بانه يرتاد القهاوي ويتعاطى الجوزة والشراب وبانه مولع بالنساء، يترصدهن بالخلاء عند المغيب. واستعمل في النيل منه الفاظًا مثل ما ذكره على لسان احد البلطجية: «عرف ابن الزانية كيف يفسد بيننا». ويقول في تعليل تعدد زوجاته: لم يتغير من شأنه شيء،. اللهم إلا انه توسع في حياته الزوجية كأنما جرى فيها مجراه في تجديد الوقف وتنميته. ثم يقول إنه يبحث عن شيء افتقده منذ فقد زوجته الأولى قمر «خديجة»، وإنه إذا كانت الحارة أُعْجِبَتْ به لأخلاقه مرة فقد أُعْجِبَتْ به لحيويته مرات، وإن حب النسوان في حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون. ولا يخفف من هذه المؤاخذات أنها سيقت مساق الرمز لأن الرمز مصحوب بما يحدد المقصود منه بغير لبس ولا شبهة، ولا ما يُذْكَر احيانًا على لسان بعض المغرضين او من استغرقتهم واستهوتهم هذه الأفانين من أن الكاتب يكتب فنًا ولا يقصد به القصص الديني. فنحن في هذه القصة نعالج القصة ورموزها الواضحة بدون لجوء إلى قصد الكاتب ونيته، فسوف يحاسبه الله تعالى عليها، وأما تقدير العمل من حيث هو فن «رفيع» فنتركه لهؤلاء

النقاد الذين استساغت أذواقهم «الرفيعة» مثل هذا الفن.

وقد قرر مجمع البحوث الإسلامية حظر تداولها او نشرها مقروءة او مسموعة او مرئية، وكذلك حظر دخولها بناء على هذا التقرير وعلى تقارير الأجهزة الرقابية الأخرى. وبالله التوفيق.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

١-١٢-١٩٨٨

رسالتان[١٧٦]

إلى فيليب ستيوارت:

عزيزي الأستاذ فيليب ستيوارت
تحية طيبة، وتهنئة خالصة على المولودتين الجديدتين: ١- ابنتكم ٢- روايتكم.

ومعذرة عن تأخري في الرد فقد امضيت الصيف وجزءًا من الخريف في الإسكندرية لأسباب صحية، ولكني الآن في صحة لا بأس بها.

وقد قرأت مقالتك، وأعجبت بفكرتها، ووجدت فيها حلًا موفقًا بين من اتهموا روايتي بالإلحاد ومن وصفوها بأنها عمل صوفي. وأعجبني كذلك متابعتك لأصلها عند برنارد شو، وهذا يتفق مع إعجابي به وبعمله الكبير «الرجوع إلى متوشالح» بصفة خاصة. ولعل الدكتور مندور كان الناقد الوحيد الذي ألمح إلى مثل هذه الفكرة عندما قال عني أني نقلت فكرة تقليدية عن الله دون تعرض الله ذاته.

إنك جدير بكل شكر، أولًا لترجمتك الرواية بأسلوب شهد له كل من قرأه بالجودة والجمال، وثانيًا بكتابة هذا المقال الجيد. ولك مني أطيب التحيات.

(١٧٦) مترجم رواية اولاد حارتنا إلى الإنجليزية

إلى د. محمد حسن عبد الله[١٧٧]

سيدي الدكتور محمد حسن عبد الله
تلقيت كتابكم «الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ» فقرأته بشغف ودون توقف، وأشهد بأنه جديد في نظرته، ومبتكر في رؤياه، ودليل قاطع على استقلال فكركم وسمو هدفكم، ولم أجد تناقضًا بين أحكامكم وبين نبض قلبي، ولعل الاضطراب الناشئ من قراءة أدبي أحيانًا مصدره أن قلبي يجمع بين التطلع الله والإيمان بالعلم والإيثار للاشتراكية. ومحاولة الجمع بين الله والاشتراكية مثار للظن بالإلحاد عند قوم، وبالمحافظة عند آخرين. وطالما عجبت من أن تتخذ الفلسفة الشيوعية دينًا، إذ إنني بصفتي تلميذًا للفلسفة أعلم أنها أبنية تتجدد من تطور الزمن ولا تصلح للعبادة على الإطلاق. أما ما يثير إعجابي في الشيوعية فهو عدالتها الاجتماعية المطلقة والتي لم تطبق بعد في روسيا نفسها.. ألا وهي من كل على قدر طاقته ولكل على قدر حاجته، فهو أساس كامل في المعاملة الإنسانية يجعل من البشرية أسرة سامية، ولكن أي ضرورة تستوجب لكي أومن بذلك أن أومن قبلًا بالتفسير المادي أو بإنكار الله؟

(١٧٧) مؤلف كتاب «الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ».

ولا يسعني يا سيدي إلا ان أوجه إليكم صادق الشكر والتقدير، سائلًا المولى ان يجعلكم منارًا للعقيدة النقية والعلم المضيء، وان يجعل من كتابكم مرشدًا للعرب في موقفها العسير، يدفعها في طريق الحضارة والتقدم بلا تخلٍ عن الخالد من قيمها الموروثة.

ودمتم للمخلص

نجيب محفوظ

١٥ -٣- ١٩٧٢

نص التحقيق مع نجيب محفوظ
بعد محاولة اغتياله (١٩٩٤)

انتقل (شريف الحلواني) رئيس نيابة امن الدولة العليا إلى حجرة نجيب محفوظ بمستشفى الشرطة يوم ٢٠ اكتوبر للحصول على أقواله في محاولة اغتياله:

- **اسمك وبياناتك الشخصية؟**

- اسمي نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم.. السن ٨٣ سنة.. كاتب بجريدة الأهرام وحاصل على جائزة الدولة التقديرية وجائزة نوبل العالمية.

- **ما تفصيلات حدوث إصابتك؟**

- أنا عادة بأخرج يوم الجمعة من البيت الساعة ٤,٥٠ ينتظرني صديقي (فتحي هاشم) بسيارته، ونركب سويًا ونروح كازينو قصر النيل لحضور الندوة الأسبوعية الأدبية والتي نعقدها في الساعة الخامسة حتى الساعة السابعة. وفي البداية كنت أروح هذه الندوة في تاكسي او سيرًا على الأقدام احيانًا، وبعد ذلك صديقي الدكتور (فتحي هاشم) تطوعًا منه يأخذني معه في العربية الخاصة به. والندوة كل يوم جمعة من الأسبوع، ويوم

الجمعة الماضي الموافق ١٤ اكتوبر ١٩٩٤م خرجت بالفعل حوالي الساعة ٤,٥٠ م تقريبًا ووجدت صديقي (فتحي هاشم) واقفًا بجوار باب العربية علشان اركب على الكرسي المجاور لكرسي القيادة، وعادة الدكتور (فتحي) انه ينتظر لما يطمئن انني ركبت العربة، وبعد ذلك يلف هو ويركب علشان يسوق ونروح المشوار بتاعنا. بس المرة دي مش فاكر انا ركبت الأول ام هو لف علشان يركب الأول، ومن ساعة ما نزلت لحد باب العمارة، ولحد ما ركبت جوه العربية لم يستغرق اكثر من دقيقة او دقيقتين تقريبًا، وبمجرد ما قعدت جوه العربية فوجئت بخاطر غريب كأنه وحش او كلب وولف هجم عليَّ وماسك بضوافره فيَّ، وبقيت اسأل نفسي إيه اللي بيحصل ده؟ وإيه اللي يجيب وحش جوه الاتومبيل؟ وبعدها حسيت إن فيه جسم زانق عليَّه، فبصيت لقيت واحد زي ما يكون بينط من الاتومبيل ويبرمي من إيده خنجر بيد ومدبب وفيه حتة بارزة، واول ما شفت الشخص والمطوة دي بتترمي من إيده على جسمي، عرفت إن الموضوع موضوع إرهابيين ضربوني والموضوع اللي باسمعه من ست سنين حصل، لأن من ست سنين ايام ما حصلت على جايزة نوبل وأنا قاعد في قهوة شهرزاد ومندوب من جريدة (النبأ) الكويتية كان ساعات يقعد معايا في القهوة، وقال إن الشيخ (عمر عبدالرحمن) أهدر دمك، وانا كنت في ذلك الوقت اول مرة أسمع باسم الشيخ (عمر عبد الرحمن)، وده اللي اذكره

وسألته: ليه بيهدر دمي؟ فقال لي مندوب (الأنباء) الكويتية: إن الشيخ (عمر عبد الرحمن) يقول لو اننا قتلنا نجيب محفوظ من ٣٠ سنة مكانش طلع (سلمان رشدي)، وبعد الواقعة دي بأيام اتصل بي أحد رجال الامن المصري وقال لي: انا انصحك تتخذ حارس يكون مرافق لك في تنقلاتك. فانا قلت له إن ده كلام. (عمر عبد الرحمن) لم يقل فتوى بالقتل ولكنها جملة شرطية بيقول لو اننا قتلنا نجيب محفوظ من ٣٠ سنة مكانش طلع سلمان رشدي. فقال لي: انا عارف. لكن (عمر عبد الرحمن) له اتباع ومهاويس وأنه من الممكن واحد منهم يفهم من الكلام ده على إنه إشارة او فتوى بالقتل. فانا وضحت له أن ظروفي وأسلوب حياتي اليومية يتعذر معه أن يكون معايا حارس خاص، لانني اتمشى بالساعة يوميًا تقريبًا ولي ندوات واجتماعات، وفي ذلك تعذيب للحارس المرافق لي، وقلت له: هذا الحارس يمكن يزهق مني ويمكن هو الذي يقتلني. فكتب محضرًا بما دار بيننا واقنعني بتعيين حارس على باب البيت ودايمًا كان يأتي، لكن يوم الحادث مكانش موجود، وعدم وجوده ده يوم الحادث امر مش غريب، لانه في أحيان كثيرة كنت لا اجده قدام البيت، ومشيت الامور وكنت مطمئنًا تمامًا لانني لم اكن أصدق ان رواية الفت سنة ١٩٥٩م ونشرت وممنوع صدورها في مصر (اولاد حارتنا) ولمجرد انني أحصل على جائزة نوبل العالمية تطلع المصايب دي كلها.

ونرجع تاني ليوم الحادث، فبعد ما حصلت الضربة ولقيت (فتحي) بيصرخ وبيشاور على واحد بيجري أنا شفته من ضهره وبيقول امسكوا القاتل، وبعدين ربنا الهمه رجع جري وغطاني بالجاكتة بتاعته، وطلع بي جري بالعربية على مستشفى الشرطة بسرعة علشان ينقذ حياتي، لأن في تصوري لو تأخر شوية كان اتصفى دمي وكنت مت، وكان واضح إن ربنا سهل لنا كل شيء في الطريق حتى إن اللي واقفين على باب المستشفى فتحوا لنا على طول دون احتجازنا أو سؤالنا عن الإجراءات اللي بيعملوها دايمًا، ولقيت رعاية كبيرة في المستشفى ودخلوني على اوضة العمليات، وأنا في حالة شبه مذهول ومش حاسس حتى بأي ألم، حتى (فتحي) بعد ما أجريت العملية وفقت قال لي: إنت صرخت؟ قلت له: أنا مش فاكر، وأنا بعد ما فقت سألت المدام وقلت لها: ده رايحين يعملوا لنا عملية، فقالت لي إن العملية اتعملت خلاص، وفضلت قاعد في المستشفى في عناية تامة لحد دلوقتي، وده كل اللي فاكره ومستعد لأي سؤال أجاوب عليه، وأحب أن أوضح شيء مهم بخصوص (أولاد حارتنا) اللي بيتخذها الإرهابيون كسند أو دليل لهم على استباحة دمي أو على أنني مرتد على حد قولهم وهو إن الرواية الفت قبلها روايات كثيرة بتطبع ككتب، ورواية (أولاد حارتنا) كانت بداية اتصالي بالصحافة، وكانت تنشر مسلسلة في جريدة الأهرام، وبداية مش معقول يكون رواية فيها مجازفة فكرية أو

اجتراء على الذات الإلهية واختارها لكي تنشر على عناوين الصحف.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى (أولاد حارتنا) مثل (كليلة ودمنة) تخلق عالمًا متطورًا لتوحي بعالم وراءه، فنحن بين الحيوانات عايشين في غابة، ولكن تعرف ويعرف القارئ العادي إن إحنا نقصد نقد البشر ونظم الحكم والعلاقات بين الأفراد وحكمة الحكماء وسفاهة السفهاء، ولكن ما دام التزمنا إن إحنا نكون في الغابة، فلازم يكون أبطالنا حيوانات ولا نحاسب ونحن بنعاملهم معاملة الحيوانات، لأننا بنعامل المرموز له بالحيوان، وعلى نفس النمط مشيت في (أولاد حارتنا) بأعرض فيها المصريين في حارة وأسلوب حياتهم والظلم بكل ما فيه، ثم يجيء ناس اللي رمزت لهم برمز الرسل وغيره ليدافعوا عن الحارة وعلشان وصية (الجبلاوي) تنفذ، علشان يحسن هذا الرمز في الحارة في صراع بين الأشرار التي فيها اللي بينهبوا الوقف ويظلموا العباد، حتى ينتصر الحق في النهاية كرمز لانتصار دين من الأديان، وبالعكس الرواية بتصور إن الدين لعب دورًا في تطوير البشرية والدفاع عن أبنائها باسم المبادئ الإلهية، وفي ذات القصة يجيء واحد اسمه (عرفة) معجباني بنفسه وادعى إن هو اللي يقدر يصلح الحارة مش (الجبلاوي) ولا غيره، وادّعى كمان إن (الجبلاوي) مات وراح لحاله، وإذا به يقع تحت سيطرة (ناظر الوقف)

وكل علمه يسخره في خدمة (الناظر) وليس في خدمة الحارة، لذلك هو بنفسه قال يجب إحياء (الجبلاوي)، وموت (الجبلاوي) وإحياؤه رمز للكفر والعودة للإيمان بإحياء (الجبلاوي)، وانا عايز اقول إن الرواية دي من وجهة نظري انا ككاتب اول تبشير لضرورة التحام العلم بالإيمان، والرواية تقول بصريح العبارة إن الدين أنقذ البشرية من المظالم وإن العلم قادر ايضًا على أن يرتقي بها ويحسن حالتها، لكن بشرط الا يحيد عن مبادئ الدين، وهناك دليل آخر على ان هذه الرواية لا تتضمن ارتدادًا او كفرًا أو طعنًا في الأنبياء، والرسل إن هذه الرواية كتبت منذ سنة ١٩٥٩م وتم نشرها وحجبت عن النشر إلا ان العقاب عليها يأتي بعد فوات هذه المدة الطويلة وبعد حصولي على جائزة نوبل مما يدل على أن القصد من الاعتداء عليَّ ليس هو اخذي بما ورد بهذه الرواية، وإنما اتخذوها وسيلة او مبررًا لقتلي بدون سبب.

• وما قولك فيما جاء بأقوال المتهمين (محمد المحلاوي) و(محمد ناجي) بالتحقيقات من ان رواية (اولاد حارتنا) التي قمت بتأليفها تدور باختصار في مضمونها حول قصة الكون والخلق وانك قمت بتصوير الذات الإلهية في هذه الرواية في شخص (الجبلاوي) وانك انتهيت في هذه الرواية إلى ان إخراج (الجبلاوي) من التكية يؤدي إلى إصلاحها بل هو الحل الوحيد لإصلاحها بما يعني أن

الناس يجب أن تعيش من غير إله ولا دين!!

- أولاً إن هؤلاء الذين يدعون ذلك لا يقرأون القصص...
الأدبية بعين أدبية أو إنسانية تريد أن تعرف الحقيقة
وصراع الخير والشر، إنما المهم العمل في نظرهم
يكون خاضعًا حرفيًا لتعليمات الدين، وحتى في ذلك
هم يغالون لأن الدين نفسه عرض قصة الخير والشر
وقصة عصيان (إبليس) على الذات الإلهية. ورواياتي
كلها بتدور حول مفاهيم واضحة لا يمكن بحال من
الأحوال أن يكون القصد منها التعرض لأي دين من
أديان السماء أو ازدراءه، والقول أنني كافر أو ...
افتراء بل إنه في اعتقادي قول صادر عن أشخاص لا
يعرفون أمور دينهم الصحيح، لأنهم لو يعرفون ذلك لما
يحكمون على رجل مثلي من رواية واحدة، فإن لي الكثير
من الروايات والمؤلفات ولم يقل أحد عنها أنها ...
الذات الإلهية أو تتعرض بالتهوين من شأن الدين ...
على فرض أنني في رواية (أولاد حارتنا) تعرضت ... الذات
الإلهية أو كفرت كما يقولون، فما الذي أدراهم ...
قد أكون عدت لصوابي، وأني في هذا العمر الطويل
منذ كتابتي لهذه الرواية لم أغيِّر موقفي. هذا على
فرض صحة ما يدَّعون وهو فرض جدلي، ولماذا لو أن
عندهم القدرة على الحوار والفهم والوصول إلى المعاني
والمضامين لم يأتوا ليناقشوني فيما كتبت حتى ...
حكمهم عليَّ بالقتل بعد سماع أقوالي على الأقل ...

من أنهم يأخذوني غدرًا وغيلة، وفي النهاية أحمد الله، وحسبي الله ونعم الوكيل.

• هل لديك أقوال أخرى؟

لا.

و(بصم) نجيب محفوظ على أقواله، لأن يده لم تعد صالحة للكتابة!

واعترافات المتهم بمحاولة اغتيال نجيب محفوظ

• ما اسمك وسبب انضمامك إلى تلك الجماعة المشاركة في اغتيال نجيب محفوظ؟

- اسمي (محمد ناجي محمد مصطفى) فني إصلاح أجهزة إلكترونية، وحاصل على دبلوم صنايع من مدينة السلام، ومقيم بعين شمس التي وفدت إليها من ملوي بالمنيا، بدأت التزم دينيًا منذ أربع سنوات عن طريق صديق لي، وترددت على مساجد الجماعة في عين شمس. ومنها مسجد (الصفا) وقرأت الكثير من الكتب الخاصة بالجماعة وكتاباتها التي تخص (الشيخ عمر عبد الرحمن) و(عبود الزمر) و(ناجح إبراهيم) وغيرهم، وهدفنا الذي تعلمته هو تحكيم كتاب الله، ولنا أهداف كثيرة ننفذها وكان بينها اغتيال الكُتَّاب والشخصيات والشرطة.

• كيف تريدون تطبيق شرع الله بالسلاح؟
وهل الإسلام يقر القتل؟

- هذه وسيلة نلجأ إليها لإرهاب كل من يحاول منعنا من أداء رسالة الجماعة التي ننشدها، والغاية تبرر الوسيلة،

وسوف نحاسب يوم القيامة على النية، ولا يهم سقوط ضحايا أبرياء عند تنفيذ أهدافنا!

• اغتيال نجيب محفوظ لمصلحة من؟ وكيف وضعت الخطة وتفاصيلها التي عايشتها بدقة؟

- أولًا كان هناك تكليف باغتيال نجيب محفوظ بحجة مهاجمته للدين الإسلامي في رواية (اولاد حارتنا) ولم نناقش مثل هذه الأمور، فكل ما علينا إطاعة الأوامر وتنفيذها فقط، والذي نقلها لنا (باسم محمود خليل)، والفتاوى حسب علمي صدرت من (عمر عبد الرحمن) وقادة الجماعة داخل السجون، فهؤلاء اباحوا دمه مثلما حدث منهم تجاه الدكتور (فرج فودة)، وتلك العمليات تهدف لخدمة الجماعة في تنفيذ مخططها الذي تضعه امام خلاياها المختلفة، هذا و(باسم) قد قُتل في معركة مع قوات الشرطة بعين شمس. مهمة الحصول على عنوان منزل الكاتب نجيب محفوظ كانت مهمة (باسم)، وقمت بالرصد معه، وحددنا موعد التنفيذ للعملية يوم الخميس السابق على الحادث.

• كيف كانت خطتكم؟

- تتم العملية باستخدام السلاح الابيض (مطواة) نظرًا لطبيعة المنطقة والانتشار الأمني الذي رصدناه فيها، وتوجهت ومعي (باسم) لمنزله مساء الخميس لذبح نجيب

محفوظ في منزله، وكنت أحمل مطواة ومسدسًا أخفيتها وسط ملابسي (قميص وبنطلون) وكان (باسم) يرتدي ملابس خليجية وهدفنا قتله، وحملنا باقة زهور وشيكولاتة بحجة تقديمها هدية للكاتب، وصعدنا إلى شقته، طرقناها ففتحت لنا سيدة (زوجته) أفهمناها برغبتنا في مقابلة الأستاذ فاعتذرت لنا لعدم وجوده، وأبلغتنا بإمكانية مقابلته في كازينو قصر النيل غدًا الجمعة في الخامسة مساء، فربنا لم ييسر الأمر والعملية لم تتم ونزلنا.

- **ذهبتم لذبح الكاتب أمام أسرته؟**

- نعم هدفنا كان نبحه داخل منزله، وحملت المسدس معي لإرهاب أفراد أسرته ولمقاومة محاولة طلب النجدة. وكانت تلك خطتنا... وفي يوم الجمعة صباحًا التقى أفراد المجموعة الخمسة واتفقنا جميعًا على أننا «إن شاء الله» نقتله عصر الجمعة، فذهبت ومعي (عمرو محمد إبراهيم) إلى منزله، وكان سيلحق بنا الثلاثة الأخرون بسيارة لتنفيذ العملية سواء أمام المنزل أو في الكازينو، بأي شكل لن نعود إلا ومعنا رأس نجيب محفوظ، وفي الخامسة إلا ربعًا تقريبًا نزل الكاتب ومعه شخص آخر ووقف بجواري لحظات مرت عليَّ كالدهر. يدي داخل ملابسي تتحسس المطواة، انتظرت حتى جلس فوق مقعده بالسيارة، هممت بطعنه في رقبته بكل ما أوتيت من قوة وفي مكان خاص لإنهاء حياته وتركت

المطواة وهربت، واستعملت سيارة أجرة إلى ميدان التحرير ثم عين شمس لمقابلة باقي أعضاء المجموعة لسابق تحديدنا موعدًا للقاء لبحث الموقف عقب تنفيذ العملية، واول المقابلة اخذ كل منا الآخر بالاحضان، وكانت كلمة (مبروك) هي شعار هذا اليوم!

• موقف الإسلام معروف من قتل كبار السن وغيرهم.. اي دين يقر عملكم هذا؟

- هكذا كانت الفتوى بالقتل ونحن نفذنا ما طلب منا، و(شرف) لأي مسلم يقتل نجيب محفوظ وقد نلت هذا الشرف.. نعم كنت أريد قتله، ولو قدِّر لي الخروج من السجن حيًا ما ترددت لحظة في قتله مرة أخرى، نعم الأعمار بيد الله، لكنني طعنته وغرزت المطواة في رقبته وتحديت زملائي أن تكتب له النجاة، لكن الله سبحانه كتب له عمرًا طويلًا. كنت ثابتًا وانا أنفذ جريمتي ولم تتحرك مشاعري وانا أرى المطواة والدماء تنزف منه وسمعت تأوه الرجل من شدة الطعنة، وتوقعت موته مثل فرج فودة.

• (أولاد حارتنا) وكتابات وروايات وكتب كاتبنا الكبير.. هل قرأتها؟

- لم أقرأ (أولاد حارتنا) لكني قرأت له ٤ كتب ولكني نسيت عناوينها.. لا أعرف بالضبط ما تذكره الرواية، لكن حسب ما أفتى به (الشيخ عمر عبد الرحمن) وغيره من الفتاوى التي

قراتها ان محفوظ تعرض في روايته للدين الإسلامي.

• ولكن هذا غير صحيح؟

- ليس لي دراية بالرواية.. إنني انفذ ما اتفقنا عليه.

• ما توقعات المجموعة الإرهابية بعد الحادث ولحظات سقوطها؟

- للاسف لم نتوقع القبض علينا، خاصة بعد هروبنا من منطقة الحادث بالعجوزة، واليوم التالي كنا متفقين على المقابلة بمقهى بعين شمس، وفجأة وجدنا سيارة تقف على مقربة منا ونزل منها مجموعة وعلى الفور تحركنا من فوق مقاعدنا وهمسنا انهم شرطة، ولحظات واطلقنا الرصاص وهم بادلونا نفس الشيء فأصبت ومعي (باسم) الذي توفي بالمستشفى، و(عمرو إبراهيم) ما زال مصابًا.. ووصول الأمن إلينا بهذه السرعة يؤكد أن جهاز أمن الدولة قوي جدًا. والشيء الخطير الذي يدور في أذهان الجماعات حجم الاختراق من جانب الجهاز للجماعات، والدليل سقوط العديد من قادتنا وهذا لم يأتِ إلا بالاختراق لنا ولصفوفنا. وأحدثت هذه العملية ارتباكًا شديدًا في صفوف الجماعة خاصة أجنحتها العسكرية، وجاءت حادثة مقتل القيادي (طلعت همَّام) لتؤكد من جديد قدرة الأمن على الوصول إلى قادة الجماعة، ويكفي انني وعددًا آخر من مجموعتنا لم

نسجل أمنيًا، ورغم هذا وصل الأمن إلينا، وهذه شهادة أذكرها رغم اختلافنا مع الأمن وحربنا ضدهم.

• ما علاقتكم بعمر عبد الرحمن والعناصر الهاربة في الخارج والداخل؟

- عمر عبد الرحمن هو عالم الجماعة الإسلامية وفقيهها الكبير، وصاحب مكانة بين صفوفها، وله الكثير من الكتب والكتابات التي تثري العمل الجهادي، والرجل الثاني هو الشيخ (عبد الآخر حماد) هارب بالخارج في المكانة الثانية باعتباره شاب متعلم ومثقف في الجماعة الآن، وهذا الرجل له كتاب (جواز تغيير المنكر وحد الرعية) يوضح فيه الخطر الذي يواجهنا والأدلة الشرعية التي نستند عليها في أعمالنا ضد النظام، وهناك مجموعات أخرى منها (عبود الزمر) و(عصام دربالة) و(ناجح إبراهيم) و(عاصم عبد الماجد) «جميعهم مسجونون حاليًا على ذمة أحداث ١٩٨١»، ولهم كتابات تتحدث في مختلف الأمور المتعلقة بعمل الجماعات ومواقفها وتشمل فتاواها وأحكامها وهي تفيدنا في عملنا.. تلك الكتابات هي دستور العمل داخل صفوف الجماعة على غرار كتاب ميثاق العمل الإسلامي الذي يحدد الأهداف التي ننشدها.

• ما طبيعة علاقتكم بتنظيم الجهاد؟

- نحن وهم في خندق واحد، وإن كان الجهاد يهتم بالسرية

في عملهم بخلاف الجماعة الإسلامية، وهذا هو وجه الخلاف، لانهم دائمًا يريدون العمل في الخفاء، ونحن نعمل في العلن، وإن كانت الأجنحة العسكرية بالجماعة الآن اتخذت الجانب السري في عملها من الجهاد، ومنها حلق اللحية وارتداء الملابس العادية: جينز وغيره.

• والإخوان.. كيف تراهم؟

- هذه الجماعة الواضح من خطابها العلني اختلافها الكبير مع الحقيقة المخبأة تحت الأرض، فهم يعملون في الخفاء من أجل هدف معين يضعونه أمامهم وهو السيطرة على الحكم، والمؤكد وليس هذا سرًا أن الإخوان يفرحون عند وقوع عمليات تحدث دويًا كبيرًا في مصر، وهم يتمنون اشتعال النيران في كل مكان دون إلصاق الاتهامات بهم.

• والمساجد كيف ترى دورها بوصفك عنصرًا نفذت جريمة إرهابية كبيرة؟

- للاسف المساجد الحكومية لا يوجد بها خطباء يمكنهم جذب المصلين إليهم، وهي تحتاج إلى دعاية كاملة وتدريب كوادر تؤدي رسالتها، بعكس الجماعات التي جذبتني إليها واستطاعت في فترة وجيزة إقناعي بأفكارها لأرتكب أول جريمة في حياتي.

• هل كنت تدرك انت وشركاؤك الصدى الذي سيحدث من محاولة اغتيال الكاتب الكبير نجيب محفوظ؟

- بالطبع كنا نخطط لذلك، وهذا احد الأهداف الرئيسية التي تسعى إليها الجماعة في عملياتها.

....

في ١٠ يناير ١٩٩٥، وبعد ١٢ جلسة اصدرت المحكمة العسكرية العليا حكمًا بإعدام كل من محمد ناجي المتهم الاول، ومحمد المحلاوي المتهم الثاني.. وقالت المحكمة في حيثيات حكمها:

«إن تلك الجماعات ارادت ان تجرح بايدي عناصرها امن وسلامة بلدهم، فكان الجرح أولى بهم، وإن ما حوته أوراق الدعوى لتنبئ عن ان فلول الإرهاب تسعى دائمًا إلى التجمع، وإعادة تكوين مجموعات تبغي اغتيال الرموز الفكرية، فما كان نجيب محفوظ إلا رمزًا للفئة المفكرة، فتاججت بين ضلوعهم ان يكون مقتله كمن قتل من المفكرين جميعًا.. وإن واقعة نجيب محفوظ لم تكن إلا بداية لسلسلة من الجرائم، وان قادة تلك الجماعات الإرهابية اهتموا بتدريب المتهم (محمد خضير المحلاوي) على كيفية تصنيع العبوات المفرقعة من خامات سعى إلى إحضارها باحد اوكارهم، كما استعمل أعضاء الجماعة بطاقات مزورة، كما هو الحال في معظم مخططاتهم وانتحلوا اسماء وهمية لإخفاء شخصياتهم، وضبط بحوزتهم اسلحة نارية ومطبوعات تدل على افكارهم المغلوطة، ومفرقعات كانوا يزمعون استخدامها لخدمة الإرهاب الأسود».


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

أولاد حارتنا: سيرة الرواية المُحرمة

ليست «أولاد حارتنا» مجرد رواية يطرح فيها نجيب محفوظ أسئلته حول العدل والحرية، إنها حكايتنا مع السلطة: كل سلطة، حكاية مجتمعنا نفسه وشوقه للتفكير خارج الصناديق الضيقة.

بدت الرواية على مدى أكثر من نصف قرن كنزًا سياسيًا، تتصارع عليه كل القوى السياسية، والدينية وتحاول توظيفه لمصلحتها الخاصة، ورمزًا لمعارك ثقافية وسياسية واجتماعية، تتخذ كل فترة شكلًا جديدًا، وشملت ساسة، ورجال دين، وأدباء، وقتلة، ومؤسسات، وتبلغ ذروتها بمحاولة اغتيال على يد شاب لم يقرأ حرفًا باستثناء فتاوى شيوخه.

عبر رحلة بحث في مئات الوثائق والدوريات، وبلغة تمزج بين السرد بتقنيات السينما التسجيلية، يلتقط محمد شعير دراما اللحظة المتوترة التي أثارتها «أولاد حارتنا»، ليتجاوز كونها أزمة في حياة صاحبها، بل وسيلة لقراءة آليات وتفكير المجتمع، كاشفة لطبقات أعمق منه، وملتمسة بعضًا من جذور المواجهة بين حرية الفكر واستبداد الرجعية، قراءة لا تنشغل بالإجابة أكثر من طرح الأسئلة، ومن ثم تبدو مرآة لواقعنا الراهن. هي رواية الرواية، رحلة بحث عن التفاصيل المنسية، حول البشر، والزمن، والتحولات، ودوائر الصراع المكتوم داخل حارتنا المأزومة.

محمد شُعير: كاتب صحفي، وُلِد عام 1974، ودرس الأدب الإنجليزي. حصل على العديد من الجوائز من بينها جائزة دبي للصحافة، وجائزة نقابة الصحفيين لدورات متتالية.

صدر له: «كتابات نوبة الحراسة: رسائل عبد الحكيم قاسم»، «مذكرات الآنسة أم كلثوم»، و«إدوارد سعيد: المفكر الكوني» (بالاشتراك مع آخرين).

تصميم الغلاف: أحمد اللباد




9 789774 905131